# الزنزانة





فتحى فضل

# الزنـــزانـة

فتـــحى فضـــل

الطبعة الأولى

١٤١٤هـ ـ١٩٩٣م



الغلاف من تصميم المؤلف

# إهـــــــداء

إلى الحبيبة مصر .. أمى وكل أهلى .

إلى السيدين وزيرَى الداخلية والعدل .. صاحبَى الفضل فى رحلة الذهاب والإقامة والعودة .. قبضاً وحبساً وإفراجاً .. ولم يبخلا علىَّ بالسيارات المصفَّحة والضباط والجنودْ والقيود الحديديَّة .. والرغيف الحاف .

إلى كلّ من تعاملت معهم من السادة القضاة ووكلاء النيابة وضباط المباحث .. أصحاب القرار فى رحلة العذاب .. الذين أحاطونى بالرعاية والاهتمام فأتحفونى طوال أيام الرحلة الأربعين .. وعلى مدى أربع وعشرين ساعة كل يوم بوابِل من النواهى والتحذيرات والممنوعات .. حتى وأنا فى دورة المياه .

وأخصّ بالذكر السادة ضباط الصف .. أو الصف ضباط الذين لولا أسلوبُهم السيّئ .. والسيئ جدّاً فى المعاملة ، واستفزازهم لى ولغيرى طوال أيام المحنة .. ما فكّرت أبداً أن أدوّن هذه المذكرات .. ولا فكرت فى نشرها .. وأعتبر هذه المذكرات موجهة إليهم فى المقام الأول وعلى وجه الخصوص ..

إلى كلّ من التقيت بهم أو تعاملت معهم من السادة المسجونين (محتالين ونصابين ومختلسين ومرتشين ومزورين ومزيّفين ولصوص ونشّالين وقتلة .. وتجار مخدرات وعملة وأعراض) مذنبين وأبرياء .. زملائى فى رحلة العذاب.

إلى السادة الصحفيين الذين تحرّوا الدّقة وأنصفوا الحقيقة.. وأيضا الذين تناولوا الموضوع على صفحات الجرائد والمجلات دون أن يكلفوا أنفسهم مشقة تحرّى الحقيقة .. فكتبوا بغير علم .. وردّدوا بغير تبصر أو يقين .

إلى الأسطى عوض.. زميل البُرْش الذى ساعدنى فى تهريب هذه المذكرات من السجن فكتب لها شهادة ميلاد.. ولولاه ما خرجتْ إلى النّور ولا أصبحت كتاباً بين يدى القارئ .

إلى أسرتى الصغيرة.. وكل من عاش معى ـ منَ خارج السجن ـ عذاب الرحلة..

إلى كلّ هؤلاء أهدى مذكراتى.

فتحى فضل

مارس ١٩٩٠

# مقـــــــدمة

كان سجنا فحولته جامعة .. وتعلمت .

أمر نيابة بالحبس على ذمة التحقيق فى اتهام كاذب .. ثم قرار محكمة باستمرار الحبس والإيداع بالسجن .. فحوّلت السجن إلى جامعة .. والزنزانة إلى معمل .. وكل من صادفنى أو تعاملت معه من سجانين ومسجونين إلى فئران تجارب .

وفلسفتُ أيامى .. وراقبت وتأملت وحللت .. نماذج بشرية زاخرة بشتى العقد والانفعالات والسلوكيات .. ونسيت .. أو تناسيت محنتى .. وجعلت رأسى ونفسى جهاز تسجيل لأحداث وحكايات .. وترمومترا لجسّ مشاعر وأحاسيس .. وكمبيوتر لحسابات ومواقف .

وسعدت بالتجربة وبالكتابة .. وكنت السجين الوحيد على ما أظن الذى تمنّى أن يطول سجنه ليتمتع أكثر بالتجربة والمشاهدة والنتيجة .. فليس متاحا بسهولة لأى كاتب أن يعيش هذه التجربة .. فلو حصل على موافقة بزيارة السجن أو حتى البقاء فيه لعرضت عليه حكايات ملفقة ونماذج مزوّقة وأخفى عنه السجانون والمسجونون كل ما يدين أو يشين .. ولكنى عشتها بواقعها وأنا جزء منها فجاءت حية نابضة .. ولم تكن فى السجن السياسى حيث يدرك المسئولون أنهم يتعاملون مع نماذج مثقفة .. بل كانت

فى الحبس الاحتيـاطى العام .. فتعاملت مباشـرة مع عكارة المجتمـع فى قـاع المدينـــة .

ولقـد استولت علىّ طوال أيام السجن حالة من الرضا .. بل والسعادة والفرحة أحيانا .. فتقبّلت المتاعب .. وعندما كانت تزيد عن حدها كنت أتصدى لها بالصبر .. كالعالم الذى يحقن نفسه بالمصل ويُجرى على نفسه التجارب ويتحمل آلامها سعيا وراء النتيجة وحُبّاً للكشف .. سعيدا بالنتائج التى يتوصّل إليها .. رغم الآلام والمعاناة .. ليُهدِى فى النهاية الخيرَ للناس .

# الحـــــلم

توقفت أصابعى على (الأفيال) وهى رواية للأديب فتحى غانم .. وتمددت فى فـراشى ونبـهت أولادى إلى إنكار وجودى عن كل من يســأل عنى بجرس الباب أو جـــرس التليفون ..

الرواية عن رجُل أصابه الملل .. وأشار عليه صديق بشركة سياحية تقدم رحلات عجيبة إلى جهات مجهولة .. وتأخذ على العميل شروطا مكتوبة بأن يذعن للذهاب إلى الجهات المجهولة التى تحددها الشركة .. وألا يحتجّ أو يعترض أو يرفض أو يقاضى الشركة مستقبلا على أى شيء يصادفه فى الرحلة لا يروق له أو أى متاعب يتعرض لها .. ويوقع للشركة على عقد (إذعان) أن يكون لها كل الحق فى التصرف فيه جسدا ونفسا .. تفعل به ما تشاء طوال مدة الرحلة .. ولقد وقّع البطل للشركة العقد .. وترك نفسه لها تنقله من أوتوبيس إلى قطار إلى باخرة إلى طائرة .. ومن مدينة إلى قرية إلى صحراء إلى غابة .. دون أى استجابة لأسئلته المنزعجة .

وسألت نفسى .. هل حالة الملل التى عندى فى حاجة إلى هذا اللون من الرحلات .. إلى هذا النوع من العلاج .. فجزعت نفسى وتهيبت هذا المجهول المطلق .. أنا فى حاجة إلى شيء جديد ليس مجهولا .. شيء أتعلمه أو أمارسه أو أشاهده .. رحلة إلى عرض البحر مثلا أتلذذ بمشاهدة سمك القرش وهو يتقافز حول سفينة أنا على ظهرها فى مأمن .. أو رحلة إلى غابة أشاهد الحيوانات المتوحشة وأنا مختبئ فى سيارة مصفحة .. أو رحلة إلى منجم .. إلى مستشفى المجانين .. إلى السجن ..

( آه .. رحلة إلى السجن .. ياسلام .. ألبس بدلة زرقاء وأضع على صدرى رقما وينادوننى يا رقم كذا .. تماما كما يفعل فريد شوقى فى السينما .. رحلة إلى دنيا

الجريمة .. إلى قاع المدينة والمخلفات البشرية التى تَفَلَهَا المجتمع .. فعلا كم تتوق نفسى إلى رحلة من هذا النوع .. ولكن كيف السبيل .. سهلها غير مرغوب وصعبها غير مرغوب .. فزيارة السجن والاتصال بالمساجين كصحفى أو كاتب قد يكون ميسورا ولكنه غير مُجدٍ لأن كل شيء سيكون معدّاً سلفاً والإجراءات واللقاءات والإجابات سوف تكون حذرة .. فالتجربة بدون زيف تتطلب أن أكون سجيناً بالفعل .. وهذا يتطلب جريمة ، وهذا ما لا قبل لى باحتماله .. لا لا .. زيارة مستشفى المجاذيب أرحم ) .

ثم عادت مشاعرى تستحلب الرغبة فى زيارة السجن .. (هناك النزلاء عقلاء وأذكياء .. وعالم الجريمة بحوره واسعة .. حكايات طريفة وحرّيفة تسيل اللعاب .. ألا تشدنى دائما صفحة الحوادث فى أى جريدة بألوان من الذكاء المطبوخ بمذاقات متعددة .. آه .. الأمر يحتاج إلى خطأ يدخلنى السجن .. هل أستسمح مواطنا فى الأتوبيس أن أسرق محفظته وأطلب منه أن يضبطنى ويصرخ فى الزحام (قفشتك يا حرامى) ثم يقتادنى إلى الشرطة وأستحلفه برحمة أمواته ألا يعطى الفرصة أو يسمح لأى مواطن أن يعتدى علىّ بلطشة قلم أو شلوت .. وأقسم له أن أردّ المحفظة بعد عمل المحضر .. عين فى الجنة وعين فى النار .. نفسى فى الشطة وخايف من لذعتها .. نفسى أدخل السجن وخايف من الحبس ..

تركت الكتاب وارتديت ملابسى وخرجت إلى وسط البلد لا أنوى على شيء . دخلت جروبى ، وقبل أن ينتبه الجرسون غادرته .. وفى مدخل سينما ميامى وقفت أشاهد الصور المعروضة عن الفيلم فلم تشدّنى .. وفى ميدان سليمان باشا وقفت أمام حقل الكتب التى زرعتها مكتبة مدبولى على الرصيف العريض .. وزاغت عينى ثم استقرت على كتاب (وصف مصر) للحملة الفرنسية .. فناديت البائع وطلبت الأجزاء كلها .. ثم نشطت خطواتى إلى البيت .. ممنياً نفسى بأيام سعيدة مع عطر الماضى العتيق .. وأيام يزول فيها الملل .

# المبـــــاحث

تعلّمنا فى الحساب أن (واحد زائد واحد يساوى اثنين) ولكنها فى الحياة قد تساوى ثلاثة أو خمسة أو عشرة .. وخمس دقائق قد تساوى شهراً ونصفاً .. تماما كما حدث لى.. فالمسألة نسبية .. وتختلف من شخص لشخص ومن موقف لموقف ومن بلد لبلد ومن زمن لزمن . .

وصلت إلى مكتبى .. وجلست أتصفح أجزاء الكتاب .. مجرد تصفح واطلاع على الفهرس .. ودخل رجل فى حوالى الأربعين

- حضرتك صاحب المطبعة ؟

- أيوه .. أهلا وسهلا .

وظهر خلفه رجل آخر فى نفس عمره .. فالتفت الأول خلفه وأشار إلى الثانى وقال بصوت جهورى :

- سيادة المقدم رئيس مباحث المصنفات الفنية .

وترسّب فى ذهنى أنه (زبون) من أهل السلطة جاء لأنجز له عملا .. وبعضهم يحب أن يستفيد من مركزه فيصطحب معه فى مثل هذه المهام من يقدمه من باب الاعتداد بالنفس والترفّع .. وكأن هذا التعريف يأتى تطوّعا من الشخص المرافق .. لا بأس .. فأصحاب الأعمال أيضا يحتاطون لهذه المواقف ودرّبوا عليها ولهم فى ذلك أسلوبهم .

قمت من على مكتبى وتقدّمت إليه مُرحّبا .. وكان يرتدى بنطلونا وبلوفر صوف ولا يدلّ مظهره بأى حال على أنه ضابط مباحث بل طبيب أو دبلوماسى أو فنان .. وردّ تحيتى بهدوء أقرب إلى الهمس .. وقال :

- محتاجين سيادتك معانا خمس دقائق .

(آه .. الطف يارب .. دى مش حكاية زبون) .. وسألته :

– ليه يا افندم ؟

– بخصوص كتاب ( مسـافة فى عقل رجل ) اللى طبـعته .

ورددت بسرعة وانفعال :

– لأ أنا ماطبعتوش .. صحيح أنا عارف موضوع الكتاب لأن الجرائد بتكتب عنه.. واشتريته وقريته .. وأعرف المؤلف شخصيا .. لكن ماطبعتوش .

ردّ بنفس الهدوء :

– تسمح نفتّش ؟

– إتفضّل .. المطبعة كلها تحت أمرك .

ودار فى حجرة مكتبى .. ووقف أمام رفّ لنماذج الكتب معلق على الحائط .. وتفحّصها بإصبع واحد فيما لا يزيد عن دقيقة.. ولم يفكر فى دخول حجرات المطبعة.. ثم استدار إلىّ وأشار إلى الباب .

أصبت بذهول .. وخرجت معهم دون أن أرتّب لغيابى أو أنبّه أحد الموظفين وأعطيه التعليمات المناسبه كعادتى كلما غادرت المطبعة .. وجدتنى أهـرب معـهم قبـل أن يدرك العمـال الحـالة التى أنا فيـها .. ولم أجد داعيـاً لإخبار أحد عن وجهتى .. أليس الأمر خمس دقائـق كمـا قال ؟!

وخرجت إلى الشارع فوجدت سيارتين .. الأولى ملاكى حمراء أعرف الرجل الجالس على عجلة قيادتها .. إنه مؤلف الكتاب الذى ذكره الضابط .. والثانية زرقاء نظام (البوكس) لهـا صنـدوق مربّع من الصـــاج ومكتوب على جنبيّهـا ولوحـاتها المعدنية ( شرطة ) .

تركنى الضابط وتوجه إلى سيارة المؤلف وركب بجانبه .. ولفّ الرجُلُ الذى قدّم لى الضابط ذراعَه حول ذراعى ودفعنى ناحية السيارة الثانية وفتح الباب الأمامى ودفعنى بجوار الجندى السائق ثم قذف بنفسه بجوارى فأصبح الموقف (شاطر ومشطور وبينهما طازج)

والطازج بالطبع هو أنا .. وانطلقت السيارتان .. وتنبّهت من المفاجأة عندما أصبحت السيارتان على الكورنيش .. وعبرنا شِبَرد وسميراميس فميدان التحرير فشارع رمسيس فشارع فؤاد فشارع سليمان .. وابتسمت فى جزع وعدم قدرة على التركيز وتقدير حقيقة الموقف وهمست لنفسى (فسحة مِيرِى فى سيارة شرطة على حساب الحكومة) وتوقفت السيارة أمام سينما ميامى .. فتذكرت أننى كنت هنا منذ ساعة فقط .

بين سينما ميامى والعمارة التى تجاورها مدخل ضيق غير لافت للنظر .. مررت عليه آلاف المرات وكنت أظنه (منْوَر) بين العمارتين .. نزلنا ودخلنا منه .. والمؤلف وضابط المباحث يسيران أمامنا .. ولاحظت أن الرجل الذى عرفت بعد ذلك أنه (رقيب مباحث) واسمه حفنى لفّ ذراعه حول ذراعى بتشدد كأنه يخشى أن أفر هاربا .. فلم أُبدِ تبرّماً واستسلمت .

فى نهاية هذا الممرّ متُّسَع مربع فى ضلعه الأيسر بيت قديم من دورين له باب كبير .. صعدنا عدة درجات إلى شقتين متواجهتين فدلفنا من باب الشقة اليسرى .. وعند الدخول تنبهت لوجود لافتة نحاسية مكتوب عليها (مباحث التهرّب من الضرائب .. قسم المصنفات الفنية) .. شقة من ثلاث حجرات .. قديمة الجدران والأثاث .. كشقة موظف حكومة متوسط الحال على المعاش ..

فى الصالة جلست .. أو بمعنى أدقّ أمرنى الرقيب فجلست على كرسى جلدى ضخم ضمن مجموعة من نفس النوع تملأ الصالة .. على يمينى حجرتان .. وعلى يسارى حجرة ودورة مياه .

دخل الضابط والمؤلف إلى حجرة .. ولحق بهما كاتب ووقف على الباب جندى ..

ومضى الوقت من حوالى الخامسة إلى الحادية عشرة قبل منتصف الليل .. تناوب الجلوس بجوارى لحراستى ثلاثة جنود .. وبدّلت وضع جلوسى على الكرسى عشرات المرات .. فقد كان مقعد الكرسى خربا لا يصلح للجلوس .. وكذلك أغلب الكراسى عدا كرسى الحارس .. خمس ساعات والتحقيق مستمر مع المؤلف .. سمعت أطرافا

قليلة منه عندما كان يرتفع صوت الضابط المحقق سائلا .. أو يرتفع صوت المؤلف شارحا .. وخرج خلال هذه الساعات المقدّم من الحجرة إلى حجرة رئيس المباحث عدة مرات على ما يبدو لإطلاعه على سير التحقيق ولتبادل وجهات النظر .. وأسعفه الحارس الواقف عند الباب بالقهوة والشاى عدة مرات .

وبطول الوقت عرفت أن الحجرة الأولى لرئيس المباحث برتبة لواء .. والثانية التى يجرى فيها التحقيق بها ثلاثة مكاتب لثلاثة ضباط منهم المقدم الذى يقوم بالتحقيق .. والثالثة خاصة بحوالى عشرة من الكتبة مدنيين وعسكريين .. وينتشر فى الصالة مجموعة من المخبرين والجنود ليس لهم مكان سواها .. يتسكعون على الأبواب فى انتظار أى استدعاء أو تكليف .

وفى منتصف الوقت طلبت من الرقيب حفنى أن أتوجه إلى دورة المياه فصحبنى وأمرنى ألا أغلق الباب .. فجلست والباب ( موارب ) واستعصى علىّ قضاء حاجتى وأنا فى هذا الوضع المحرج فعدت أدراجى إلى مكانى أتبادل الجلوس على ساقى من شدة حاجتى .. ومن السوستة التى برز طرفها من جلد الكرسى كالخازوق وصعب علىّ ثنى طرفها الصلب أو تعديل اتجاهه ..

خلال هذه الساعات شغلت بالتعرف على المكان واختصاصه من خلال حوار قصير هامس مع كل جندى يكلفه الرقيب حفنى بحراستى .. فعرفت أن مباحث المصنفات الفنية مختصة بضبط أشرطة الكاسيت والفيديو المخلة بالآداب أو المزيفة والكتب التى تقلّد أو يقوم بطبعها من ليس لهم حق الطبع والنشر .. أو تحتوى على مساس بالقيم والأخلاق .. وأيضا شغلت بمحاولة استراق السمع إلى الحوار الدائر بين المحقق والمؤلف .

وكل ما تبيّنته من مشاعرى هو أن الملل قد زال ولكن حلّ محله التوتر والقلق والإرهاق .. كنا فى مارس .. وكان الجو باردا قاسيا .. وخمس ساعات فى صالة جرداء باردة معتمة ، وبلا طعام أو حتى شاى ساخن .. وبلا حركة اللهم إلا حركة تعديل جلستى فوق خازوق الكرسى .

فى الحادية عشرة طلبنى المحقق فأشار لى الحارس الواقف بالباب .. فتنبهت إلى أن قدمى وساقى قد تجمّدت .. فسِرْت المسافة من الكرسى إلى الباب وهى لا تزيد عن مترين كأنى مشلول .. وبإشارة من المحقق قام المؤلف وجلس على كرسى فى آخر الحجرة وجلست مكانه أمام مكتب التحقيق .. كانت الحجرة صغيرة مربعة بها ثلاثة مكاتب من الصاج العادى خاصة بالضباط الثلاثة .. فقيرة فى مستواها ومحتواها .. شبيهة بمكاتب صغار الموظفين فى مصلحة حكومية

قال المحقق يملى على الكاتب :

– وفى تاريخه وساعته أعيد فتح المحضر وسألنا المتهم الثانى بالآتى .. فأجاب ...

فقلت لنفسى ( متهم ثانى .. دى الحكاية جد )

– اسمك وسنك وعملك وعنوانك ؟

فأجبت .

– أنت متهم بطبع كتاب (مسافة فى عقل رجل أو محاكمة الإله) .. الذى يحتوى على إلحاد ومساس بالأديان .. فما قولك فيما هو منسوب إليك ( أفهمناه)

– أبدا ما حصلش

– ولماذا يتهمك المؤلف بطبع الكتاب ؟

– المؤلف ساكن فى الشارع اللى فيه مطبعتى .. وألتقى معه كثيرا بالصدفة فى ندوات وصالونات أدبية لأن كلا منا مؤلف يكتب الرواية الطويلة .. ويعتبر أحد عملائى فى مكتب الآلة الكاتبة الملحق بالمطبعة .. ومنذ سنتين زارنى ودار بيننا الحوار التالى :

– أنا قاصدك فى خدمة..

– تحت أمرك..

– عاوز عامل تجليد ممتاز يجلّد لى شوية كتب.

– هاتهم نجلدهم لك.

– لأ .. الكتب مش هنا .. فى مزرعتى فى محافظة الغربية .. والعامل ح يسافر معاى فى عربتى ويبات كام ليلة وأرجعه تانى وأعطيه اللى يطلبه

وتنبهت لحديثه أكثر .. وسألته :

– واشمعنى يعنى فى مزرعتك ؟

– أصله كتاب خاص بالأديان .. وفيه شوية تجاوزات وخفت أطبعه فى القاهرة لأن الرقابة فيها شديدة وممكن يتصادر .. فطبعته فى الغربية .

– المطبعة اللى طبعته مفروض تجلده

– أنت عارف إن موضوع الأديان حساس .. وأنا خفت أىّ مطبعة تخاف أو تتردّد فى طبعه إذا عرفت موضوع الكتاب .. فطبعته على أجزاء .. وكل جزء فى مطبعة .. وجمعت الأجزاء كلها فى مزرعتى

– طيب ما هو اللى انت خايف منه برضه ح يحصل .. بعد ما تجلّد الكتاب ح تجيبه القاهرة علشان تبيعه .. يبقى كان إيه لزوم اللفّة دى كلها؟

– لأ .. أنا مش ناوى أبيعه .. أنا طبعته من غير رقم إيداع أو اسم مطبعة .. وناوى أوزعه هدايا على الناس اللى يهمنى ويهمهم يتعرفوا على أفكارى .

وساورنى الشك فأمهلته لأبحث له عن عامل تجليد يقبل السفر .. وظل أياما يلاحقنى بالتليفون وأتهرب منه حتى يئس .. وبعد عدة شهور من هذه الواقعة قرأت إعلانا كبيرا فى جريدة الأهرام يقول (مسافة فى عقل رجل .. الكتاب الذى طال انتظاركم له واستغرق إعداده ثمانى سنوات) فاشتريت نسخة من على الرصيف فى وسط البلد .

– وما رأيك الشخصى فيما احتواه الكتاب ؟

– فيه تجاوزات – كما جاء فى المقال الذى كتبه الأستاذ أحمد بهجت فى جريدة الأهرام (صندوق الدنيا) منذ أسبوع

– وما قولك فى إصرار المؤلف على أنك قمت بطبع الكتاب ؟

– ما حصلش .. والمؤلف يعرف إنى آخر واحد ممكن يوافق على طبع هذا الكتـاب.. لأنه قبل طبعه قام بطرح أفكاره فى ندوة أدبية بدار الأدباء وحضرتها .. وهاجمه الجمهور واتهمتُه أنا بالجنون

– هل لديك أقوال أخرى ؟

– لأ.

ـ انتهت أقواله وتُلِيتْ عليـه وتوقّع منه.. وقمنـا بمواجهـة المتهمين فأصر كل منهما على أقواله .. وتنبه عليهما بالحضور فى الساعة التاسعة من صباح باكر للعرض على النيابة العامة .. ووقعا على إقرار بذلك وأقفل المحضر فى الساعة الحادية عشرة والنصف مساء.

وهكذا لم يستغرق التحقيق معى نصف ساعة .. خرج بعدها المؤلف فى سيارته الخاصة .. وخرجت أنا إلى الشارع ووقفت أمام سينما ميامى أشير لسيارات التاكسى .. إلى أن توقفت أمامى سيارة صديق ففتحت بابها وألقيت بجسدى المكدود بجواره واسقبلنى الكرسى المريح فشعرت بالفرق .. مددت ساقى وتحسست ركبتيّ ودلكتُهما فنظر إلىّ مبتسما غامزا وقال :

– ماسك ركبك ليه .. كنت فين فى ساعة زى دى ونازل من أىّ عمارة .. مش ح تبطل صرمحة يا رجل ما خلاص راحت عليك .. اللى فى سنّك اتعشّوا زبادى وناموا.

ولم أكن في حالة تسمح لى بالكلام فسكتّ وتركته يظن بى الظنون ويلقى علىّ التهم جزافا وغِصت فى دفء وليونة الكرسى وألقيت رأسى على المسند ونظرت إليه بطرف عينى فى ملام .. وابتسمت .

عدت إلى البيت فاستقبلنى أولادى وزوجتى بلهفة وانزعاج .. فبعد خروجى مع المباحث أبلغ أحد العمال أولادى أنه سمع ما حدث .. فسعوا بحثا عنى واتصلوا بضابط

شرطة من الأسرة فاتصل بأقسام الشرطة ومديرية الأمن ولم يعثر لى على أثر.. وحكيت لهم ما حدث وطمأنتهم أنه كان مجرد افتراء وادّعاء كاذب واقتنعت المباحث بكلامى ولم يبق سوى زيارة قصيرة باكر للنيابة العامة لمدة ساعة لتكملة الإجراءات .. ثم قمت إلى التليفون واتصلت بالضابط قريبى وحكيت له وهوّنت له الأمر ووعدته أن أتصل به إذا استدعى الأمر .

دخلت الحمام ثم تناولت العشاء مع أولادى وكانوا قد رفضوا تناوله فى غيابى .. ثم دخلت إلى فراشى فوقع بصرى على (الكومودينو) فرأيت رواية ( الأفيال ) مفتوحة ومقلوبة تماما كما تركتها قبل أن أعرف مصير بطلها فى رحلته المجهولة .. وقبل أن أطرح الغطاء على وجهى تمتمت (الظاهر مصيرى ح يكون زى مصير البطل .. هو وقع عقد رحلة مجهولة مذعنا فيها لكل تصرفات الشركة .. وأنا وقعت محضرا لرحلة مجهولة مذعنا فيها لكل تصرفات المباحث والنيابة .. تمنيت أن أدخل السجن وبعدها بساعة استجابت السماء ورزقتنى بتهمة .. وربنا يستر ) .

غادرت فراشى مبكرا بعد قلق وأرق كأيام الامتحانات .. وكنت هناك قبل التاسعة .. واحترت إلى أين أذهب وأنا مشلول الفكر مربوط بالمكان .. واشتريت الجريدة وتوجهت إلى أقرب مقهى .. ومع رشفات الشاى وجدت الخبر فى الصفحة الأولى .. صحيح أن الخبر عن الكتاب والمؤلف دون ذكر اسمى او اسم المطبعة ولكنى أدركت أن الأمر ليس هيّنا كما قدرت .

* * *

جلست على الكرسى (الأفضل) الذى كان يجلس عليه الحراس أمس وبقيت بدون حراسة حتى الساعة الثانية بعد الظهر ولم يحضر المؤلف .. واستدعانى المقدّم فدخلت فسألنى بغضب :

– فين المؤلف؟

– ما اعرفشى يا افندم .. أنا هنا من الساعة تسعة

وردّ بنفس الغضب :

- دى غلطتى لأنى عاملتكم كأدباء واحترمتكم وتركتكم تروّحوا .. القضية فى الجرايد والمتهم الأول هرب .. كويس كده ؟

ولم أجد ما أردّ به .. وتنبه إلى أنه يكلمنى بلهجة جافّة لا أستحقها لأنى لست المتهم الذى هرب بل المتهم الذى امتثل للأمر وحضر فى الميعاد .. فغضّ بصره وأشار إلى الكرسى الذى كنت أجلس عليه أثناء التحقيق فجلست .. رفع السماعة واتصل بوكيل النيابة وأفهمه الموضوع وطلب منه أمراً بضبط وإحضار المتهم .. ثم نادى الرقيب حفنى وأمره بالتوجه فوراً لإحضار الأمر .. ثم غادر الحجرة ولم يدخلها أحد لمدة ساعتين .. ولم أجرؤ أنا على مغادرتها ولو إلى دورة المياه .. ورغم زهقى الشديد حمدت الله لأنى جالس على كرسى مريح بالنسبة للكراسى الموجودة فى الصالة ..

وفى الرابعة عاد الرقيب بأمر النيابة .. وفجأة دخل المقدم واللواء معاً فوقفت .. واقتربا منى جدا فارتبكت ولم أفهم تفسيرا ولا سببا لاقترابهما هذا .. ولما أصبح ما بين وجهى ووجه اللواء أقل من مسطرة سألنى همسا :

- تفتكر نلاقى المؤلف فى بيته د الوقت؟

أدركت الهدف من اقترابهما فعاد إلىّ الاطمئنان وابتسمت وصحبت ابتسامتى لهجة مستنكرة لائمة وقلت فى ثقة :

- يا أفندم.. متّهم موقّع على إقرار بالتواجد الساعة تسعة وبالطبع متوقّع زيارة منكم .. تفتكر بالبساطة دى ح تلاقيه قاعد فى البيت بيتفرج على التليفزيون !

وبان عليهما الاقتناع .. وعاد اللواء يسألنى :

- تفتكر نلاقيه فين؟

- أنا قلت فى التحقيق إنه طبع الكتاب فى الغربية وشايلة فى مزرعته .. والظاهر إنه ماكنش فاكر إنه سبق قال لى المعلومة دى وفوجئ بها منّى أثناء التحقيق .. وزمانه هناك بيلمّ الكتاب ويغطّى موقفه .. ومحتمل يكون سافر برّه .. ده رجل مبسوط ماديا وأعتقد

إن معاه باسبور جاهز للسفر .

وبدا الانزعاج على الضابطين وتبادلا النظر .. ثم اتفقا على أن يتوجه المقدم ومعه قوة إلى منزل المتهم من باب الاحتياط .. وإن لم يجده يتحرّى عن عنوان مزرعته من أسرته أو الجيران .. ثم يسافر بالقوة التى معه إلى المزرعة..

وجرى المقدم إلى مكتبه وأخرج ملفّ التحقيق وراجع بيانات بطاقة المتهم فعرف اسم مسقط رأسه وعاد يهمس لى بلهجة طيبة :

– محتاجين منك خدمة

– أنا تحت أمرك

– تسافر معانا .. يمكن نستفيد من وجودك فى جمع أى شواهد أو قرائن أو متعلّقات خاصة بالكتاب تفيد التحقيق.

وارتفعت معنوياتى .. وهتفت بصوت عال :

– أنا تحت أمركم

والتفت اللواء إلى المقدم مشيرا إلىّ فى امتنان وقال :

– الرجل ده ما تأخروش .. لازم يبات فى بيته .

رفعت يدى بالتحية شاكرا .. وغادرنا الشقة أنا والمقدم وخلفنا القوة .. أشار المقدم للقوة المكوّنة من الرقيب حفنى وثلاثة جنود والسائق بأن تركب فى الصندوق وركب هو أمام عجلة القيادة ودعانى لمزاملته .. وانطلقت السيارة فى شوارع القاهرة وأنا بشعور مختلف وقد انتعشت نفسى لهذه التجربة .. (لست الآن على ما يبدو لى متهما .. بل أنا زميل للضابط فى مأمورية رسمية للقبض على المتهم .. ألم يصف لى تواجدى معه الآن بأنه خدمة !)

وتمتم المقدم ببعض كلمات غاضبة متوعّدا المتهم بمعاملة أخرى فعقبت متودداً :

– ما تحاولش سيادتك تمدّ إيدك عليه لأنه مريض .. عنده سكر

– أنا كمان عندى سكر

وسررت لتباسطه معى .. وهتفت مجاملا :

– مش معقول .. ده سيادتك صغير

– تدينى كام سنة ؟

– خمسة وثلاثين

– مضبوط

– متــزوج ؟

– وعندى أولاد

واستمر الحوار بيننا كأننا زميلان إلى أن توقفت السيارة قرب العمارة التى يقطن فيها المؤلف .. وتوجه المقدم والقوة إلى العمارة وبقيت أنا والسائق فى السيارة .. بعد حوالى نصف ساعة عاد المقدم وخلفه القوة بدون المتهم فأيقنت أن ظنونى قد تحققت وأن الأمر سينتهى بنا إلى السفر ففرحت للمغامرة .. وسألته :

– مش موجود طبعا

– طبعا

– ح نسافر ؟

– لأ .. توقعاتك كانت مضبوطة .. المتهم سافر فى الفجر إلى المزرعة علشان يغطى نفسه ويخفى نسخ الكتاب .. وأثناء رجوعه بسرعه علشان يوصل لنا فى ميعاده تدخلت عناية الله علشان تكشفه .. عمل حادث بالعربية ونقل هو وابنه إلى مستشفى قليوب .. ومباحث قليوب ضبطت فى العربية أربعمائة نسخة من الكتاب .

مدّ الضابط يده مصافحا .. وسألنى :

– أعتقد بيتك قريب من هنا ؟

– فى الشارع ده

– بكره تكون عندى الساعة تسعة علشان العرض على النيابة.

– حاضر.

– المرة دى من غير إقرار.

– متشكر.

*   *   *

بدأ اليوم بغمّ وانتهى بالبهجة .. ورغم أنى غدا سأعرض على النيابة إلا أن ثقة الضابطين بى ومعاملة المقدم الطيبة رَفَعَتْ معنويّاتى .. وحادث قليوب كثف ارتياحى واعتبرته أحد أدلة البراءة لى .

وفى المساء خرجت لبعض شئونى بنفس هادئة .. وفى الليل استطعت أن أنام .

# النيـــــابة

ذهبت قبل الموعد واشتريت الجريدة وجلست فى المقهى وطالعت الخبر أو طالعنى الخبر(مؤلف كتاب آيات شيطانية المصرى يروّج الكتاب فى محافظة الغربية .. تم ضبط أربعمائة نسخة كان ينوى توزيعها لولا وقوع حادث تصادم أصيب فيه هو وابنه) .. وبقدر ما أرضانى نشر الخبر لتوضيح الحقيقة للرأى العام بقدر ما أقلقنى اهتمام الصحافة الزائد .. فهذا قد يزيد من تشدّد الجهات الرسمية المسئولة عند تناولها للموضوع .

توجهت إلى المصنفات الفنية وجلست أنتظر .. وفى العاشرة وصلت إشارة تفيد أن المؤلف تم ترحيله من مباحث قليوب إلى النيابة مباشرة .. وبهذا لم يبقَ داعٍ لانتظارى فصدرت تعليمات المقدم بترحيلى .. فخرجت مع الرقيب حفنى وجنديين إلى السيارة وهممت بالركوب فى الكابينة بجوار السائق .. فأمرنى أن أركب فى الصندوق فامتثلت وإن شعرت بالفرق .. وركب الجنديان معى عن يمينى ويسارى فشعرت أنى مقبوض علىّ .. واخترقَت السيارة شوارع القاهرة ومرّت أمام بيتى فأدرت وجهى أخفيه داخل السيارة .

* * *

وقفت السيارة أمام مبنى النيابة ونزلت .. وأمر الرقيب الجنديين بحمل الصناديق الكرتون الكبيرة المحرزة بالشمع الأحمر التى بها مائتان وخمسون نسخة من الكتاب سُحبت من مكتبة مدبولى .. فرفضا .. واشتبك الثلاثة فى نقاش حاد انتهى باتفاقهم على أن أقوم أنا بحمل الصناديق .. هكذا علناً وأنا واقف بينهم .. وبمنتهى التبجّح أمرنى الرقيب بحملها فتفحصتهم فى دهشة .. جنديان فى ريعان الشباب فى الغالب من مجنّدى الأمن المركزى ورقيب سرى فى منتصف العمر فَحْل الجثة .. يأمرون رجلا

تخطّى الخمسين بحمل أربعة صناديق كل صندوق فى حجم تليفزيون كبير مملوء بالكتب .

– إزاى يا حضرة الصول أشيل وأنا رجل فى سن أبوكم؟

– إنت اللى طبعته .. وزى ما طبعته تشيله

– مش انت اللى تقول إن كنت طبعته وللا لأ .. لسه النيابة ماقالتش كلمتها

– لغاية النيابة ما تبقى تقول .. إنت المتهم بطبعه .. شيل

– ما اقدرش أشيل أربع صناديق واطلع بهم رابع دور .

– تشيل واحد واحد

ولم ينتظر الجنديان ورفعا صندوقا من السيارة وألقيا به على كتفى ودفعنى أحدهما فى ظهرى فمشيت ومشيا خلفى .. صعدت الأدوار الأربعة ولم يكلف أحدهما خاطره أن يعاوننى فى إنزال الصندوق إلى الأرض .. ووقفت أجفف عرقى فغمز أحدهما للآخر فدفعنى إلى السلم مرة أخرى ونزل معى وبقى الآخر بجوار الصندوق

وصعدت بالصندوق الثانى فى زمن أطول ووضعته بجوار الأول .. وتبادل الجنديان دورهما فنزل معى المستريح .. وحملت الثالث فى زمن أطول وإرهاق أشد وشعور بآلام فى ظهرى وكتفى وساقى .. ونزل معى المستريح لأحمل الرابع .. وصعد خلفى الجندى والرقيب وقد تملّكتنى الإهانة فضاعفت شعورى بالإرهاق

وصعدت للمرة الرابعة والعرق يتصبب منّى وقد التصق البنطلون بساقى واسودّت الدنيا فى وجهى حتى كدت .. بل فكرت فعلا أن ألقى بالصندوق وأصرخ منبها المسئولين .. ولكننى فى النهاية آثرت السلامة .. فعلى رأى الرقيب.. إلى أن تقول النيابة كلمتها .. أنا متهم .

وضعت الصندوق ورفعت جذعى وأدَرْت ذراعى أتحسس ظهرى فرأيت المؤلف واقفا مع (آخر يحمل حقيبة) ورأسه مربوط برباط طبى وينظر إلى فى تشفّ ويبتسم .. فقلت

وأنا أوجّه كلامى للرقيب :

– هو يؤلف وأنا أهان وأحمل جسم الجريمة .. فى النهاية لى حساب معه ومعك .

* * *

استدعىَ المؤلف فدخل إلى حجرة وكيل النيابة مع محاميه وطال التحقيق ساعات خرج خلالها وكيل النيابة عدة مرات للتشاور مع زملائه ورئيس النيابة فى حجرة أخرى .. وتبادل الجنديان حراستى .. أحدهما يحرسنى ساعة والآخر يستريح فى البوفيه مع الرقيب .. وأنا واقف كتمثال رمسيس بجوار باب وكيل النيابة وبجوارى الصناديق .. الكل مستريح إلا أنا .. حتى المتهم الأول جالس الآن على كرسى أمام وكيل النيابة .. ونظرت للجندى فى استعطاف ثم جلست على أقرب صندوق فهز رأسه موافقا .. ولم تمض دقائق ومرّ وكيل نيابة خارجا من حجرة متوجها إلى أخرى .. وقف أمامى متفحصا وعينه تطلق شررا فوقفت .. استدار إلى الجندى غاضبا وسأله :

– إيه ده ؟

رفع الجندى يده بالتحية وفرقع الكعبين هاتفا بصوت جهورى:

– ده المألّفاتى يا افندم

وأشار إلى الصناديق فى قرف وتقزز واستطرد

– ودى الكتبات اللى ألفها .. وزميله عند البك وكيل النيابة

وعلى ما يبدو أن الموضوع كان منتشرا بدرجة كافية فلم يحتج تفسيرا وبدا واضحا أنه يعرف الموضوع .. وعاد ينظر إلىّ وقال بحزم

– ما تقعدش .. خليك واقف

ووقفت أهذى مع نفسى (لماذا وقوفى ! . ليس كل من ينتظرون التحقيق فى النهاية مذنبين.. كثير منهم أبرياء يخرجون من النيابة إلى بيوتهم.. فلماذا العقاب.. وماذا يضرّ لو أن من ينتظر التحقيق استراح على كرسى.. ماذا تستفيد العدالة من عذاب مواطن لم يثبت بعد أنه مذنب؟).

واستمر وقوفى حتى الساعة الخامسة .. خرج بعدها المؤلف من حجرة وكيل النيابة كما يقول المصطلح الشعبى(مغسولا) تهدلت كتفاه وغيرت الكرافتة مكانها على صدره وزاغت عيناه واصفرّ وجهه وتجهّم ولم يعد ذلك المعجب بنفسه المنتشى بكلام الصحافة .. فتوجست خيفة وازددت إرهاقا على إرهاق .

واستدعيت فدخلت وعينى على الكرسى وكل همى أن أجلس .. كانت حجرة صغيرة مربعة لا يزيد ضلعها على ثلاثة أمتار بها مكتب واحد وعدة كراسى ودولاب خشبى صغير .. وكيل النيابة على المكتب والكاتب على طرفه .

وكيل النيابة تخطى الثلاثين طويل عريض رياضى له وجه مُستدير مريح .. ودعانى للجلوس فجلست .. واستمر التحقيق معى نصف ساعة فقط .. نفس الأسئلة ونفس الإجابات التى تمت فى تحقيق مباحث المصنفات الفنية .. لم يزد عليها إلا أنى استشهدت بحادث قليوب .. وكان سؤال وكيل النيابة الأخير:

– أنت متهم (بالاشتراك مع آخرين فى الترويج لهدم السلام الاجتماعى للدولة وازدراء الأديان).

– ما حصلش.

– هل لديك أقوال أخرى؟

– لا.

ووقّعت وخرجت ولكن ليس بنفس الارتياح الذى خرجت به من تحقيق المصنفات لأن وكيل النيابة كان ينظر إلىّ بتفرس وتشكك عقب كل إجابة .. وبدا لى واضحا أنى قلبت موازين التحقيق بإجاباتى .. لأن معنى إنكارى طبع الكتاب أن هناك مطبعة أخرى وهذا معناه جهد آخر لوكيل النيابة .. إما أن يضغط علىّ لأعترف أو يضغط على المؤلف ليعترف بالمطبعة الأخرى .. فهو موظف ككل موظفى الدولة ويهمّه أن ينجز ما عليه ويقدم القضية مكتملة العناصر .. قرأت كل هذا فى عينيه .. ورأى هو أيضا أن أى ضغط منه لن يغير أقوالى لأن إجاباتى كانت واضحة وحاسمة فلم يحاول الضغط .. كان من النوع الذى تقرأ فى ملامحه وسلوكياته وحتى فى طريقة سؤاله أنه مؤدب

ومتدين .. وهذا ما أزعج المؤلف .. فعندما خرجت بعد التحقيق وجدت المؤلف يصرخ فى محاميه منزعجا :

– ده لابس دبلة فضة

ولما سأله المحامى .. وماذا يعنى هذا ؟ .. أجاب :

– إنه يستحرم لبس الذهب .. يعنى متدين وناوى يودينى فى داهية .

استدعى وكيل النيابة الرقيب وسلّمه الأوراق وخرج إلينا فسألناه بلهفة فطوى الأوراق ورفض الإدلاء بقرار النيابة .. وانصرف محامى المؤلف ونزلنا إلى السيارة وأمرنا الرقيب بالركوب فى الصندوق فركبت ولكن المؤلف رفض فأخذه الرقيب على الرصيف بعيدا عنى وساومه .. وأخرج المؤلف ورقتين من فئة العشرة جنيهات وأعطاها للرقيب فعاد به وأركبه فى الكابينة بجوار السائق .. وهمّ ليلحق به فقلت له لائما ومتوعدا :

– معلهش .. الحساب يجمع

فعاد ومال على أذنى هامسا :

– معلهش .. إنت مروح .. لكن هو أخد حبس

فروعت .. وأشفقت على المؤلف .. واعتبرته كالدجاجة التى يسقونها قبل ذبحها .. أو كالمحكوم عليه الذى يلاطفونه ويسألونه (نفسك فى إيه) قبل إعدامه .. واتضح لى بعد ذلك بنصف ساعة عندما عدنا إلى المصنفات أن الرقيب كذب على كلينا .. همس لى أن المؤلف سيُحبَس .. وهمس له وهما على الرصيف : (مبروك صاحبك لبسها وأخد حبس .. إيدك على الحلاوة) وأن هذه هى طريقته .. يحبس قرار النيابة عن المتهمين ويزايد عليه ويؤجر الكابينة لمن يدفع .

* * *

فى المصنفات عرفنا أن قرار النيابة هو حبس كل منا أربعة أيام على ذمة التحقيق واستدعاء الموزع محمد مدبولى للتحقيق.. وقبل إذاعة القرار كان الرقيب (فص ملح وذاب)وشعرت بالهم وأحسست لأول مرة أن الأمر ليس مجرد رحلة كما توهمت.. وبعد

ساعتين انتظاراً فى الصالة تحت الحراسة ، عاد الرقيب بعد أن ملأ بطنه بنقود المؤلف .

أبلغَنا المقدم بقرار النيابة وسلّم الأوراق للرقيب وخرجنا ومعنا الجنديان إلى السيارة الزرقاء مرة أخرى .. وركب المؤلف فى الكابينة واقترب منى الرقيب هامسا :

– تحب تركب فى الكابينة ؟

وأدركت أنه لم يأمرنى بل سألنى .. والسؤال اختيار .. والاختيار بثمن .. فقلت وأنا أتفرس وجهه بغضب .. فأنا ذاهب على أى حال إلى الحبس :

– الكابينة ما تسعش غير ثلاثة .. وللا دى خدعة تانية ..

– السواق يركب ورا .. وانا ح اسوق.

– بكام ؟

– الأستاذ دفع عشرين.

وشر البلية ما يضحك .. فضحكت:

– دفع عشرين جاى ورايح .. ولكن أنا رايح بس.

– ادفع عشرة.

– ليه .. ح تأجّر لى كابينة فى سيدى بشر .. يفتح الله .. مش كفاية الصناديق اللى شيّـلتها لى !

وتوجّهت بنفسى إلى صندوق السيارة ومن غيظى صعدته قفزا .. وعدنا إلى ميدان التحرير ولكن بمعنى آخر وطعم مختلف .. عبرت هذا الميدان منذ ساعتين بشعور شخص سيكون بعد قليل فى بيته يسأل نفسه (يا ترى فى البيت طابخين إيه) والآن أعبره بشعور شخص بعد قليل سيكون فى السجن يسأل نفسه (يا ترى فى السجن مستخبّى لى إيه) والفرق شاسع .. وضربت كفا بكفّ .

# الحجـــــز

سلّمنا الرقيب للصول النوبتجى فى القسم .. فلم يُعِرنا أكثر من نظرة مستنكرة من تحت النظارة وسأله فى ضيق :

– إيه دول ؟

– مألفاتيـةّ . .

ووقّع الصول له بالاستلام وساقنا أمامه فى ممرّ طويل يؤدى إلى سلم نزلناه إلى البدروم فوجدنا باباً بقضبان حديدية .. فتحه وأدخلَنا .

ردهة صغيرة عرضها متران وطولها أربعة بها ثلاثة أبواب مصفحة .. واتجه الصول ليفتح أحد الأبواب فانطلق المؤلف مذعورا :

– مالوش لزوم يا حضرة الصول تحطنا مع الحرامية .. خلينا هنا فى الطرقة .. أنا دالوقت ح تيجى توصية علىّ للبيه المأمور .

صرخ الصول غاضبا .. وقال وهو يضغط على نهايات الكلمات :

– القانون كده .. والتعليمات لازم وحتما ولا بدّ تتنفّذ

– إحنا ولاد ناس ياحضرة الصول .. ومش وشّ بهدلة

استدار إلينا وتفحصنا باستنكار .. وقال :

– مش باين عليكم

وفهمنا .. وأخرج المؤلف جنيهين فقلّدته .. وعين الصول تتابعنا ونحن نضمّ المبلغين على بعضهما فمطّ شفتيه وصاح منزعجا :

– تبقوا برضه مش ولاد ناس .. ولاد الناس بتبقى إيديها فرطة .. الشبكة اللى انتم

فيها دى زى الهيلتون إيجارها غالى عليكم .

وفهمت أن هذه الصالة اسمها (شبكة) وأنها للنزلاء أولاد الناس الذين يدفعون والذين يوصّى عليهم .. وقلت له مُسترضياً :

– إحنا يا حضرة الصول ولاد ناس .. بس على قدّ حالنا .

– ليه .. بتشتغلوا إيه ؟

– مألفاتيـّة

فسأل بغباء :

– يعنى إيه مألفاتية .. يعنى مشخصاتيـّة ؟

– لأ .. بنألف كتب

– آه فهمت .. يعنى بتفننّوا كتب .

– عليك نور

– وإيه اللى جابكم .. فنّنتوها غلط ؟

– أيوه .

– وإيه اللى خلاكم تغلطوا ؟

– زىّ كلّ النـاس ما بتغلط فى شغلها .. النجـار بيغلط والترزى بيغلط .. إنت مش بتغـلط فى شغلك ؟

– فشرَ .. أنا صول خدمة أربعين سنة .. ما أغلطشى أبدا .. فاهم ؟

ونظرت إلى الرشوة فى يده .. وقلت :

– فاهم يا حضرة الصول .. فاهم .

* * *

سقف وجدران الصالة (الشبكة) من الأسمنت المسلح يتفرع منها ثلاثة أبواب لثلاث زنازين واحدة للنساء والأطفال واثنتان للرجال والباب الرابع أو (الفتحة) لأنها بدون باب، هي دورة المياه .. والمرحاض مكشوف لأى شخص فى الشبكة وفى مواجهته تماما نافذة طويلة بطول الشبكة بقضبان حديدية ومكسوة بسلك شبك تطل على فناء القسم الذى تنتظر فيه سيارات الشرطة .. وربما سميت (شبكة) لوجود هذه النافذة ذات السلك الشبكى .. وبما أننا فى البدروم فالواقف داخل الشبكة يكون سطح النافذة فى مستوى رأسه أما الواقف فى الفناء فيكون سطحها فى مستوى قدمه .

كان قد هدّنى للتعب فجلست على الأرض ممدّداً ساقى وظلّ المؤلف- وهو أصغر منّى بعدة سنوات- واقفاً فى تأفف وكبرياء حوالى ساعة.. فلما تعب استسلم وجلس.. وبعد فترة نزل إلينا صول آخر ليتمّم على المساجين ورآنا فصرخ مندهشا :

- لو شافكم البيه المأمور ح يودّينى فى داهية .. اتفضلوا على الزنزانة.

- يا حضرة الصول إحنا هنا بموافقة حضرة الصول زميل سعادتك.

- ماليش دعوة بغيرى .. هو نوبتجيته انتهت وروح .. وانا دالوقت المسئول عن الحجز حتى الصبح .. هيه تدخلوا الزنزانة وللا تباتوا هنا فى الشبكة ؟

وانتهت المساومة إلى ثلاثة جنيهات لكل منا .. جنيهان للصول والثالث مقابل إرسال جندى إلى بيوتنا يبلغهم النبأ السعيد بأننا ضيوف على الحكومة لمدة أربعة أيام وأننا فى حاجة إلى بطاطين وبيچامات وعشاء لأن استضافة الحكومة لنا لا تشتمل على هذه الخدمات .. مجرد الإقامة فقط.

وما هى إلا ساعتان وانقلبت الدنيا .. وبالتليفونات وصل الخبر إلى القرابة من الدرجة الرابعة والخامسة .. وانهالت علينا البطاطين والأطعمة والمشروبات كلاجئى ومنكوبى البراكين والفيضانات والسيول .. ناولونا هذه (المساعدات) من الباب الرئيسى للحجز الذى دخلنا منه إلى الشبكة .. فهو بقضبان حديدية ولكن ليس مكسوا بالصاج كأبواب الزنازين الداخلية .. وافترشنا البطاطين وجلسنا .

مضى بعض الوقت وعاد الصول ومعه جنديان ودخلوا إلى الشبكة وأغلقوا باب الحجز من الداخل بحيث أصبحوا محبوسين معنا وفتحوا أبواب الزنازين الثلاثة فخرج كل من فيها وتزاحموا فى الشبكة وانهالوا علينا تسوّلاً يطلبون طعاماً وشايا وسجائر.. ومال أحدهم على أذنى هامسا :

– معاك حمام ؟

فابتسمت وقلت لنفسى (شحات بجح صحيح .. جاى يشحت حمام .. ناقص يشترط إنه يكون محشى بالمكسرات) .. وقلت له هازئا :

– آسف .. أصلهم فى البيت مالحقوش يشتروا المكسرات علشان يحشوه لسيادتك .

فابتسم بخيلاء طالب نهائى عندما يتباسط ويشرح لطالب مستجدّ :

– حمام يعنى برشام صليبة .. معاك ؟

– آسف .. قل لى .. هى دى فسحة ؟

– لأ .. ده طابور العرض على المباحث .. كل ليلة الساعة حداشر اللى مكتوب لهم إفراج يعرضوا على ضباط المباحث ويروحوا .. والمستجدين ياخدوا الطريحة ويرجعوا الزنزانة تانى .

– طريحة ؟

وتأكد له أننى مستجد وبدون سابق خبرة فابتسم وتلذذ بأن يشرح لى ليرهبنى ويتفرج على ذعرى كما فعل به غيره أول مرة وهو مستجد :

– الطريحة إنه يأكل علقة الاستقبال .. كل مسجون جديد زيّك كده لازم يشرّف فى المباحث ويمدوه على رجليه أو يصلبوه ويعلقوه فى الشباك ويضربوه بالكرباج .. وإن كان لا مؤاخذة خرع أو عجوز وصحته على قده يبقى يادوب اتنين مخبرين الواحد فيهم طول النخلة وزى الشحط وكفه زى المرزبة .. طول ما المتهم واقف قدام الضابط واحد منهم يرزعه القفا يحدفه لزميله والثانى يلهفه القلم يرجعه تانى

.. ولازم طول الوقت عينيه على البيه الضابط ويجاوب على الأسئلة بسرعة ومالوش أى دعوة باللى بيحصل له .. ومهما أكل ضرب مالوش شأن وواجب عليه يركز عينيه على الضابط ويجاوب على الأسئلة .. ولو فكّر يبصّ لواحد من المخبرين أو يحتجّ أو يعترض أو حتى يقول آه يعلقوه وعينك ما تشوف إلا النور .

وشعرت بمياه ساخنة تنسال على ركبتى وتبلل البنطلون وانتابتنى رهبة ورعدة.. وتحسست قفاى وتمنيت من الله أن أكون فى نظرهم عجوزا وخرعا وأن يكون تصنيفى فى الفئة الثالثة التى عليها أن تتلقى الأسئلة وتجيب وتتلقى الصفعات ولا تبالى .

صفّونا طابوراً .. وفى آخر الطابور النساء .. وتحرك الطابور من البدروم مروراً بالدور الأول والثانى إلى الثالث .. واستقبلنا (البلوكامين) .. وهو فى حوالى الأربعين .. يرتدى قميصا وبنطلونا .. طويل جدا نحيف جدا كأنه عود قصب ممصوص .. وصرخ فينا بقوة لا تتناسب أبدا مع صحّته فارتبت ولم أصدق لأول وهلة أن هذا الصوت الضخم صدر من هذه الماسورة :

– الشحاتين والنشالين والحرامية يمين .. بعدهم بتوع المخدرات والتسعيرة .. وهنا بتوع التزوير والدعارة .. وانتى يا بت انتى وهىّ ورا الطابور .

ومع حركة إصبعه .. تحرك حوالى أربعين شخصا فى طرقة ضيقة يمينا ويسارا فى فزع .. ولاحظ أننا مرتبكون مترددون فى الاتجاه مع أهل اليمين أو أهل الشمال فصرخ:

– إنتم إيه ؟

قلنا فى نفَس واحد وبخوف .. إحنا بتوع الكتاب يا بيه .

– آه .. الكفرة .. لأ نزّلهم الزنزانة تانى يا شاويش .. مش مطلوبين للمباحث وعندهم عرض تانى على النيابة بكرة .

ولم أفهم ولكنى ارتحت لمجرد أننى سأغادر الدور الثالث .. سأغادر المباحث بدون تلطيش .. وعُدنا .. ولم تمضِ ساعة وعاد إلينا الطابور .. بعضهم حملوا أمتعتهم

وخرجوا محمّلين برسائل وتوصيات من المستبقين إلى ذويهم والباقون أعيدوا إلى زنازينهم .. وبقى قليل تناوبوا المرحاض الوحيد على مرأى من بعضهم .. حتى أن أحدهم وهو جالس يقضى حاجته طلب من زميله المنتظر فى فتحة الباب سيجارة فأشعلها وناولها له .. ولما انتهوا أدخلهم الصول وأغلق زنزانتى الرجال ..

وجاء دور النساء وكنّ ثلاثة .. وكانت الساعة قد جاوزت منتصف الليل والمصباح الكهربائى الموجود فى الشبكة يكشف الجالس فى المرحاض بوضوح .. وانتبهت على موقف عجيب .. السجناء الذين قضوا مدة العقوبة فى السجون وأفرج عنهم ومازالوا يقضون فترة (المراقبة) يأتون كل مساء وكل منهم حامل فراشه ليبيت فى فناء القسم .. تنبهت إلى أن عددا منهم غير قليل تجمعوا على نافذة الشبكة بحكم مبيتهم بجوارها وأطلوا برءوسهم على الجالسة فى المرحاض تقضى حاجتها .. فهم بحكم نومهم فى الفناء يصبحون فى وضع يسمح لهم برؤية من فى المرحاض وهم ممددون منبطحون على الأرض .. وبدون ارتكاب أى سلوك يؤاخذون عليه .

انتهت النساء الثلاث من قضاء حاجتهنّ مع ستر سيقانهنّ بشدّ الجلباب لأسفل ما أمكن وستر عوراتهنّ بأكفهن وعدن إلى الزنزانة فأغلقها الصول .. وهمّ بالخروج فاستوقفه المؤلف وسأله بتأفف وانزعاج وبالطريقة التى اشتهر بها الممثل الكوميدى (عبد السلام النابلسى) :

– يا حضرةالصول .. من فضلك .. هو فيه هنا براغيت ؟

وانفجر الصول مغتاظا من سذاجته :

– براغيت وقمل وناموس وأبراص وتعابين وعقارب .. ما انتم اللى بتجيبوه معاكم من بره .. جاتكم البلاوى..

وانفجرت أنا ضاحكا.

* * *

بحكم وجودنا فى الشبكة أصبحنا همزة الوصل بين الزنازين الثلاثة .. كلما أراد أحد السجناء مناولة آخر فى زنزانة أخرى طعاما أو سجائر أو خلافه نادى (يا اخوانا يا

بتوع الشبكة) .. وكان المؤلف يستنكف أن يقوم بأى خدمة ولكنى كنت قد آليت على نفسى أن أكون طائعا مع الحكام متواضعا مع المحكومين وأن أحاول دائما كسب حب واحترام الجميع ما أمكن .. وأن أشاهد وأتأمل وأدرس وأسجل كل ما تراه عينى وتسمعه أذنى ويعيه ذهنى وتدركه رؤيتى للأمور والأشياء .. وعاهدت نفسى على الصبر والسكينة وتقبل كل شيء بنفس راضية .. وفلسفت محنتى على أنها رحلة كشفية إلى شيء جديد مجهول .. أتحمل متاعبها وأستفيد منها ما استطعت .

أطلت علينا النساء الثلاث من الطاقة الصغيرة المفتوحة فى باب الزنزانة وهى مربعة فى مساحة بلاطة بها قضبان متقاربة لا تسمح بمرور ذراع :

– يا عم .. عندك حاجة للأكل ؟

وناولتهم من كل الأصناف التى معى .. وبناء على الخطة التى رسمتها قررت أن أبدأ بهن الدراسة .. فوقفت أدردش معهن .. فعرفت أن الشابة الصغيرة ضبطت فى بيت دعارة .. ورغم أنها لم تتعد التاسعة عشرة فهى محترفة إرثا عن الأم وأن الأمر بالنسبة لها ليس إلا أكل عيش وأن الحكومة سامحها الله تحاربها فى رزقها .

والثانية أتت فى مشاجرة مع زوجها انتهت بإصابة كل منهما وبالحجز للعرض على النيابة .. وعرفت أن زوجها أيضا هنا فى زنزانة الرجال .. هى مصابة بكدمات فى الوجه والصدر .. وهو مصاب بخرابيش أظافر وعض .

أما الثالثة فكان موضوعها ضمن الموضوعات التى قرأتها فى صفحة الحوادث فى جرائد الأمس.. كانت قد أنجبت أربع بنات وعندما حملت للمرة الخامسة هددها زوجها إن لم يأت المولود ذكرا فسيطلقها.. وذهبت إلى المستشفى للوضع وجاءت المولودة أنثى.. وفى أثناء الليل تسللت إلى فراش امرأة أخرى واستبدلت المولودة بمولود ذكر.. وفى الصبح زارها زوجها فبشرته بالذكر فصرخ وهاج وفضحها.. لأنه كان قد جاء بالأمس وهى فى غيبوبة ما بعد الوضع وحمل المولودة وأملى اسمها لإدارة المستشفى. وأمام المسئولين تمسكت بالمولود على أنه ابنها وأن زوجها كاذب.. ولم تظهر فى العنبر

الذى تنام فيه امرأة أخرى تحتج بأن مولودها الذكر استبدل بأنثى فأبلغت إدارة المستشفى الشرطة .

كانت تحتضنه بخوف .. وذعر واضح .. وسألتنى بقلق بالغ (صحيح ح ياخدوا ابنى منى يا افندى) فطمأنتها .. وما زلت .. حتى سكن فؤادها وهدأ روعها وقبلت منى الطعام .. وكانت لم تذق طعاما منذ يومين .

أشرفت الساعة على الثانية صباحا وسكن كل شىء حولى .. الضجيج فى زنازين الرجال والحركة فى الفناء .. فاتجهت إلى حجرة نومى .. البطانية المطوية أربع طيات وحقيبة طعامى ولوازمى التى سأستعملها مخدة .. وتغطيت بالبطانيةُ الثانية .. وبالتفاتة وجدت المؤلف يقلدنى .. ثم ذهبت .. أو ذهبنا فى نوم عميق .

* * *

صحوت مبكرا فى السادسة .. كان الجميع يغُطّون فى النوم .. حدقت من نوافذ أبواب الزنازين فتبينت من خلال الظلام أجساد المساجين بصعوبة وهى متراصّة متلاصقة تفرش الأرض كأنهم كتلة واحدة من اللحم .. أشبه بالدراويش عندما يبيتون فى الخلاء فى ساحات الموالد يتدفأ بعضهم ببعض .

حدقت فى ظلام زنزانة النساء فرأيت أم الطفل مستيقظة ورأتنى فأقبلت وعرفتنى أنها لم تنم .. خافت أن يتسلل رجال الشرطة ويأخذوا الطفل من صدرها .. كانت مهوشة الشعر .. مصفرة الوجه .. مقرحة الجفون .. دامعة

وفى الفناء رأيت من خلال نافذة الشبكة (المراقبين) يحملون فراشهم ويغادرون القسم .. فانتهزت الفرصة والكل نيام ودخلت دورة المياه .. تخطيت المخلفات واخترت مكانا .. أى مكان .. وقضيت حاجتى واستعملت أوراق الجريدة

فى الثامنة نزل إلينا ثلاثة جنود .. أو ثلاثة جاويشية .. فكل من صادفتهم لا يعلقون شارات درجاتهم على أذرعهم .. فلا تعرف الجندى من الجاويش من الباشجاويش إلا بتقدير السن .. وأحيانا يخيب تقديرك فيكون على أبواب سن المعاش ومجرّد عسكرى

بدون درجة .. ولهذا فمن باب الحذر والحيطة .. كل المساجين ينادون أيا منهم (ياحضرة الصول) .. دخلوا وأغلقوا باب الحجز وفتحوا أبواب الزنازين فخرج السجناء واختلط الحابل بالنابل فى الشبكة أمام المرحاض .. وانتهز بعض الشبان الفرصة وانتحَوْا جانباً بالفتاة الساقطة فى هزر وهمس .

وانتهزتُ الفرصة وطُفتُ بالزنازين الثلاث .. فوجدتها لا تختلف .. حجرة كبيرة سقفها وجدرانها وأرضها من الأسمنت .. تحوط بها من ثلاثة أضلاع مصطبة أسمنتية .. بها نافذة عريضة ممتدة بطول الضلع مسلّحة بقضبان حديدية ومكسوة بسلك شبكى.. تماما كنافذة الشبكة ولكنها تطلّ على مناور خلفية للقسم .. شىء واحد لفت نظرى فى الزنازين .. شعارات مكتوب أغلبها بالطباشير كتبها سجناء عاشوا هنا يوما ورحلوا .. وكل من يأتى يضيف :

ـ الداخل مفقود .. والخارج مولود

ـ كله .. من النسوان

ـ قمة الفضيلة عند الرجل الأدب .. وعند المرأة العفة

ـ حكشة وبرهومة والفص .. شباب تاب بعد رحلة عذاب

ـ ياما فى الحبس مظاليم

ـ الحرام ما ينفعش .. وآدى آخرتها

ـ تهمة من غير دليل .. تفة فى منديل

ـ الذل .. فى ضعف النفوس قدام الفلوس

ـ الصبر على البلوى عبادة

ـ الدنيا ساعة اجعلها طاعة .. والنفس طمّاعة علمها القناعة

ـ إوعى تنسى هذا المكان .. مهما طال بك الزمان

ـ الحياة حلوة والزمن غدار

ـ اوعى تأمن لصنف النسا

ـ الجريمة امرأة

- اللى ما يخافش من العسكرى .. يطلع له
- ربنا يخرّجنا منها على خير .

نادى أحد الجنود الأسماء وكل من يسمع اسمه يجلس القرفصاء فى الطابور.. وأعيد الباقون إلى الزنازين وأغلقوا عليهم.. ورأيت الحديد لأول مرة (الكلبشات)وقيدوا كل اثنين معا.. ذراع أيمن فى ذراع أيسّر.. وأسرعت فقدّمت للجندى يسارى لتظل يمينى حرّة الحركة.. وكان زميلى بالطبع هو المؤلف.. الذى تأفف وقال هامسا فى رجاء :

- أرجوك بلاش يا حضرة الصول .. يرضيك حد يشوفنى كده ؟
- لأ ما يرضنيش .. بس راضى الناس دى

فأعطاه كلّ منّا جنيهين .. لوّح بها لزملائه يشهدهم على المبلغ حتى لا يشكوا فى ذمته .. ثم خلع الحديد من يدى .

والشيء الغريب .. والغريب جدا .. أننى تمنيت لو بقى الحديد فى يدى .. ولكنى لم أجرؤ على إعلان هذه الرغبة .. ولا أعرف للآن لذلك سببا .. هل هى نزعة طفولية ما زالت بى كشفت عن نفسها وأردت أن ألعب (عسكر وحرامية) أم هو تأثير السينما المصرية على طفولتى وأردت أن أقلد فريد شوقى ومحمود المليجى .. أم هى الرغبة فى التجربة وجسّ مشاعرى وأنا مكبل بالحديد .. لا أعرف .

وصرخ جندى :

- يلا يا حضرات .. حق البنزين

وتحركت الأذرع الطليقة فى الجيوب .. ودار عليهم الجندى .. بعضهم دفع جنيها وبعضهم دفع نصفا أو ربعا والبعض لم يدفع .. وانتحى الجنود الثلاثة جانبا كعوالم الفرح يحصون (النقطة) ثم عاد أحدهم إلينا متأففا غاضبا

- تمانية جنيه ياغجر .. ناقص أربعة جنيه على حق البنزين .. ح نطلعكم فى

عربيتين واحدة للجيزة وواحدة لمصر وكمان ح نفوت على سجن طره.

ولم يستجب لهم أحد .. فعاد الجندى يصرخ :

– الناس اللى ما دفعوش .. ما تخلّوناش نغلط معاكم.

ولم يستجب أحد .. فقال مهددا :

– خلاص نحطكم كلكم فى عربية واحدة

ورد أحد السجناء المحترفين :

– حرام عليك يا حضرة الصول .. ده احنا أربعة وعشرين غير النسوان

واستدار إلى المساجين .. وقال ناصحا :

– كل واحد يطلّع كمان ربع جنيه يا حضرات

واستجاب البعض.. وعاد الثلاثة فانتحوا جانبا يحصون الزيادة ثم عادوا لنا أكثر غضبا .. وفرزوا الذين لم يدفعوا وأوثقوهم كل اثنين معا .. ولكن بطريقة مختلفة .. فالمفروض أن بين حلقتى (الكلبش) سلسلة طولها حوالى ربع متر تسمح ببعض الحركة لكل ذراعين مقيدين معا .. لكنهم قيدوهم بحيث عقدوا لهم الحلقتين داخل بعضهما فحرموهم من الحرية التى تتيحها السلسلة .. وأصبح كل ذراعين مقيدين معا ملتحمين بطريقة مؤلمة .. إذا مال أحدهم لا بد أن يميل معه زميله .. وإذا حاول إشعال سيجارة رفع ذراع زميله إلى فمه .

## المحكمـــــــة

غادر الطابور الحجز واقتادونا إلى الشارع حيث السيارتان.. وتصادف أن كان المتجهون إلى (الجيزة) ثمانية فقط ، منهم المرأة خاطفة الطفل فارتاحوا فى السيارة.. وحشرنا نحن الستة عشر فى صندوق السيارة الأخرى ومساحته متر ونصف فى مترين.. أى مساحة كشك سجاير وأقل من مساحة (سرير)، به دكتان المفروض أنهما لثمانية أشخاص على الأكثر.. وعجزت السيارة عن استيعابنا فظل الجند يدفعون المحشورين بالباب بالأيدى والأقدام وبمؤخرة البنادق حتى انكفأ الواقفون على الجالسين وأصبحنا كتلة من اللحم بين واقف وجالس وراقد ومنبطح .. ورأس فى بطن ووجه فى قدم.. وبعض المقيدين معا باعد الزحام بينهما؛ فمدّ كل منهما ذراعه إلى آخره دون أن يعرف أين زميله المقيد معه .. ثم أغلقوا الباب وأجلسوا المرأتين على عتبة الصندوق ووقفوا هم على سلم السيارة .. وتحركت إلى سجن طره .

* * *

فى طريق الكورنيش تسللت إلينا نسمات الربيع من نافذتى السيارة المتواجهتين .. والنافذة فى مساحة بلاطة وبها قضبان حديدية ضيقة لا تسمح بمرور ذراع إنسان ومغطاة بشبكة من السلك.. ولما انتعش الجنود الثلاثة بهواء الربيع و ملأوا جيوبهم بحق البنزين راحوا يغازلون الفتاة والمرأة المحشور زوجها معنا داخل القفص .. واستراحتا للهزر والغزل.. فالفتاة المحترفة كان هذا بالنسبة لها سهلا كشرب الماء.. أما المرأة فقد أرادت أن تغيظ زوجها .

* * *

كنت قرب النافذة فشاهدت الكورنيش والنيل بعينٍ ومشاعر أخرى كأنى لم أره من قبل وانتبهت إلى مناظر مررت عليها عشرات المرات ولم ألحظها.. ودخلت السيارة يسار

الكورنيش فى طريق مترب حوالى مائة متر ثم توقفت وفتح باب الصندوق فاستقبلنا الهواء بلهفة.. وانزلوا سجينا واحدا.. انتزعوه انتزاعا من بين اللحم المحشور..

خلّصوا ذراعيه من جهة وساقيه كل منهما من جهة فلما اكتمل لهم سحبوه فسحب هو بدوره زميله ففكوه واقتادوه إلى السجن وسلموه .

عادت السيارة أدراجها وعينى على النافذة.. ومن خلال ثقوب السلك الشبكى شاهدت المبانى والمقاهى ومحطات الأوتوبيس وتلاميذ المدارس .. كأنى أشاهد كل هذا فى بلد أجنبى أزوره لأول مرة .

وقفت السياوة أمام المحكمة ونزل ثلاثة .. أنا والمؤلف ونشال شاب .. وانطلقت السيارة إلى جهات أخرى بجنديين والثالث نزل معنا .. وأمرنا أن يتأبط كل منا ذراع الآخر بشدة ففعلنا .. ومشينا وهو خلفنا يضغط كلّ منّا ذراع الآخر فى إعزاز كأننا ثلاثة أصدقاء فهززت رأسى منتشيا ومرحبا بأى جديد .

اخترقنا زحام الأهالى والمحامين والكتبة العموميين والبائعين والسماسرة وشهود الزور المحتشدين أمام الباب إلى الحجز.. وطرق الباب ففتح له آخر فأدخلَنا وانصرف ومعه أوراقنا .

صالة فى مساحة حجرة كبيرة بها أرائك خشبية مصفوفة يجلس عليها المحجوزون رجالا ونساء .. وعلى يمينها حجرة صغيرة بها مكتب لمسئول الحجز .. بعدها دورة مياه.. بعدها باب ثالث مغلق بقفل كبير ..

– تهمتك إيه إنت وهو وهو ؟

فقال المؤلف فى كبرياء :

– مؤلف .

وكنت قد فطنت إلى أن تسعيرة الرشوة تزيد كلما زادت الخدمة أو ارتفع شأن المتهم فأخذت حذرى وقلت فى تواضع مقصود :

– مطبعجى .

وسكت الثالث فسأله .. فقال مترددا :

– نشال .

ولم يتردد الحارس .. وجرّه من قفاه واتجه به إلى الباب المغلق وفتح القفل وقذفه إلى الداخل وأغلق .. وعاد إلينا .

– الشاى يا بهوات .. وللا تحبّوا تشرّفوا مع زميلكم ؟

واختفت إلى حدٍّ ما ثقة المؤلف بنفسه فأسرع يخرج نقوده وهو يسترضيه ببعض كلمات . وأنقده كل منا جنيها فاستبقانا على الأرائك مع الرجال والنساء الذين دفعوا .. ومرَّ ربع ساعة وعاد إلينا :

– تشربوا شاى يا حضرات ؟

وأدركنا أن الشاى إجبارى وبثمن وليس تحية لنا وليس لوجه الله .. فوافقنا.. وخرج من الحجز وأغلق من الخارج .. ثم عاد بالشاى ومد يده قبل أن يناولنا الأكواب :

– الكباية بخمسين قرش .

وعرفنا بعد ذلك أنه يحاسب البوفيه على عشرين قرش والفرق رسوم جمركية يحصلها لحسابه .

واستمر انتظارنا ساعة .. اشتغل فيها حارس الحجز جرسوناً يلبّى كافة الاحتياجات .. مشروبات غازية .. سجائر .. أسبرين .. بسكويت .. عرضحال تمغة .. وكل شيء بضعف ثمنه .. وإذا نادى عليه أحد سجناء الزنزانة الفقراء التعساء صرخ فيه :

– إخرس يا بن الكلب .

المحكمة على بعد مائة متر من بيتى ومن بيت المؤلف .. ولكن أحدا من أهلنا لا يعلم .. فخبر عرضنا على المحكمة اليوم علمناه بعد انصراف الأهل أثناء وجودنا فى المباحث بعد منتصف الليل ..

دخل حارسنا وتسلمنا وساقنا إلى قاعة المحكمة وأدخلنا القفص .. فوقف المؤلف مرتعبا ووقفت أبتسم وأستمتع بروعة اللحظة .. ولا أعرف للآن كيف أسبغ الله علىّ

نعمته فجعلنى أتلقى وأستقبل كل معاناة وكل إهانة بالرغبة فى التجربة والفرحة بالجديد .. حتى شككت لحظة أن مشاعرى قد تبلدت وفقدت الإحساس .

واستمرّت الجلسة ساعة ونحن فى القفص .. يناول الكاتب الملف للقاضى فينطق الأسماء بصوت يشبه الهمس يسمعه الحاجب الواقف تحت المنصّة ويزعق بها فى وجه الناس .. وسواء أُحَضَرَ المتهم أم لم يحضر يعود الملف إلى الكاتب فى ثانية .. ويهمس القاضى فيصرخ الحاجب .. تؤجل لجلسة كذا أو الحكم آخر الجلسة .. والمتقاضون الجالسون فى القاعة يقفون ويجلسون ويدخلون ويخرجون على نداء الحاجب فى سرعة مذهلة .. كأنها لعبة الكراسى الموسيقية .. ثمانون ملفا بثمانين قضية انتهى عرضهم فى ساعة واحدة ورفعت الجلسة .. ودخل القاضى وزميله وكيل النيابة الذى باشر معنا التحقيق إلى غرفة المداولة فدخل لهما الحاجب بالقهوة .

اقتادونا أنا والمؤلف إلى حجرة المداولة .. ولحقنا لحظة الدخول محامى المؤلف .. وترافع ساعة طالبا الإفراج .. وكان القاضى شابا صغير الحجم شديد الأناقة يربط الكرافتة ويجلس معتدلا فى كرسيه كأنه أمام كاميرا للتصوير .. أنصت جيدا وأعطى للمحامى الفرصة الكافية فتكلم عن حرية الكلمة والرأى والتأليف وتاريخ ذلك فى مصر واستشهد بمؤلفين تعرضوا لنفس الحالة فى السنوات السابقة .. ثم تكلم عن الحبس الاحتياطى ومبرراته .. فهو يجوز لو أن الإفراج عن المتهم يضرّ بوقائع القضية أو يضلل العدالة أو يؤثر على شهادة الشهود .. وكل هذا فى مأمن لأن المتهم يحاكم على مادة مطبوعة فى كتاب لن تتغير بالإفراج عنه .

وكان المحامى شابا له قوام وملامح حلوة .. وسيماً كنجوم السينما .. لبقاً يشرح بإقناع ويبرر بصدق .. تمنيت لحظتها أن أسجل كلامه على كاسيت .. بل تمنيت أن أسجله صوتا وصورة .. فالساعة التى قضاها يشرح ويمثل أمام المحكمة جديرة بالتسجيل .. ولقد عرفت فيما بعد أنه ورث المحاماة .. بل رضعها .. لأن والديه من نفس المهنة (وابن الوزّ عوّام) .

وقال القاضى (آخر الجلسة) وهكذا عدنا إلى الحجز دون أن يعيرنى أحد أى التفات .. ولم يكلف القاضى خاطره تجاهى ولو بنظرة .. فأنا مجرد مطبعجى .. شىء لزوم الشىء .. لا شأن له ولا دور ولكن يلزم أن يكون مع المؤلف مطبعجى كمجرد اكسسوار أو ديكور يستكمل به أدواته وعناصر القضية .

وصدر الحكم بمد الحبس خمسة عشر يوما لكل من الشىء ولزوم الشىء .. ولم يستفدْ المؤلف من المحامى الذى عمل (عجين الفلاحة ونوم العازب وسلام لسيدك) أمام القاضى لمدة ساعة .

واستبقى الحارس النشال فى الحجز لآخر الجلسة لسماع الحكم على أن تعيده السيارة عند عودتها وخرج بنا .. وأمام باب المحكمة قال :

– المفروض إنكم تنتظروا فى الحجز للمغرب لما ترجع العربية وتاخدكم زىّ زميلكم النشال لكن أنا ما يخلصنيش .. إنتم برضه مألفاتية وأولاد ناس.

فمدّ أولاد الناس أيديهم فى جيوبهم وأنقده كل منا جنيها.. فردّهما على كفّه وقال:

– دول علشان نرجع القسم على رجلينا أو فى الأتوبيس أو تاكسى على حسابكم .. والكلبشات فى إيديكم .. لكن إن كنتم عاوزين أفكّ الكلبشات وتقعدوا على القهوة للعصر فده له حساب تانى .. واللى عاوز يزور بيته له حساب ثالث .

ورفضنا فكرة الذهاب إلى المنازل .. فملابسنا متّسخة مكرمشة وشعورنا مهوّشة ويبدو علينا البؤس .. وخشينا الفضيحة أمام الجيران عندما ندخل فى صحبة عسكرى فى وضح النهار واكتفينا بفكرة فك الكلبشات والجلوس على المقهى .. ففكها وأمرنا أن يتأبط كل منا ذراع الآخر بشدة ففعلنا .. ومشى خلفنا والقيد وأوراق مصيرنا فى يده .. فبدونا كصديقين حميمين يتنزهان على كورنيش النيل .. وبالتفاتة وجدت المؤلف مستاءً ومتأفّفا من التصاقى به .. فهمست :

– إن ماكنتش عاجبك أنادى العسكرى يحط الحديد .

هتف منزعجا :

- أرجوك .

ضحكت عاليا فأسرع الجندى واقترب منا ودس رأسه بين رأسينا مبتسما..

وقال مستفسرا :

- إيه .. قال لك نكتة؟

- آه .

- قولها لى .

- أقولها له يا مألفاتى ؟

فزاد انزعاجه .. وصرخ :

- أرجوك .

فعدت أضحك .. وقلت للجندى :

- بلاش يا حضرة الصول .

- بلاش ليه ؟

ملت على أذنه .. وهمست :

- أصلها نكته أبيحة .

فعاد المؤلف ينظر إلىّ بغيظ .. وعدت أضحك أنا والجندى .. وكلما اغتاظ ضحكنا .. وكلما ضحكنا زاد غيظه .. وظللنا هكذا حتى نسيت من الذى بدأ ومن الذى يجب أن ينتهى .. هل نكف عن الضحك لينتهى غيظه أم يكفّ هو عن الغيظ لينتهى ضحكنا .. ونسيت أنه حكم علينا منذ أقل من ساعة بالحبس .. إلى أن وصلنا إلى المقهى .

* * *

مع الغروب عدنا إلى الحجز .. وكان الصول النوبتجى قد تغير .. وساومناه فرفض وأصر على دخولنا الزنزانة .. ودخلنا .. ووجدنا الطعام الميرى محجوزا لنا وهو

(عدد واحد رغيف حاف فقط لا غير) لكل منا .. وكنت قد ملأت بطنى وأنا على المقهى فقضمت منه قضمة واحدة حرصا على ألا يفوتنى من التجربة أى شىء .. وناولت بقيته لأحد النزلاء .

وجدت الزملاء الذين خرجوا معنا صباحا قد عادوا قبلنا فتركت المؤلف منزويا فى ركن الزنزانة على إحدى المصاطب متأففا من الاختلاط بالموجودين واندمجت أنا معهم .. النشال الذى توجه معنا إلى المحكمة شاب اسمه عبده .. خفيف الظل وابن نكتة.. صاحبنى فى كل حواراتى مع النزلاء وكان سعيدا مبتهجا بالتحقيقات الصحفية التى أجريها معهم .. معلقا على كل حالة بنكتة غاية فى سرعة البديهة والذكاء .

* * *

خرجت من لقاءاتى مع النماذج المختلفة من محترفى الجريمة بكل أنواعها بحقيقة هامة.. هى أن المقابر تشكل عنصراً هاما فى إنتاج الجريمة حيث إنها صعبة السيطرة على رجال الأمن .. ففيها مذابح للبهائم المريضة وفصول لتعليم النشل.. ومخازن لإخفاء المسروقات .. وأماكن مفروشة للدعارة .. ومخابئ لدفن المخدرات .. وملاجئ للفارّين من العدالة والهاربين من تنفيذ الأحكام .. وأوكار للشم وتدخين المخدرات والحقن بالمورفين.. وسوق لتجارة الرقيق جملة وقطاعى .. بيع الميت كله أو أجزاء للطلبة الدارسين .. وتنبهت إلى شىء مخيف (تدفن عزيزاً لديك فى الصباح وتستقبل المعزين فى المساء فى باب الشعرية مثلا .. وتشربون القهوة السادة وتحكى لهم بفخر عن الكفن الذى اشتريته للمرحوم بالشىء الفلانى من الحرير الهندى المكون من سبعة أدراج والميكروفون يصرخ بآيات من (القرآن الكريم ).. وفى نفس اللحظة تكون جثة المرحوم ممددة عارية من أدراجها السبعة من الحرير الهندى على منضدة فى شقة فى الزمالك حولها بعض الدارسين .. يشربون القهوة بالسكر ، والكاسيت يصرخ بأنغام (الديسكو). فالمقابر بدون أسوار وأبواب وحراس ودفاتر لتسجيل حالات الدفن والزيارة .

* * *

فى الحادية عشرة نودى على طابور العرض مع استثناء البعض ، أنا والمؤلف منهم .. ولاحظت أن أحد المطلوبين للعرض يبيع للآخرين (برشام) فسألت صديقى النشال ، فقال بلغته خفيفة الظل :

– بيبيع حمام .

– مش فاهم .. ؟

– حبوب منع الضرب.. المساجين المطلوب منهم اعترافات ياخدوا الحباية ومهما ضربوهم ما يشعروش بالضرب واسمها حبوب (إسبراكس) .

ففهمت لماذا سألنى عنها أحدهم أمس قبل العرض مباشرة .

بعد ساعة عاد لنا الطابور.. خمسة أطلق سراحهم .. منهم الرجل وزوجته (وبارمان) بدون شهادة صحية وسائق بدون رخصة.. منهم من أفرج عنه بكفالة ومن أفرج عنه بضمان السكن أو الوظيفة .

وسمعت عويلاً وبكاءً فى زنزانة النساء ، فسألت صديقى النشال فقال إن المحكمة أمرت بإيداع المولود المخطوف ملجأ الأيتام ؛ فاقشعرّ بدنى وأخذت أشرح الحسبة لصديقى:

– الطفلة أخذتها أم غير أمها دون أن تعلم .. والطفل الذى له أب وأم سيربى فى ملجأ دون أن يعرف أمه وأباه .. والأم السارقة حرمت من بنتها .. لا حصّلت عنب اليمن ولا بلح الشام .. دنيا .

جلست كئيباً بعد خبر فَقْد المرأة لابنها أو الذى تدّعى أنه ابنها .. وأدرك صديقى النشال همّى فقام إلى الشباك .. ونادى:

– يا مجاورى.. هات كنكة شاى .

واستمر ملازما للشباك وأنا أرقبه لأعرف كيف سيدخل الشاى .. إلى أن حضر مجاورى إلى المنور وجلس القرفصاء أمام النافذة وأدخل خرطوماً من الكاوتش من بين ثقوب الشبكة ثم ثبّت فى طرفه قمعاً من البلاستيك وصبّ الشاى فاستقبله صديقى فى زجاجة من بلاستيك بعد أن ثبّت طرف الخرطوم فى عنقها .. ثم لفّ جنيهاً على شكل سيجارة ودسّه فى فتحة الخرطوم فسحبة مجاورى .. وجلسنا على البطانية نتبادل

الزجاجة ونحتسى الشاى باستمتاع.. وأثناء الحديث اكتشفت أن صديقى النشال .. هذا الذكى جدا.. لا يعرف القراءة والكتابة .

بعد منتصف الليل نام الجميع .. تكوّم كل اثنين أو ثلاثة تحت بطانية واحدة يتدفأ كل منهم برفاقه .. وآخرون غرباء ليس لهم من يحضر لهم فراشا فتمددوا على أسفلت الزنزانة مباشرة وأحذيتهم تحت رؤوسهم وركبهم فى صدورهم .. والغريب أنهم جميعا استطاعوا أن يناموا وعلا شخيرهم .. وجلست أتأمل الأحوال والناس .. أسترجع الماضى وأستعرض الحاضر وأفتش المستقبل .. أتشرد بين الواقع والخيال والحقيقة والزيف.. متمنياً أن يسعفنى النوم فى أية لحظة ويعفينى من تفكير لا فائدة منه.. وما لبثت أن ثقلت رأسى وارتخت جفونى فتمددت .

تركونا نياماً حتى العاشرة .. فاليوم (جمعة) ولا يوجد عرض على أية جهة .. أيقظنا الصول.. أى صول فهم كثيرون ولم أحفظ أسماءهم ولا وجوههم بعد.. وسبّ حظه الذى أوقعه فى نوبتجية الجمعة التى لا تنتهى فى الثالثة بعد الظهر كباقى الأيام ولكنها تستمر حتى المساء كما عرّفنى صديقى النشال.. ثم سبّ آباءنا وهو يخرج الكلمات مضطربة من بين أسنانه المثرمة :

– ملعون أبوكم .. من فوق لتحت ومن تحت لفوق .

وظل يكررها .. فاحترت فى تفسيرها .. ماذا يقصد بقوله (من فوق لتحت .. ومن تحت لفوق) وأخيرا شرح لى صديقى أنه يقصد بـ(تحت) المحبوسين.. ويقصد بـ(فـوق) رؤســاءه.. وتفحّصت سيادته خفية من تحت لفوق ومن فوق لتحت فوجدته كله على بعضه لا يساوى كوز ذرة .. فابتسمت وقلت له دون أن يسمعنى :

– إن كنت رجلا اشتم اللى تحت.. تحت.. واطلع اشتم اللى فوق.. فوق .

فتح للمرأتين أولاً فدخلتا دورة المياه.. وتسكّع هو فى الشبكة بحيث يلمحهما كلما استدار فى ذهابه وإيابه.. ثم أعادهما للزنـزانة وأغلق عليهما.. وفتح زنزانتى الرجال وغادر الحجز .

واختلط سكان الزنزانتين وتجمّعوا فى الشبكة من باب التغيير.. وعرفت أن الزنزانتين ستظلان مفتوحتين طوال اليوم ليستعمل المحبوسون دورة المياه فى غسل الثياب .. وتسهيلاً لالتقائهم بالزوّار من خلال الباب الرئيسى للحجز ذى القضبان الحديدية .

سمعت الأذان من ميكروفون مسجد قريب من القسم وبعد الصلاة سمح بالزيارة .. ونشط الصول فى جمع رسومها.. جنيه .. نصف .. ربع .. وانتحى جانبا يحصى الإيراد ثم لوّح لنا بالمبلغ الذى جمعه وهو يربو على عشرة جنيهات وصاح يسبنا ويسب حظه الذى أوقعه فى نوبتجية الجمعة.. ثم عاد يدور على المساجين ويخطف علبة سجائر .. علبة سلمون .. بيضة .. خيارة .. برتقالة .

وحكى لى صديقى النشال حكاية طريفة من أرشيف ذكرياته ملخصها أن (صول) من إياهم دأب على سرقة اللحم.. يستلم الطعام من الزائر ويعِده بتوصيله إلى السجين وبعد انصرافه يستولى على اللحوم ويوصله خاليا.. واكتشف أحد المساجين ذلك .. وكان مجرما محترفًا ومن أسرة محترفة فأوصى أهله بذبح قطة ووضعها مع الطعام .. وظنها الصول أرنبة فسرقها .. وبعد ساعتين ناداه السجين وسأله :

- أكلت الأرنبة يا حضرة الصول ؟

فضحك .. وقال هازرا :

- قل لى بالهنا والشفا .

- بالهنا والشفا يا سيدى .. بس خللي بالك دى مش أرنبة.. دى قطة .. أصل أنا متعود آكل القطط

وأمسك الصول بطنه وتقيّأ .. ثم أغمى عليه .. وصار أضحوكة زملائه والمساجين لعدة أيام .

وزّع علينا طعام الغداء المكون من (عدد واحد رغيف بلدى حاف لا غير) .. وكان طازجا .. وعرفت أن القسم يتعامل مباشرة مع مخبز قريب فيرِد الخبز دائما طازجا .. وكانت هذه هى الميزة الوحيدة التى وجدتها طوال مدة وجودى فى الحجز .

وفجأة زارنى ابنى وإخوتى فى لهفة وانزعاج بعد أن تعبوا فى البحث عنى بحكم عدم الخبرة السابقة .. فطمأنتهم أنها مجرد رحلة لمدة أسبوعين إلى (أوتيل طره بالاس) كما سمعت صديقى النشال يطلق عليه.. وكتبت لابنى لوازم الرحلة (أطعمة جافة وفوطة وبيجامة وشبشب وملابس داخلية وماكينة حلاقة وصابونة .. ونظارة القراءة وكشكول فارغ وقلم وعرض حال تمغة ومجموعة كتب) .

وظللت أبتسم أمام أهلى من خلال باب الحجز مهوّنا الأمر مدعيا أنها رحلة أنا فى أشدّ الحاجة إليها .. ومن داخلى لا أدرى إن كانت ابتسامتى هذه ستستمر فى الأيام القادمة أم ستختفى وكنت متمثلا الحكمة الشعبية التى تقول (إن جاءك الغصب اعمله جودة).. ولكن ظل أهلى على تجهمهم وقلقهم .. وربما ظن بعضهم أنى أصبت بلوثة أو بحالة نفسية.. وبعد أن ودعونى وأعطونى ظهورهم سألت نفسى: أنا أضحك وهم يبكون .. من منا السجين !

مع الغروب عاد ابنى بالمطلوب فى حقيبة كبيرة من القماش على شكل جوال كمخلة الجندى.. وأعطيته كل ما بقى معى من نقود واحتفظت بجنيه واحد (حق البنزين) فلما أبدى دهشته عرّفته أن النقود غير مسموح بها فى السجن .. وأوصيته ألا يزورنى فى السجن إلا بعد أن أستطلع الأحوال وأعرف إجراءات الزيارة وأرسل له بما يفيد مع أى شخص مفرج عنه أو مع زائر لسجين آخر .. وأوصيته ألا يحضر أمه أو أختيه أو أخاه الصغيرعند زيارته ؛ فأنا أشفق عليهم أن يرونى فى هذه الحال .

* * *

فى المساء وقبل إعادتنا إلى الزنازين فتح باب الحجز ودخل رجل فى الخمسين .. بجلباب وبالطو وتلفيحة يلفّ بها رأسه .. فقد كان الطقس باردا .. واندفع إليه المؤلف معانقا .. ثم اتجها نحوى وتعارفنا.. إنه الحاج محمد مدبولى الناشر الشهير وصاحب المكتبة بميدان سليمان باشا التى تفرش كتبها على الرصيف ويتردد عليها المصريون والسائحون والعرب .. والذى سحبت نسخ الكتاب موضوع الاتهام من مكتبته..

وبهذا اكتملت عناصر القضيـة.. (كتاب ومؤلف وطابع وموزع) ولكن الحاج مدبولى لم يأت مثلنا وحده بل أتى فى زفّة كبيرة من أولاده وموظفيه وعماله ومحاميه.. وبسرعة ظهرت كراماته وملايينه .. فأعيد السجناء إلى الزنازين وفرش لنا الشاويشية بأنفسهم البطاطين فى الشبكة تحت إشراف حضرة الصول بنفسه وبمراقبة ومتابعة جوقة الحاج مدبولى من خارج باب الحجز ..

ولاحظت أن بطاطين الحاج مدبولى جديدة تفرغ لأول مرة من أكياسها النايلون.. وكان رجلا لمّاحا فمال علىّ هامساً :

- أصلى ما حبتش أزعج الحـاجّة والبنات باللى حصل فعرفتهم إنى مسافر اسكندرية فى عمل .. والموظفين اشتروا لى البطاطين وكل لوازمى من السوق .

واطمأن آل مدبولى إلى مقام سيدهم .. وغادرونا بعد أن زحموا بعدد كبير من الكراتين والأكياس ملأى بشتى أنواع الأطعمة والحلوى والفاكهة تكفى حيا بأكمله .

وكانت سهرة من أجمل السهرات.. فاض الطعام عن حاجتنا.. وكان بعضه قابلا للتلف إذا استبقى للغد.. وهذا من عيوب السجون إذ ليس بها ثلاجات ولا فريچيديرات ولا تكييف.. فقمتُ وناولته للمساجين من نوافذ أبواب الزنازين واستوصيت خيراً بالمرأتين.. وإن كانت أم الطفل ما زالت مضربة عن الطعام ولا تكفّ عـن النواح مرددة ( ابنى .. ضناى ) كأنها فى حلقة ذكر.

وهاص الحجز كله بطعام وحلوى الحاج مدبولى كأننا فى حفلة عيد ميلاده .. وكدنا ننسى جميعا أننا فى السجن .. وسهر ثلاثتنا حتى مطلع الفجر .. وتناسيت مؤقتا الخصومة التى بينى وبين المؤلف حتى لا أعكّر صفو اللحظة الطيبة التى أضفاها علينا الحاج مدبولى .

وعرفت منه أنه أخلى سبيله بعد تحقيق المصنفات الفنية ولكن بعد التحقيق معنا أمرت النيابة بالقبض عليه وسيعرض غدا على النيابة .. وتحركت حاستى الصحفية نحو الرجل المعروف لكل كاتب وقارئ فى مصر وإن لم يسبق لى التعرف عليه .. نعم قرأت اسمه

كناشر على عشرات الكتب وزرت مكتبته كثيرا وجناحه فى معرض الكتاب كل عام واشتريت مجموعة كتاب وصف مصر من مكتبته قبل القبض علىّ بساعة ولكنى لم ألتقِ به شخصيا من قبل .

ولم يدهشنى أن يكون الرجل الذى ملأ الأسماع بأنه أنشط ناشر فى مصر ـ أن يكون محدثا لبقا ومثقفا ومتدينا وله باع وعمق ورؤية حكيمة ثاقبة فى أمور الحياة العامة .. ولكن الذى أدهشنى أن تعليمه بسيط .. وعندما سألته فى انبهار (كيف نجحت كل هذا النجاح وأنت لا مؤاخذة) رد ببساطة وثقة :

– الصدق .. خليك صادق مع نفسك ومع الناس.. وماتبصش لغيرك .. ولا تحقد ولا تحسد ولا تقلّد .. بُص قدّامك واجتهد واستمر.. وبعد شوية .. ومن غير ماتدرى ح تلاقى نفسك قدام .. أول الصف .

# السجن

كالعادة نادوا الأسماء وجلسنا القرفصاء وأعيد إلى الزنازين من ليس لهم عرض أو ترحيل وتم جمع ثمن البنزين الذى لم أرهم يشترونه أبدا فهم يحصلون على البنزين من المحطات بكوبونات مختومة تصرف لهم من وزارة الداخلية .. ووضعت الكلبشات بالطريقة الصعبة إياها لمن لم يدفع .. وتحرك الطابور إلى فناء القسم الذى كنت أراه من نافذة الشبكة وعمل لنا (فيش وتشبيه) باعتبارنا مرحّلين إلى السجن .. أنا والمؤلف والنشال .. الذى صادقنى وشاءت الصدفة وحدها أن تتوافق تواريخ رحلته مع تواريخ رحلتى تماما حتى يوم الإفراج .. ثم تحرك الطابور إلى السيارة وحشرنا فيها حشرا ونام بعضنا فوق بعض طبقات .. وتحركت إلى الكورنيش .

وفجأة علت همهمات وهمسات .. ثم زادت وارتفعت ووضحت :

- مايركبوش معانا ..
- دول كفرة ..
- ح نشرحّكم يا أولاد الكلب ..
- صوركم فى الجرايد ..

ورغم المحنة التى كنا كلنا فيها نشطت حاسة الإجرام عند البعض .. وأمسك أحدهم المؤلف من رقبته يبغى خنقه وشده آخر من القميص وثالث من البنطلون .. وفى لحظة كان المؤلف يطفو فوق كل هذا اللحم البشرى تتخاطفه الأيدى كقطعة لحم فوق طبق فتّة والكل يمد يده ليلحق بنصيب .. ثم بدأت الأيدى تشبع من تلطيش لحم المؤلف واشتاقت إلى لحمى .. وهنا انتفض صديقى النشال وفرد ذراعيه فأزاح الجميع عنى .. ومدّ إصبعه فى فمه فسحب من تحت لسانه نصف موس حلاقة ، شَهره ولوّح به بطول ذراعه كأنه يلوح بسيف استعدادا لمبارزة .. وصرخ :

- ماحدش يمد إيده .. ده المطبعجي مالوش دعوة .

فاستكان الجميع وأخلوا سبيلنا .. لصوص وتجار أعراض وقتلة ويغارون على الدين.. فهززت رأسي لغرابة الموقف.. وسمعنا أزيز باب حديدى كبير يفتح وتدخل منه السيارة .. ثم فتح باب السيارة فقفزت أنا والمؤلف والنشال لنهرب من زنزانة إلى زنزانة .. ونلوذ من الرمضاء بالنار .. وفتح لنا باب آخر فدخلنا .

وتفحّصت المكان .. فناء مربع تحوط به من أضلاعه الأربعة حجرات متجاورة فى صف واحد ومن دور واحد .. وفى وسط الفناء نصب يشبه التمثال وسط دائرة مزروعة بالنجيل والزهور .. وكان الضلع الذى به الباب الذى دخلنا منه به باب آخر مكتوب عليه (الزيارة) .. والضلع الأيمن به بابان (المخزن والاستقبال) .. والضلع الثالث ثلاثة أبواب (الضابط النوبتجى والكتبة ودورة المياه).. أما الرابع فكان به باب واحد تصعد إليه بعدة درجات مكتوب عليه (مأمور السجن) .

حصل الحراس على التوقيع بتسليمنا وتركونا فى رعاية الله ورعاية المسئولين عن السجن .. فوقف ثلاثتنا بجوار الحائط كالأسرى .. وأقبل علينا خمسة جنود وأوسعونا تفتيشا.. فأفرغوا أمتعتنا بدقة متناهية وشك دائم .. ولم يعثروا معى على أى ممنوعات .. اللهم إلا ماكينة الحلاقة فأقسمت لهم برأس أبى وأجدادى أنى لم أكن أعرف أنها ممنوعة .. فأفهمنى حضرة الجندى المفتش أن كل الأدوات المعدنية ممنوعة وأن المسموح بها هى ماكينة الحلاقة المصنوعة من البلاستيك .. وطاف فى ذهنى سؤال أخرسته فى الحال .. (ما الفرق بين ماكينة حلاقة معدن أو بلاستيك ما دامت الشفرة التى يكمن فيها الخطر الموجودة فى كليهما واحدة؟.. هل الخوف من الماكينة أم من الموس نفسه؟.. وما الفرق بين مرتبة من القطن ممنوعة ومرتبة من الإسفنج مسموح بها .. وكلتاهما قابلة للاشتعال ؟! ) .

وسألنى جندى آخر.. هل معك نقود.. فرددت أدفع عن نفسى هذه التهمة وهذه الإهانة والعياذ بالله . ولكنه مد يده فى جيبى وخرجت أصابعه تحمل ثلاث قطع معدنية من فئة الخمسة قروش نسيتها وأنا أسلم النقود لابنى .. فردها فى كفه ونظر إلىّ بغيظ

فأحنيت رأسى كتلميذ مذنب وعدت أقسم بالأحياء والأموات أن ذلك حدث سهوا.. ولو كنت أنوى إخفاء نقود لأخفيت مبلغا يصلح للتعامل.. ودسهم فى جيبه وتركنى فحمدت الله وقلت لنفسى (جاء اليوم الذى أصبحت فيه النقود جريمة وعارا).

انتهوا من التفتيش فقادونا إلى عنبر الاستقبال.. حجرة كبيرة سقفها بعروق خشب كالمندرة فى ريف مصر.. بفارق واحد.. هو أن سكان المندرة يقضون حاجتهم فى مرحاض أو حتى فى الخلاء أو الحقل .. ولكن زوار هذه المندرة يقضون حاجتهم فيها .. وعلى مرأى ومسمع ومشمّ من الباقين .. بها كمية من القاذورات والبراز وجيوش الذباب تحتل ربع المساحة تقريبا وتكفى لإصابة شعب بأكمله بوباء.

جلس كل منا على أمتعته المطوية .. وكل نصف ساعة تقريبا يضاف إلينا وفد جديد ألقت به إحدى سيارات الشرطة .. وكلما زاد العدد زاد قضاء الحاجة وزادت المخلفات ونشط الذباب وهاج وانتعش .. وكان بجوارى زميلى النشال ولم تكن هذه أول زيارة له.. وكان علاوة على خفة دمه خبيرا بأنواع المخلفات .. كلما قضى أحدهم حاجته مال على أذنى هامسا .. ده كان متعشى فتة بالتوم أو متعشى محشى أو سمك .. وده حشاش أو بوظجى أو سبرتجى.. وهكذا .. فيزيد تعب أمعائى.

ومضت عدة ساعات .. وامتلأ عنبر الاستقبال بأشكال ونماذج مختلفة من كل المهن ومن كل الجرائم.. صبية وشباب وكهول وشيوخ.. كأننا فى سوق أو مهرجان للجريمة .. وعبق الجو برائحة البراز والبول ودخان السجائر.

عند الظهر دخل جنديان يحملان منضدة صغيرة وكرسيا .. جاء بعدهما شاب بملابس مدنية معه دفتر .. وجلس وبدأ ينادى الأسماء فينهض المنادى عليه ويتقدم إلى المنضدة ويملى صناعته والتهمة التى جاء بها .. أو جاءت به .. ثم يعود إلى مكانه.

ثم جاء دور الحلاق .. فمر علينا ونحن جلوس فى أماكننا على أمتعتنا .. يطلق المقصّ فى وسط رأس المتهم فيكون بها منطقة منزوعة الشعر.. ويتركه إلى الذى يليه فيما لا يزيد على دقيقة واحدة بحيث انتهى منا جميعا ونحن حوالى خمسين شخصا

فيما لا يتجاوز الساعة.. وأخذ المحترفون يدسّون له علب السجائر فى جيبه حتى لا يغوص بالمقص إلى فروة الرأس.. وعندما جاء دورى ووقف أمامى ابتسمت.. فليس فى رأسى شعر يقصّه.. اللهم إلا بعض زغب خفيف خلف الأذنين.. وفهم أن ابتسامتى معناها أنى أقول له (عليك واحد)، فابتسم وعقّب (لأ.. إنت يلزمك فتلة أو حِتّة حلاوة) فارتعبت وظهر الذعر على وجهى.. فقهقه عاليا كأنه يقول لى (خالصين) .

بعد الحلاق خرجنا إلى الفناء مرة أخرى كل ثلاثة معا .. وكانت مجموعتى أنا والمؤلف والنشـال الذى يصـرّ على أن يلازمنى فى السّراء والضّراء.. أو فى الضّراء والضّراء.. فلم تصادفنا أى سرّاء بعد.. وقفنا صفاً وظهورنا للحائط وتسلّم كل منا لوحاً إردوازيا كالذى كنت أستعمله وأنا طفل فى المدرسة الإلزامى .. مكتوبا عليه اسمى ورقمى بالطباشير.. فَرِحت به جدا فرحة الطفل.. فأنا لم أرَ لوحا منذ أربعين عاما تقريبا لا فى المكتبات ولا حتى فى المتاحف.. هل تعيد الأيام نفسها ويصرف لى لوح إردواز كالذى كنت أعلقه فى رقبتى بدوبارة طويلة وتـتبادل رُكبتاى دفعه للأمام أثناء سيرى لأتسلى بقطع المسافة بين المدرسة والبيت إذا لم أجد حجارة أشوطها بقدمى فى الطريق.. أو كان الحذاء جديدا يُجرى عليه والدى تفتيشا عند عودتى من المدرسة كل يوم .

وقف أمامنا شاب يحمل كاميرا صغيرة .. أمرنا أن نضع اللوح على صدورنا ووضع عينه فى الكاميرا .. ثم هتف :

– ارفع وِشّك لفوق يا فتحى .

اندهشت لأنه يعرف اسمى.. ثم تنبهت إلى أنه قرأه فى اللوح من خلال العدسة.. وانتهى التصوير وعُدنا إلى مندرة الاستقبال .

ودخل واحد منهم .. وكما قلت كلهم لا يضعون شارة بدرجاتهم ، ونقدرها حسب السن .. ولكن من باب الحذر ننادى أى واحد (يا حضرة الصول) فهى أعلى الدرجات التى يمكن أن يصل إليها بعد نصف قرن وليس أعلى مـن ذلك إلا الضابط .. ولو

بالغت وناديت أحدهم .. يا حضرة الضابط .. ينقلب النفاق والمجاملة إلى سخرية واستهزاء .

وهمس لى صديقى النشال أنه رقيب أول الاستقبال واسمه برعى.. شاب فى حوالى الثلاثين حرقت الشمس وجهه.. ورقبته طويلة وذراعاه طويلتان.. يشبه الممثل الكوميدى (نجاح الموجى) فـأدركت من أول وهلة أنه صعيدى.. ووقف خلفه كل الجنود الذين كانوا فى المندرة فأدركت أهميته.. كان يمسك عصا قصيرة رفيعة.. مجرد ساق نبات أو عود ملوخية بدون أوراق.. لا يصلح للضرب ولا لأىّ غرض آخر.. وتقدم إلى عمق العنبر بحيث أصبح فى وسطنا.. وبلا مقدمات أخذ يهش المساجين كأنه يهش ذباباً.. فشعرت بالحرج والإهانة.. وأدركت أن لذع هذا العود الضعيف وما يوحى به من احتقار ، أشد من عصا غليظة أو شومة تقصم الظهر.. وكلما لوّح لجماعة بالعود فرت من أمامه.. فأدركت أنه يسعده أن يرى شابا أقوى منه صحة يفرّ من أمامه.. أو رجلا فى سن والده ينحنى وهو يتلقى لسعة العود .

ثم وقف يتفحصنا .. ويضرب بطن كفه اليسرى بعود الملوخية وخلفه صبيانه الأربعة .. وران على المندرة صمت رهيب .. فأدركت أن أغلب الوافدين من أصحاب السوابق الذين سبق له استقبالهم يعرفون أهميته وشأنه .. ثم صاح :

– النشالين والحرامية هنا.. وتجار العملة والمخدرات هنا .. والمزورين والمرتشين والمزيفين والمختلسين هنا .. وبتوع النسوان وبتوع العيال هنا.. وطبعا ما فيش فيكم قاتل لأن شكلكم بيقول ما فيش فيكم صعيدى .

وأشـار إلى صدره بعود الملوخية وابتسـم وأردف :

– القتالين عندنا احنا .. إحنا الصعايدة رجالة .

واندفع كل واحد يحمل أمتعته ويتجه إلى حيث أمر.. واشتدت الفوضى والارتباك.. فالعدد كبير والمكان مزدحم ولا يسمح بالحركة والانتقال السريع.. وبدا الكل يتخبط فى بعضه.. فأعمل عوده يلسع به قفا كل من تطوله ذراعه .. لاعنا أبا الكبير والصغير..

فسقط أكثر من واحد فى بركة المخلفات .

وكالعادة وقفت أنا والمؤلف فى الوسط فى حيرة لا نعرف إلى أى فئة ننتمى.. فاقترب منا وهو يلوح بعصاه وصرخ :

- إنتم إيه ؟

وقلت مرتبكا .. وعينى على عود الإهانة فى يده:

- إحنا بتوع الكتاب يا حضرة الصول .

- آه .. إنتم المألفاتيّـة الكفَرة.

- أيوه يا حضرة الصول إحنا المألفاتية.

فلوّح بعود الملوخية مهدّدا .. وكرر:

- الكفَرة .

ثم نظر إلى من حوله وهو يبتسم ليهزأ بنا .. وسألنى:

- صحيح انت قلت إن سيدنا إسماعيل مارضيش يندبح وجاب لأبوه سيدنا إبراهيم خروف على سبيل الرشوة ؟

وضحك الجميع مجاملة للنكتة الحلوة التى ألقاها الرجل خفيف الظل .

- أنا ماليش دعوة ما قلتش حاجة.. أنا المتهم بطبع الكتاب.. المؤلف أهه .

استدار إلى المؤلف بطريقة معجبانية ورقّص له حاجبه راغبا أن يشرك الجميع فى الاستهزاء به .. وهتف بنبرة توبيخ كأنه يسبه:

- يا مألفاتى.. يامألفاتى يابن المألفاتى .

وضحك الجميع بصوت عال ترضية له .. ثم أمرنا أن ننضم لفئة المزورين والمزيفين .. و عاد إلى مكانه فى صدر العنبر .. وانبرى جندى من صبيانه فصرخ فى الجميع:

- إللى عاوز يدخل عنبر الميـرى ييجى شمال.. واللى عاوز يدخل عنبر الملكى ييجى يمين.. ويقدّم طلب على عرضحال تمغة .

ثم أردف من باب الترغيب والترهيب :

– الملكى يعنى تأكل وتلبس زىّ ما انت عاوز .. وأهلك يحضروا لك الأكل واللبس وترجع لهم هدومك الوسخة كل يوم.. والميرى تلبس البدلة الدمُّور وتفطر وتتغدى وتتعشى عيش وجبنه قريش وتـروح كل يوم تشتغل بأكلك فى الملكى.. تكنس وتمسح الزنازين وتشيل البول وتنظف دورة المياه .

وتَجمّع جهة الشمال النصف تقريبا .. راغبو الميرى .. أو المضطرون إلى الميرى.. ووجدت صديقى النشال بينهم.. واندفع الباقون يقدمون عرضحالات التمغة مصحوبة بتمغة أخرى خاصة (تمغة برعى) وهى ثلاثه علب سجائركليوباترا .. ثم التفّ برعى ومعه جنده حول المنضدة يحصون عدد العلب .. وفجأة ترك المندرة غاضبا.. وأقبل علينا الجندى وقال ناصحا ولائما ومهددا بلهجة درامية :

– حضرة الصول زعلان منكم جدا .. ليـه كده تزعلوه .. أربعين علبة بس!.. ده وراه ناس تانية.. وراه مصاريف..

وتبلد الجميع ورفض أى واحد أن يدفع أكثر.. فذهب الجندى ليبلغه.. وعادا معا.. وفاجأنا بعصاه.. هاج فينا جميعا لاعنا الآباء والجدود.. فتفرّقنا مذعورين من حوله .. يفر من يفر ، ويقع من يقع ، تماما كأنه يهش دجاجا .. ثم وقف مشدودا .. وباعد بين ساقيه مشيرا بعصاه إلينا فى احتقار كقائد منتصر يشير إلى أسراه .. وصاح :

– لبّسهم كلّهم ميرى ولاد الكلب دول.. سلّمهم كل واحد بدلة.. وقبل ما يلبسها وسخها له من هنا ..

اتجهت عصاه إلى مستنقع المخلفات الذى يشاركنا الحجرة .. فأسرعنا نضاعف له رسم التمغة .. فأمر الجندى فى ترفع وتأفف أن يحصى الزيادة.. ولم يقتنع .. وأخذ يمر بيننا ويتفرس فى وجوهنا.. وكل منا يعطيه وجها يطبع عليه الضعف والذلة ولسان حاله يدعو متمنيا ألا يصيبه الدور فيتحرك العود شمالا ومعه عينا حضرة الصول.. ويقول بأنفة وكبرياء وتسلط رهيب : ميرى .

كان بيننا رجل تجاوز الخمسين يرتدى جلبابا فاخرا وعباءة صوفية وطاقية أنيقة مطلقا شاربه ولحيته ويضع على عينيه نظارة ثمينة وبيده مسبحة .. وقور كرجال الدين .. وقف أمامه يتفرسه طويلا فى تشكك ومحاولة تذكر.. ثم سأله عن تهمته فقال (تحرير شيك بدون رصيد). فآثر برعى السلامة وأشار يمينا وقال (ملكى) .

ثم صدر الأمر السامى العالى فحمل التعساء أمتعتهم وتحرّكوا طابورا خلف أحد الجنود إلى عنبر الميرى .. رغم أن فيهم من دفع (تمغة برعى) وقدم العرضحال المتموغ .. ففى النهاية إرادة القيصر هى الفيصل .

* * *

صدر الأمر السامى فحملنا أمتعتنا وتحركنا طابورا خلف جندى آخر .. توجه بنا فى اتجاه الفناء .. وأمام باب حجرة المأمور وجدنا ضابطا برتبة ملازم أول جالسا فى الشمس على كرسى ومادا ساقيه على كرسى آخر .. وقف الطابور على بعد منه .. وبدأنا نمر أمامه واحدا بعد الآخر وهو مازال على جلسته هذه .. وعندما جاء دورى سألنى :

- جريمتك إيه ؟

- متهم بطبع الكتاب اللى ألفه المتهم اللى سبقنى .

- يعنى إيه متهم.. انت مش طبعت الكتاب ؟

- لأ .

- مطبعتك فين ؟

وشرحت له مكانها .. فقال بلهجة ودية :

- أنا ساكن جنبك.. وزرت مطبعتك قبل كده.. عملت لى كارت الدعوة بتاع الفرح.. انت هنا فى السجن الاحتياطى على ذمة التحقيق وإن كنت مظلوم ح يفرج عنك.. أزمة وتمر وخللى إيمانك بالله كبير .

كدت أبكى وأشكو له ما فعله برعى بنا.. هنا على بعد أمتار منه.. وأدركت أن عملية فرز واختيار نزلاء عنبرى الملكى والميرى عملية تقديرية من اختصاصه.. ولكنه

عريس ولكى لا يتعب نفسه ويوفر جهده معنا لجهد آخر يتركها لهذا البرعى.. فيستبد بغير رحمة ويرتشى بغير شبع.. ويكتفى هو بمراجعة بسيطة نادرا ما تختلف عما ارتآه برعى.. مؤثرا راحته واسترخاءه فى الشمس.. تاركا مصير مواطنين لهم نفس حقوقه فى هذا البلد تحت رحمة هذا الجاهل.. فيهم على الأقل واحد برىء.. أنا أعرفه جيدا.. وامتلأت عيناى بالدموع وفى صدرى صرخة تمنيت أن أطلقها.. وأقول له:

(من المفروض .. أن تكون حرية الاختيار بين الحبس الملكى والميرى مكفولة تماما للجميع .. دون تدخل أى إرادة أخرى.. مادام الجميع مجرد متهمين وتحت ذمة التحقيق وفيهم بالقطع أبرياء .. فما هو العوض عن هذه الإهانات والمتاعب لمن تثبت براءته؟.. هذا البرعى القذر وأمثاله ستظل صورهم ذكرى مصحوبة بالمرارة فى صدور الأبرياء مدى الحياة ).

* * *

وتنفسنا الصعداء عندما تحرك الجندى بالطابور من فناء الإدارة إلى باب حديدى كبير آخر يؤدى إلى داخل السجن.. اجتزناه فرحين لأننا تخلصنا من وحشية وإرهاب برعى.. كأننا نجتاز بابا يؤدى إلى الحرية.

دخلنا فناء مربعا كبيرا جدا يتوسطه مبنى مستطيل من دورين فى حجم مدرسة بكل دور صف من النوافذ المربعة الصغيرة ذات القضبان الحديدية.. وللمبنى باب حديدى ضخم مخطط بقضبان حديدية متوازية.. اجتزناه لنجد فناء داخليا طويلا صُفَّتْ الزنازين على جانبيه.. يتوسطه سلم يصعد إلى زنازين الدور الثانى بنفس النظام .

والفناء الداخلى الذى يتوسّط زنازين الدورين بلا سقف ، ولكنه مغلق بحصيرة من القضبان الحديدية الضخمة فى خطوط متوازية تسمح بدخول الهواء والضوء والشمس والمطر وتظهر من خلالها السماء .. والمبنى كله قديم وجدرانه من الحجارة السميكة مطلية بمجموعة من الألوان الجيرية الكالحة المتنافرة.. الرمادى والأصفر والأزرق والبنى

بغير قاعدة ولا نظام بحيث لا تستطيع أن تسمى له لونا.. وأبواب الزنازين من الحديد المغطى بالصاج السميك .

تطلعت إلى صفحة السماء من خلال القضبان الحديدية فتذكرت أنى شاهدت هذا المنظر فى السينما وفريد شوقى منبطح فوق القضبان يزحف ببطء وحذر فى محاولة للهرب.. وانتابتنى مرة أخرى فرحة الأطفال وحب المغامرة وارتياد الجديد.. فى لحظة كان الجميع تسيطر عليهم الكآبة والأسى والهم .

زجّوا بنا فى أول زنزانة على اليمين.. مكتوب على بابها الصاج بخط ركيك (زنزانة الإيراد) .. وجدنا بها مثل عددنا يفترشون البطاطين على البلاط .. ولها نافذتان مربوط بقضبانهما حبال مدلاة على الجدار معلق بها سلال وحقائب النزلاء .

واستقبلنا زعبلّة نوبتجى الزنزانة.. فى الستين ، قليل الحجم ، قصير ، قريب الشبه بالفنان (عبد السلام محمد) يلفّ حول رأسه تلفيحة صوفية يزيد بها طوله ويرتدى جلبابا ويحزم خصره بحبل دسّ فيه (ملعقة) على جانبه الأيمن على الطريقة التى يدس بها الجزار السكين فى الحزام .

استقبلنا بصوت جهورى شجاع أكبر من جسمه بكثير .. وحدد لكل منا المكان الذى يفرش فيه بطانيته شارحا أن لكل واحد بلاطتين ونصف عرض وسبعة بلاطات طول.. فأسرعنا لتنفيذ الأمر.. ودار بيننا مختالا محذرا منذرا أن من سيزيد على ذلك سنتيمترا واحدا ستكون ليلته سوداء (يا اولاد الكلب).. والْتفَتَ حوله ولطش أقرب المستجدين قلماً بدون سبب ؛ دفَع الباقين إلى مزيد من الهمة والنشاط ودقة الأداء.. وأعلنت لكل المستجدين مدى سطوة وسلطان المعلم زعبلة .

بعد ساعة تم لنا جميعا فرش البطاطين بالمواصفات المحددة بمساعدة النزلاء القدامى الذين استقبلونا بالترحاب.. وجلست أتعرف على أقرب جار.. وأسأله وهو يجيب.. كانت الساعة قد أوشكت على الثالثة بعد الظهر.. فعرفت منه أن الخطوة التالية.. سيحضر (المفتاحجى) ويحصّل من كل نزيل جديد علبة سجاير اسمها (المفتاح) لأنه تكرّم

علينا وفتح الزنزانة وفى تمام الرابعة سيتعطف علينا ويغلقها ويحبسنا حتى صباح اليوم التالى .. وفى المساء والزنزانة مغلقة سيقوم المعلم زعبلة بجمع علبة سجاير من كل نزيل نظير رفع البول الذى سيتخلف فى الزنزانة طوال الليل.. ممن تبول وممن لم يتبول.. وهكذا كل يوم.. إلى أن يتقرّر ترحيلنا إلى الزنازين المتخصّصة حسب نوع الجريمة بعد ثلاثة أو أربعة أيام .

ولاحظ جارى أنى شديد المتابعة لزعبلة.. وبصرى على الملعقة المعلّقة فى الحبل الذى يحزم به خاصرته .. فمال على أذنى هامسا وعينه على زعبلة مثلى فى تحسب وحذر :

- متّهم هو وعيلته بتجارة المخدرات .. هو هنا وزوجته وبنته فى سجن النساء بالقناطر الخيرية وابنه فى سجن الأحداث .. وكلهم تحت ذمة التحقيق من سنة ونص .

قلت مبتسما وما زالت عينى على الملعقة :

- تشرّفنا .. يعنى متهم مأصّل .. ذو حسب ونسب وفاميليا .

- والمعلقة دى سلاحه . . ممكن يستعملها بدل المطوة إذا تجرأ سجين وحاول عصيان أوامره أو تراخى فى الولاء والطاعة .. وهى شرف كبير وميزة لا يسمح بها الحراس إلا للقدامى العتاة المشهورين بالحزم والسيطرة و تطبيق تعليمات السجن على النزلاء داخل الزنزانة.. ومش كل النوبتجيّة فى باقى الزنازين يحصلوا على هذا الوسام الرفيع .. فزيادة على الميزات السابقة الواجب توافرها فى (حامل الملعقة) لا بدّ له من دفع رشوة للحراس من حين لآخر .

ورأى جارى على وجهى استنكارى واستهزائى لأن يدفع لهذه الملعقة رشوة .. فقال مؤكدا :

- ما تستهترش بقيمتها.. دى معلقة من ذهب.. تمكنه من الإرهاب ليدفع النزلاء الإتاوة فيذهب نصفها للحرّاس والباقى له .. ولولا كده كان إزاى يصرف على نفسه فى عنبر الملكى ويرسل مددا من رزقه كل أسبوع لأسرته المحبوسة ..

* * *

وبدأت السهرة .. فضت اللفافات وفرشت الأطعمة على البطاطين فرادى وجماعات .. وبعد الأكل بدأ عمل الشاى بالتبادل على سخان واحد كهربى من النوع الفخار الصغير له (فيشة) بجوار الباب .. كل مجموعة تفرغ الشاى فى أكواب من البلاستيك وتسلم البراد لمجموعة أخرى تنتظر الدور .

وامتدت السهرة فى مجموعات .. لكل مجموعة مشارب واحدة .. دردشة فى السياسة وموضوعات القضايا .. أو الكوتشينة أو القمار بزهر الطاولة والمكسب والخسارة سجائر .. وجمع المعلم زعبلة سجاير النوبتجية ثم انضم إلى جماعة فى آخر الزنزانة جلست متربعة فى شكل دائرة وسطهم طبق كبير من البلاستيك به أقراص مخدرة تسمى (صليبة) تولى أحدهم طحنها بملعقة زعبلة .. ثم تبادلوا الطبق بالدور .. كل منهم يفصل كمية صغيرة من المسحوق فى جانب الطبق ثم يستنشقه من خلال ورقة ملفوفة على شكل سيجارة مفرغة .. يدس طرفها فى المسحوق والطرف الآخر فى فتحة أنفه ويسحب نفسا عميقا .

* * *

ومضى الوقت .. واشتدت المناقشة بين المتحاورين وبان على وجوههم التحدى والتحفز .. واشتد الحماس بين المتقامرين وطفحت وجوههم باللهفة والشراهة .. واشتد الخدر بين الشمامين فانتفخت أوداجهم وجحظت عيونهم وتدلت ألسنتهم وسال لعابهم .. وتملكت النشوة زعبلة فنهض مترنحا وتوسط الحلقة راقصا .. والملعقة فى يده يلوح بها فى الهواء كأنها سيف شرف .. وصفقوا له .

كان عنبر الإيراد يحتوى على نزلاء من كل صنف ولون.. يساوى بين المستويات الاجتماعية وبين مختلف الجرائم.. مرتدى الطربوش والطاقية والكاب والبرنيطة والتلفيحة واللاسة وعارى الرأس.. مرتدى الجلباب والعباءة والجبة والقفطان والبدلة والتريننج سوت.

وصل إلى مسامعنا صوت جهورى يأتينا من بعيد ففوجئت بالكل ينصت .. كان صوت أحد المساجين فى زنزانة بعيدة بالدور الثانى.. عرفت فيما بعد أن اسمه (البغبغان) أطلق النزلاء عليه هذا الاسم نظرا للدور الذى يقوم به.. كان يقرأ من كشف أسماء

المتوجهين غدا إلى المحكمة أو النيابة أو مديرية الأمن أو المرحّلين إلى السجون .

ذكّر نداء البغبغان كل نزيل بمصيبته وقضيته فاهتاجت النفوس وارتعدت الأفئدة.. وبدأوا يتناوبون الذهاب إلى دورة المياه.. والتى كان فراشي لسوء الحظ بجوارها تماما.. وهى عبارة عن حوض أسمنتى مربع طول ضلعه متر بارتفاع ربع متر فى المساحة التى تدور فيها دلفة الباب ـ المغلق الآن ـ أخذ كل منهم يفتح بنطلونه أو يشلح جلبابه بغير حياء ويبول وأنا جالس على فراشي بجوار الحوض مباشرة.. واختنق هواء الزنزانة بدخان السجائر وبخار البول ورائحته .

عم جرجس إقترب من سن المعاش.. موظف بشركة مبيعات قطاع عام.. أصيب بشلل فنقلوه إلى المخزن يسجّل الصادر والوارد رأفةً بحالته.. سلّمه أولاد الحلال عشرة صناديق بها أجهزة فيديو ووقّع لهم بالاستلام.. وأثناء الجرد السنوى تبين أن بينها صندوقين محشوين بقوالب طوب بدل الفيديو .. قضى السهرة يبكى.. وحمله جاراه ثلاث مرات إلى المبولة وأسقطوا عنه بنطلونه وتولى أحدهم توجيه قضيبه إلى الحوض وصبروا عليه حتى تخلص من الحياء واستطاع أن يبول.. وكان جاراه هذان شابين مسلمين.. وكانت فى تلك الفترة أحداث التعصب الدينى فى أسيوط والمنيا على أشدها فأسرعت إلى قلمى وورقى أسجل روعة اللحظة.. وأبدأ أول سطور هذا الكتاب .

كنا حوالى أربعين شخصا فى زنزانة عرضها متران ونصف وطولها سبعة أمتار.. وبحسبة بسيطة تسمح الزنزانة لكل فرد بمساحة نصف متر عرضا ومتر وربع طولا.. بشرط أن تكون الرؤوس جهة الحائط وتتقابل السيقان.. وتتداخل فى بعضها حوالى ربع متر .. تماما وبدون مبالغة كشرائح السردين فى العلب .

نمت آخر النزلاء بعد أن سجلت هذه الصور الفريدة لقاع المجتمع وتفالته فى صحوهم ونيامهم .. تمددت على المساحة المسموح لى بها .. بطانية على البلاط وحقيبة محتوياتى تحت رأسى وتغطيت بالبطانية الثانية .. وكان اليوم حافلا وجسدى ونفسى منهكين فاستلمنى النوم سريعا

* * *

بعد استغراق فى النوم حوالى ساعتين.. قفزت جالسا مذعورا إثر ضربة شومة على ساقى .. فظننت لأول وهلة قبل أن أفيق أن حارساً قد هوى على ساقى بعصا غليظة أو شومة .. وأن من الإجراءات المعمول بها فى السجن مفاجأة المساجين بالضرب وهم نيام ولكنى وجدت الكلّ نياماً والزنزانة مغلقة.. ولمعتْ عينى عندما أدركت الحقيقة .. اكتشفتُ أن زميلى الذى يواجهنى وموقعه أمامى مباشرة بحيث تتداخل سيقاننا مسافة ربع متر.. كان أعرج.. وأنه تقلّب على جنبه وهو نائم ، ورفع ساقه الخشبية وهوى بها فوق ساقى.. فأزحتها بهدوء وعُدت للرقاد.. ولكن تكرر تقلب الرجل وهو نائم ونزلت ساقه الخشبية فوق فخذى ؛ فقفزت جالسا متألما أكثر من مرة.. آثرت بعدها الجلوس.. فتربعت وأسندت رأسى النصف نائم على كفّى ، وكوعى على فخذى.. تحسّبا وتوقعا لغدر الساق الخشبية بين لحظة وأخرى .

* * *

ساعات .. وشاهدت بشائر ضوء النهار من نافذة الزنزانة عبر القضبان الحديدية المتشابكة بالطول والعرض فى مساحة وشكل كعكة (شباك النبى) التى كنت أشتريها وأنا طفل.. ثم شمل الضوء الزنزانة وانتبهت إلى أن الجدران خالية من أية كتابة أو شعارات لأنها مغطاة بالحقائب المدلاة بالحبال المربوطة فى قضبان النافذتين .. وسقطت عينيى على النزلاء وهم نائمون فى أحضان بعضهم ..الرؤوس للحوائط والسيقان متداخلة.. منهم من اعتدى على جاره أثناء النوم وفرض لنفسه مساحة أكبر من المصرح له بها.. ومنهم من احتضن جاره بحكم عادته فى بيته عندما ينام وهو محتضن زوجته .. وذكّرنى المنظر (بالمضْيَفَة) فى منزل ريفى وقد رقد فيها الضيوف الوافدون من قرى أخرى للمشاركة فى فرح أو عزاء .

* * *

فى الثامنة تحرك المفتاح فهب الأغلبية وقوفا.. وانفتح الباب فقفز النزلاء من فوق حوض البول إلى الخارج وأطلقوا سيقانهم للريح فى تسابق إلى دورة المياه.. فبدوا كقطيع من الماشية فتح لها باب الحظيرة .

فى الفناء الخارجى مبنى مستقل مستطيل من دور واحد هو دورة المياه.. مدخل مربع يتفرّع منه جناحان.. يمين وشمال.. كلّ جناح به صفّ من المراحيض.. وقف على باب كلّ جناح (النوبتجى) يتصيّد المساجين الجدد.. وهو يميزهم بسهولة.. رافعا عقيرته بالدعاية يغريهم بالدخول.. شارحا ما لجناحه من مزايا كالباعة فى شارع الموسكى قرب المواسم والأعياد .

واصطادنى نوبتجى الجناح الأيسر.. وفرزنى من بين كل المساجين القدامى الذين دخلوا معى فى نفس اللحظة.. أشار إلى جناحه فى خيلاء وهتف وهو يبتسم :

– روشة .. حمامات لوكس .. مياه باردة وسخنة ..حمامات بخار .. ساونا .. خدمة ممتازة .

وعرفت فيما بعد أن اسمه روشة.. وهو مسجون على ذمة قضية سرقة منذ سنة ونصف.. وهو صاحب حق الامتياز على هذا الجناح.. يجمع من كل نزيل يتعامل مع جناحه علبتى سجائر كل أسبوع.. وهو يعرف زبائنه جيدا.. يمر فى الزنازين قبل الإغلاق يتفحّص النزلاء ثم يشير بمهارة لا تخطئ إلى (زبونه) الذى يحاول الإفلات منه ويقول فى ثقة ويقين :

– إنت زبونى .. هات .

ورأيته بعد ذلك مرة ممسكا بتلابيب أحد المساجين.. وتجمع النزلاء لفضّ الاشتباك وسألوه .. فقال منفعلا :

– شَخ .. ومادفعش .

والحصيلة كما عرفت تقسم بينه وبين الحراس.. وإلا سقط عنه هذا الامتياز.. لهذا يحرص كل نوبتجى على زيادة عدد زبائنه باصطياد النزلاء الجدد.. ويظل هذا حاله كل يوم .. اصطياد الجدد.. ومطاردة القدامى لتحصيل الرسم المقرر.. وتسديد الضريبة .

فى الجناح الأيسر أو جناح روشة صف من المراحيض حوالى سبعة بدون أبواب.. مجرد ستارة مشلوحة من الخيش لا تستر الجالس داخلها لو اهتزت بفعل الهواء.. ويضطر

من يقضى حاجته طوال جلوسه القرفصاء إلى ستر حاله بكفّيه.. واحد جالس يقضى حاجته وعشرة أمامه على بعد نصف متر فى الانتظار.. كأنهم لجنة تحكيم تختبره .

ولروشة صبيان يقومان على خدمة الزبائن .. أحدهما يقف أمام برميل كبير تصبّ فيه حنفيّة كبيرة ماء عاديا .. والآخر يقف أمام برميل مسلط عليه سلك كهربى لتسخين الماء.. ثم يمزج بين البرميلين بكوز ويصب فى جردل فيحمل زميله الماء المخلوط الدافئ ويمرّ به على المراحيض فيملأ الكيزان الصفيح التى تمتد بها الأذرع من تحت الستارة.. والمرحاض الأخيرمخصّص للاستحمام.. تحمل صابونتك ومنشفتك وتدخل فى عظمة العمد.. فيرحب بك الصبى ويدخل خلفك بجردل مملوء بالماء الدافئ.. ثم يتابع ملء الجردل كلما طلبت من خلال الستارة.. خدمة ممتازة فعلا.. وربما هى الشيء الوحيد الذى وجدته فى السجن يحظى بسلوكيات إنسانية ويقدم للنزيل خدمة بطريقة مريحة بغض النظر عن الستارة الخيش المشلوحة .

بعد الحمّام قلّدت الآخرين.. فعدت إلى الزنزانة وأحضرت بطانية فرشتها فى الفناء فى الشمس وجلست.. ونادى ميكروفون فى يد أحد السجناء القدامى على (العرض) أى المطلوب عرضهم على أى جهة من جهات المساءلة الذين قرأ أسماءهم البغبغان أمس.. وجلس المطلوبون القرفصاء ثم خرجوا فى طابور من الباب الحديدى الكبير إلى فناء الإدارة الخارجى ومن هناك ركبوا العربات المصفّحة إلى الجهات المختلفة .

ثم نادى الميكروفون على (الطبلية) وهى بلغة السجن استلام السجين لأوعية الطعام والملابس التى يحضرها له أهله من الخارج كل يوم وإعادة الأوعية الفارغة والملابس المتّسخة .

ثم نادى الميكروفون على (المرضى) الطالبين العرض على الطبيب وأجلسوهم القرفصاء حتى اكتملوا ثم ساقوهم إلى المستشفى .

واقتربنا من الظهر فبدأ النداء على الزيارة.. وهى نوعان.. (خاصة) وتتم فى صالة كبيرة حيث يجلس السجين مع زواره مباشرة على دكك خشبية.. وهى حق بمعدل مرة

كل أسبوعين للنزيل الذى مر على حبسه شهر.. أو باستثناء بأمر من وكيل النيابة الذى باشر التحقيق أو بكارت توصية لأحد ضباط السجن.. والزيارة الأخرى تسمى (السلك) وهى حق للمساجين مرة كل أسبوع ولكن من خلال سلك يفصل بين السجين وزواره حوالى متر بحيث لا يملك سرية الحوار كما فى الزيارة الخاصة بل يتكلم بصوت عال وعلى مسمع من الجميع.. فتجد منظرا مدهشا وشاذا بحق.. مجموعة تصل إلى خمسين مسجونا يطلون من شبكة سلك كأنهم دجاج فى قفص ويصرخون جميعا فى وقت واحد.. وفى الجهة المقابلة على بعد متر ضعف هذا العدد من الأهل والأقارب والأصدقاء يطلون من شبكة سلك أخرى ويصرخون فى وقت واحد.. وكل واحد يحاول بشطارته أن يصرخ أعلى وأن يميز من بين الأصوات المتداخلة ما يخصّه.. ولو بمتابعة الشفاه والإشارات .

ظللت على بطانيتى فى الشمس أتفرج وأرقب وأرصد.. ورأيت المؤلف فى الفناء مرتديا (ترييننج سوت) أبيض مما يرتديه الرياضيون.. ناشراً منشفة على كتفيه.. ماشيا مع آخر.. ويحرك ذراعيه فى الهواء باستعراض واستعلاء وخيلاء محاولاً لَفْت الأنظار إليه فقد كانت صورته فى جرائد الأمس.. وفجأة نادى عليه الميكروفون وأمره بالتوجه إلى مكتب السيد رئيس مباحث السجن فأخذ يحثّ الخطا فى ثقة وكبرياء كأنه يُشهد النزلاء على هذا التميّز وكأن رئيس المباحث هذا صديقه الحميم.. وبعد ربع ساعة عاد.. ولأن الأمر من قريب أو من بعيد يخصّنى.. ناديته وسألته.. فعرفت أن رئيس المباحث كان يستوضح عن موضوع الكتاب وطبيعة الاتهام.. ولما سألته (هل سأل عنى؟) أجاب فى استنكار ودهشة وضيق :

– ويسأل عنك ليه إنت ألفت حاجة!.. أنا المؤلف والجرايد كلها بتكتب عنى .

ثم انفعل وقال بغيظ :

– اللى مضايقنى إن الصحافة بتكتب عنى وعنك وعن مدبولى فى وقت واحد ويعتبرونا شركاء بالتساوى.. مع إن أنا اللى قمت بالمجهود كله.. أنا المؤلّف وأنا الناشر.. مدبولى مجرد بيّاع كتب وانت ما طبعتش.. يبقى إزاى تشاركونى فى الشهرة والمجد!

وقلت له.. وأنا أكاد ألطمه على وجهه لولا تداركى أننا فى السجن :

– لما انت بتعترف إنى ما طبعتش.. ليه اتهمتنى؟

– ح اقول لك علشـان اريّحك .. من سنة اشتكتنى زميـلة لى فى العمل بخصوص هذا الكتاب وحقّقوا معى فى النيـابة الإدارية.. ولما سألونى عن اسم المطبعة خفت يهاجموها ويصادروا الكتـاب فتوّهتهم وقلت على مطبعتك .. والموضوع حُفِظ .. فلمّا سـألونى المرة دى كان لازم أحافظ على أقوالى.. وكنت فاكر الحكاية مجرد سـؤال وتحقيق وأروّح من غير ما انت تعـرف زىّ ما حصـل أول مرة.. ما كنتش متصوّر إن بعد سنتين من توزيع الكتاب الموضوع يقلب جدّ :

– إنت اللى ألّفت الكتـاب وانت المسئول .. وحسـابـك واحـد فى الحالتين ومش ح يختلف لو كذبت وغيّرت اسم المطبعة ..

– ما قلت لك.. ما حبتش أغير أقوالى.. وكمان لو قُـلت لهم إنى طبعته فى الغربية ح يتأكد لهم سـوء نيّتى .. وح أثبت على نفسى إنى كنت مدرك من البداية إن الكتاب فيه حاجة غلط ومخالف للقانون وعلشان كده طبعته خارج القاهرة .

– طيب أنا ذنبى إيه؟

– برضه ح تستفيد من الشهرة .. الجرايد بتكتب عنك .

– لأ يا سيدى.. الجرايد بتذكر اسم الكتاب واسم المؤلف واسم الموزع لأنه مدبولى الشهير.. لكن أنا بيقولوا علىّ (صاحب المطبعة) لا ذكروا اسمى ولا اسم مطبعتى.

– على الأقلّ كل واحد عنده كتاب مخالف مش عارف يطبعه فين ح ييجى لك.

– مين قـال لك إنى ح اقبل أطبع كتاب مخالف ! .. ده أنا رفضت أجلّد لك لمجرد إنّى شكّيت.. والشهرة اللى ح تصيبنى من كتابك هى إن المباحث كل ما تضبط كتاب مخالف ح تستدعينى .. يعنى باختصار ح أبقى ملطشة للمباحث.. مع أنى مجرد بردعة على ظهر الحمار لا لها فى الطور ولا فى الطحين .

– إخرس .

- أنا ح أخـرس لغاية لما أشوف الحكاية ح تنتهى على إيـه.. لكن وحياة أبوك لازم أدفّعك الثمن غالى .. غـالى جـدا .. ولولا الجدران دى كنت فرّجتك ح اعمل فيك إيه .

وفجأة حدث هرج وارتباك فى الفناء ورأيت المساجين يجرون فى اتجاه الجناح الخلفى وسمعت صراخا وصفّارة تعوى فجرينا إلى هناك فاتضح أن أحد المساجين المحترفين صدر أمس ضده حكم بالحبس خمسة عشر سنة فضرب نفسه بموس حلاقة وسال دمه فانزعجتْ إدارة السجن وحضر الضباط والمأمور .

وفى هذا الزحام لفَت نظرى (مولانا) ذلك الرجل الوقور ذو اللحية الذى كان يرتدى الجلباب الفاخر والعباءة الصوفية والطاقية الأنيقة والمسبحة.. قد انقلب إلى خواجة.. حلق ذقنه وارتدى (بنطلون چينز وبلوفر صوف منقوش بألوان زاهية ووضع فى فمه (بايـب) وخلَتْ يده من المسبحة.. وتفحّصته قليلا فتأكدت أنه هو ، فصحت.. يا بن اللئيمة.. ! وكان بجوارى نزيل يبدو أنه أدرك دهشتى فمال على أذنى هامسا :

- ده نصاب دولى.. ودى مش أول مره يشـرّف .. أنا قابلته قبل كده فى سجن تانى .. أيامها ضبطوه لابس ملاية لفّ .

اقتادوا السجين الجريح إلى العيادة.. وهشّوا المساجين فهرع كل واحد إلى ما كان فيه.. الحمام أو غسل الثياب أو كتابة الرسائل أو تصفّح الجرائد أو الزيارة أو الكنتين.. وعدت أنا إلى البطانية وفتحت الأچندة وأخذت أسجل كل ما دار ويدور.. وكل قراءاتى للناس والأحداث والمواقف والأشياء.. وبدون سبب ولا مقدمات تذكّرت صديقى النشال الذى ذهب إلى عنبر الميرى.. وشعرت بوحشة لغيابه.. ثم جاءنى من قال :

- عملوا اللازم.. خيطوا له الجرح وربطـوه.. وبعدين أعطوه طريحة كويسة وحبسوه فى زنزانة الانفرادى .

- إنفرادى يعنى إيه ؟

- يعنى يتحبس فى أوضة متر فى متر وحده .. لا يشوف سما ولا أرض.. وبعد أربعة وعشرين ساعة يكلّم نفسه .

أذن المؤذن لصلاة الظهر فتوجّه الأغلبية إلى المسجد.. ربما بعضهم لم يقرب الصلاة خارج السجن .. ولكن هنا الأمر يختلف .. إنه المكان الوحيد الذى نذهب إليه من باب الترويح .. حتى أنى وجدت زميلنا المسيحى فى المسجد ولم يثُر ذلك أى دهشة لدى أىّ سجين .

اشتدّ بى الجوع ونفدت سجائرى.. وأنا لا أدخن ولكن السجائر هى العملة الوحيدة المسموح بها هنا رسميا وشعبيا.. فبالسجائر تستطيع أن تشترى أى شىء.. فهنا مساجين قدامى يفرشون فى الفناء الداخلى للعنبر بضائع ترد لهم مع الطبلية .. يعرضونها بطريقة الموسكى والعتبة وسوق الأزبكية.. بكر خيط وإبر وأمشاط وبلوك نوت وأظرف وجوابات وأقلام جافة وعلب فول وبقول وعصائر فواكه.. وكل شىء بالسجائر .

وحتى لا يستبدّ بى الجوع أخرجت من جيبى ورقة بها آية قرآنية كان قد دفع بها إلىّ أخى وأنا فى الحجز بقسم الشرطة ، وأوصانى أن أقرأها كلما اشتدّ بى كرب.. أخذت أقرأها وأذنى تتابع الميكروفون وهو ينادى الأسماء للزيارة .

* * *

زارنى على البطانية صعيدى زميل لى فى الزنزانة ، وطلب أن يملينى رسالة فجهزت الورق والقلم واستمعت له على أمل أن الكتابة قد تلهينى وتسكت نداء بطنى.. وعرفت من فحوى الرسالة قصته ..

إنه بائع (كرشة) فى كلوت بك.. وينافسه على نفس الناصية بائع (كشرى) فأرسل الأخير من دس له ضمن البضاعة قطة مذبوحة وأبلغ الشرطة فتم ضبطه.. والغريب أن الرسالة كانت مرسلة منه إلى غريمه بائع الكشرى يعرفه أنه توصل للحقيقة وتأكد أنه الذى دبر له هذا الاتهام.. ومع هذا يرجوه أن يوكل له محاميا وأن يرسل له بطانيتين وبعض الملابس الداخلية.. وذكره أن كليهما صعيدى ومن بلدة واحدة وغريبان عن القاهرة وليس لأى منهما فى النهاية سوى الآخر.. فاحترت فى نوازع النفس البشرية! .

* * *

صفّر الجندى إيذانا بالعودة إلى الزنازين فلملمت البطانية وتوجّهت إلى دورة المياه فشربت أكثر مما ينبغى لأعوّض بالماء فراغ بطنى ونداء الطعام . وقبل دخولى الزنزانة رأيت طابور المستجدين.. تماما كالحال الذى كنا عليه بالأمس.. الفزع والتطيّر الذى يسبغه المدعو برعى على وجوه ونفوس المستجدين.. وقفت أتفرج عليهم كطالب قديم يتفرج على الطلبة الجدد وكأنى أتفـرّج على نفسى بالأمس .. زجّوا بهم فى زنزانة الإيراد.. ولقد شغلنى الاسم بعض الوقت .. كان المفـروض تسميتها زنـزانة (الواردين) أو الوافدين.. ولكن الإيراد معناها أننا تحوّلنا فى نظر المسئولين من بشر إلى شىء آخر.. عملة أو حبوب أو أى سلع تورّد..

ما علينا .. اشتد الزحام واشتد التخبط والدفع بـالأيـدى والأقـــدام.. فقد ارتفع العدد إلى سبعة وخمسين.. ووقف زعبلة بعوده القمىء الضئيل وثقته بنفسه وصوته الجهورى الذى يشبه صوت فتوّة (ساعة لقلبك).. حسبها حسبة الخبير وقال :

– كلّ واحـد بلاطـتـين بس .. إللى ح ياخد سـنتى زيـادة ح آخـد حبابى عينيه . وح أبيّته واقف . (يا اولاد الكلب) .

فأسرعنا ننفّذ الأمر.. وقبل أن تغلق الزنزانة فى الرابعة صرخ زعبلة :

– اللمبة الكهربا اتحرقت ودى لمبة جديدة.. ما هانش علىّ تباتوا للصبح فى الظلام.. كل ثلاثة يطلعوا علبة سجاير .

وتطلّعنا جميعا إلى السقف.. إنها نفس اللمبة القديمة وعليها تراب عمره شهور.. ونظر بعضنا إلى بعض فى استنكلر.. ولكن عندما لوّح زعبلة بملعقته ولطش أقرب مستجدّ قلماً بدون سبب.. أسرعنا ندفع المطلوب .

* * *

فى وسط هذه المحنة.. محنة الزحام التى فاقت أى زحام فى أى أتوبيس فى أى ساعة من ساعات النهار سمعنا صراخا مصحوبا بلهجة صعيدية.. وتتبّعت الصوت من بين الرؤوس إلى أن تبيّنت حقيقة الأمر.. صعيدى ممن وفدوا معنا كان يحمل (مخلة) من

القماش.. لفت نظرى أمس أنه يقفلها بقفل كبير حديد ضخم مما يستعمل فى أبواب المحلات لا يقلّ وزنه عن كيلو.. وكان يجلس طوال السهرة فوق المخلة دائم القلق ، ومن حين لآخر يمدّ يده وتتحسس أصابعه القفل.. وعندما تمدّد لينام أخذها فى حضنه وأخفى القفل فى صدره بحيث يشعر لو امتدت إليه يد.. وعلى ما يبدو أن ضخامة القفل بدلا من أن تكون مصدر أمن للمخلة أوحت إلى اللصوص بأن فى المخلة كنزا يستحق كل هذا الحرص.. وفى النهار ظلّ الصعيدى ملازما للمخلة حارماً نفسه من الخروج إلى الفناء أو المسجد.. ولكن قبل موعد الإغلاق بقليل أدرك أنه لن يستطيع قضاء الليل كله دون التوجّه إلى دورة المياه.. وفى اللحظات القليلة التى تسلل فيها إلى هناك.. بَقَرَ أحد الزملاء اللصوص بطن المخلة بموس حلاقة وأخرج أحشاءها وسرق أهمّ ما فيها دون المساس بالقفل حرصا على مشاعر الزمالة.. وشاهدت الصعيدى وهو يتفحّص القفل مدهوشا وكأنه لا يصدّق.. فلم أتمالك نفسى وانفجرت ضاحكا حتى دمعت عيناى.. ولم تتحمل بطنى الخاوية قسوة الضحك فأصابنى شىء من المغص .

* * *

لم يسمح العدد لنا بالتمدد فجلس كل منا فوق أمتعته كأننا فى عربة قطار درجة ثالثة .. وتعارف الزملاء القدامى والجدد وبدأت تتشكل الجماعات والشلل وانخرطت كل جماعة فى هوايتها.. وهناك فى آخر الزنزانة حيث يوجد عرين الأسد تجمعت الشلة ودار بينهم الطبق والماسورة والشمّ .

وفى العشاء قرأ البغبغان من زنزانته كشف عرض باكر داعيا لهم أن (يروّحوا مّا يرجعوا) وردّدتْ خلفه كل الزنازين الدعاء.. وبعد منتصف الليل.. ومع اختناق الزنزانة بدخان السجائر وبخار البول فى الحوض الذى امتلأ اليوم أسرع من الأمس بحكم زيادة العدد.. غفا الأغلبية وهم جلوس.. منهم من جلس القرفصاء ووضع رأسه بين ركبتيه.. ومن أسندها إلى الحائط.. ومن أسندها إلى كتف جاره.. ومن فرض نفسه على من حوله فألقى بجسده كيفما اتفق على حساب الآخرين.. وجلست أنا القرفصاء ووضعت

البلوك نوت على ركبتى وبدأت أكتب.. وبقينا على هذه الحال بين الصحو والمنام إلى أن شاهدت من نافذة الزنزانة بشائر ضوء النهار .

* * *

فتحت الزنازين فى الثامنة كالعادة.. وتقافزنا من فوق حوض البول كالعادة أيضا إلى دورة المياه.. ثم طابور العرض والعيادة والطبلية والزيارة.. ثم طابور الخدمات.. أى المحبوسين فى عنبر الميرى الذين يفِدون كلّ صباح إلى عنبر الملكى لرفع البول والمخلفات ومسح الزنازين وكنس الفناء ، مقابل حصولهم على أجور من الحصيلة التى تجمع من النزلاء فى كل زنزانة وتقسم بنسب بينهم وبين الحراس والنوبتجى .

بعد ذلك قضاء المصالح.. الكنتين والحمام وغسل الثياب والحلاقة والمكوجى والخياط وتبادل الزيارات.. وفى الضحى نادى الميكروفون أن البك المأمور متواجد فى مكتب الضابط النوبتجى.. وكل من له شكوى عليه الوقوف فى الطابور.. واقتربت من الطابور أتابعه كجزء من السياسة التى انتهجتها فى المشاهدة والتسجيل.. واستقبلهم المأمور واحداً بعد الآخر.. واستجاب للشكاوى والالتماسات الجادة.. فبدأت أطمئن أننا لسنا وحدنا فى غابة برعى أو زعبلة كما توهّمت .

فجأة انتشر فى الفناء خبر كانتشار النار فى الهشيم.. وكان له وقع قوى على الجميع (عزل زعبلة) وزعبلة ليس معروفا لسكان زنزانة الإيراد فقط بل هو معروف لكل السجن.. فكلهم مرّوا من تحت يد برعى وعود الملوخية والشلاليت وزعبلة وتهديد ملعقته واصطلاحه الشهير (يا اولاد الكلب).

وصارت قصة زعبلة تحكى فى كل الزنازين.. أوحى أحد النزلاء إلى الصعيدى الذى بُقِرت بطن مخلته أن الفاعل هو زعبلة نفسه.. وحرّضه على أن يقف فى الطابور ويشكوه للمأمور.. واندفع الصعيدى دون تروٍّ ودخل.. ويبدو أن لهجته وسذاجته أوحت للمأمور بصدق روايته فاستدعى زعبلة وأمره بردّ (خراطيش) السجائر الأربعة التى سرقت من المخلة وذلك خلال أربعة وعشرين ساعة وإلا أودعه سجن التأديب الإنفرادى.. كما

أمر بعزله من النوبتجية ونقله كفرد عادى إلى زنزانة المخدرات.. فبفرض أنه ليس السارق فهو على الأقل المسئول عن الأمن داخل الزنزانة .

دارت الأيام ودارت الدنيا بالإمبراطور زعبلة.. وتمنيت لو أن الأيام تدور بالقيصر برعى أيضا.. وكنا فى أعقاب إعفاء وزير الداخلية من منصبه.. فتُبودلت النوادر والنكات والقفشات.. ودار مسجون فى فناء السجن ينادى :

- أخبار.. أهرام.. جمهورية.. عزل زكى بدر يا جدع.. عزل زعبلّة يا جدع .

لم تمضِ ساعتان وكان زعبلة يضرب أخماساً فى أسداس.. ربما كان بريئا من تهمة السرقة.. وهذا فى رأيى هو الأرجح.. ولكن جرائمه كانت كثيرة بحيث لم يأسف أحد عندما شاهدناه حاملا بطاطينه يعرضها للبيع ليجمع السجائر.. وسارت مظاهرة فى الفناء تهتف على مرأى ومسمع منه بعد أن فقد كل سلطاته (زعبلة باع فرشه يا اولاد شوفوا طوله وعرضه.. يا اولاد).. ثم (شدوا السلخة) على الصعيدى فهتفوا (سرقوا الصندوق يا صعيدى لكن مفتاحه معاى).. ورغم كل شىء تألمت لحال زعبلة.. والشىء العجيب الذى يدعو للتأمل أنى رأيت زعبلة أقل طولا وأقل عرضا، انكمش فعلاً .. ماذا أقول؟ هل أقول (إن لكل إنسان بعدين.. بعد وهو منتشى بالأحلام والآمال والنعيم والسلطة، وبعد آخر وهو مسحوق معدوم يائس بائس ضعيف لا حول له ولا قوة).

* * *

فرشت بطانيتى فى الشمس وجلست.. وحاولت أن أنام عوضا عن سهرى طوال الليل ولكن كيف يمكن لجائع أن ينام.. اشتد بى الجوع ولم ينفع مع نداء معدتى الخاوية منذ يومين مجرد شرب الماء.. وفكّرت فى المؤلف.. لقد زاره أهله أمس وعاد محمّلا بحقيبة ضخمة مملوءة بالطعام .. إنه الوحيد الذى أعرفه هنا.. وهو الوحيد الذى يعرف أننى برىء وأنه سبب حبسى.. فلا أقل من أن يتكفل بى إلى حين أن تعرف أسرتى كيف تأتى لزيارتى.. ألم يطلب بائع الكرشة من بائع الكشرى أن يتكفّل به.. أسرة المؤلف استطاعت بكارت توصية أن تزوره ثانى يوم.. أما أسرتى الصغيرة المكونة من

زوجة لا تعرف سوى شئون البيت ، وأربعة أولاد أكبرهم بنتان فى الجامعة ، فمن المؤكد أنهم تحرّجوا أن يبلغوا قريبنا ضابط الشرطة أننى محبوس وليس أمامهم سوى الطريق الشرعي وهو طلب إذن بالزيارة من وكيل النيابة.. وإلى أن يحصلوا عليه بواسطة المحامى سأكون أنا هنا قد هلكت جوعا .

ورغم الحوار الساخن الذى دار بيننا تنازلت وذهبت إليه فى الزنزانة فلم أجده.. فجلست على فراشه وبجوارى حقيبة طعامه.. وفكّرت أن أفتحها وأسرق منها أى طعام أسدّ به رمقى وأُسكت صراخ معدتى.. فليس هذا حراما فأنا هنا باتهام ظالم منه.. ولا خوف من اعتراض أحد، فالكل يعرف أننا زميلان فى قضية واحدة.. وينادوننا (المألفاتية) وفتحت سوستة الحقيبة.. وكان أول ما رأيت الكراسة التى يدون فيها مذكراته.. فتملكنى الفضول وتغلّبَ على الجوع فسحبتها وتصفّحتها وعينى على باب الزنزانة خشية أن يفاجئنى.. وهالنى ما قرأت.. اعتراف صريح بأنه طبع الكتاب فى الغربية وفى عدة مطابع وأنه زجّ باسمى فى التحقيق ليضلل المسئولين عن مكان نسخ الكتاب خوفا من مصادرتها.. وفكرت أن أنزع الصفحة التى فيها اعترافه بدليل براءتى.. ولكنى لا أعرف للآن ما الذى دفعنى إلى إعادتها وغلق الحقيبة كما كانت دون أن تمتد يدى إلى الطعام.. هل لأن اعترافه صدّ نفسى عن طعامه؟.. هل هى الأمانة؟.. ولكن كيف يتعامل مظلوم مع ظالمه وهنا فى السجن بالشرف؟.. كيف أحرم نفسى بنفسى من ورقة بخط يده فيها دليل براءتى؟.. ربما عفت نفسى أن أقدم للمحكمة ورقة مسروقة.. وربما خشيت أن يشكونى لإدارة السجن فلا أعرف أين أخفى الورقة.. والخلاصة أننى أعدت الحقيبة إلى مكانها وغادرت الزنزانة وأنا فى أشد الجوع .

* * *

توجّهت إلى دورة المياه لأملأ بطنى بالماء.. فوجدت سجينا من مساجين الميرى الذين يفدون كل صباح للخدمة جالسا بجوار الحائط يأكل من حلة مملوءة أرزا.. وقدّرت بنظرة سريعة أنه مستحيل أن يأكل كل هذه الكمية.. بالتأكيد سوف يشبع ثم يلقى بالباقى ليغسل الحلة ويعيدها إلى صاحبها.. فوقفت على مقربة منه منتظرا عندما يشبع

ويقوم لإلقاء الباقى فى (برميل) الزبالة القريب منه فاستسمحه وآكل أنا الباقى.. وظللت أرقبه وأتابع أصابعه وهو يدسّها فى الإناء ويرفعها إلى فمه.. وفى لحظة لم أتوقعها لأن يده كانت فى طريقها إلى فمه كفأ الإناء بيده اليسرى على الأرض.. فاندفعت إليه.. ولكن قبل أن أصبح أمامه كان سهم الله قد نفذ وأصبح الأرز فى الوحل.. فعدت إلى بطانيتى حزينا مهموما .

* * *

انتهى موعد الطبلية والزيارة .. وفقدت الأمل فى وصول أى مدد .. وشعرت أنه من المستحيل أن أدخل الزنزانة بعد ساعة لأبيت حتى باكر وأنا على هذه الحال.. لابد من حل.. لابد من حل.. وفجأة مرّ بى شـــيخ عائدا من الزيارة يحمل كيساً كبيرا من البلاستيك الشفاف يكشف عما يحتويه.. ودون تـــردد.. أو دون وعى.. أو دون إرادة.. نهضت واقتربت منه هامسا.. تماما كما يفعل المتسولون وبنفس التذلل :

– من فضلك.. ممكن رغيف؟

وأسرعت يد الرجل إلى الكيس وأخرج رغيفين دفع بهما فى صدرى وعادت يده بسرعة لتخرج أطعمة أخرى ولكنى عاجلته وأعدت إلى الكيس رغيفا.. وابتعدت شـاكرا.. فلاحقَنى وبيده بعض الطعام وبرتقالة.. ولكنى فررت منه وأنا أكرر الشكر.. فررت إلى هناك.. بعيدا فى آخر الفناء.. فررت منه ومن الناس ومن نفسى.. ودسست الرغيف فى جيب البيچامة وقطعته بأصابعى وعينى تراقب عن بعد فى خجل وحرج.. وأخذت أسحب لقمة بعد الأخرى بسرعة النشال وأخفيها فى فمي وألوكها على استحياء.. وتذكرت بيتى وزوجتى وأولادى.. وانهمرت دموعى وشعرت بالمحنة والقهر.. وابتلت اللقيمات فى طريقها إلى فمى فغمست خبزى بدموعى.. وقلت وأنا أشعر لأول مرة بمحنتى.. هذا قضاء الله ولكن فى قضائه رحمة.. لم يرضَ لى أن أسرق ورضِىَ لى أن أتسوّل .

* * *

رغم أنى أكلت الرغيف مغموسا بدموع الذل والقهر والمحنة وأنا أراقب الناس فى جزع وخوف كأنى سرقته.. رغم كل هذا كان ألذّ رغيف فى كلّ عمرى.. يكفى أنى ضمنت به أن أعيش للغد وفى الغد يفرجها الله.. لو تكررت الظروف سوف أتسول.. لم يعد الأمر صعبا.. إنها لحظة حرجة ولكنها ضمنت لى العيش أربعة وعشرين ساعة.. فأنا لم أتسول رغيفا إنما تسولت عمرى.. ولابد أن أعيش.. لابد أن أعيش .

جلست على البطانية فى الفناء قرير العين.. وتذكرت كيف كنت أثور على الطعام وأغضب إذا تصادف أن كان قليل أو كثير الملح أو لا يوجد بجانبه من المخللات والسلطات ما يفتح شهيتى.. وبعد الطعام الفاكهة والحلوى ثم المثلجات ثم الشاى.. هل تأتى لحظة على الإنسان يصبح فيها كل ما يبتغيه وكل ما يحلم بـه وكل ما يسعده مجرد رغيف حاف.. فعلا علم الحساب أخطأ عندما قال إن واحد زائد واحد يساوى اثنين.. قد يساوى ثلاثة أو خمسة أو عشرة أو صفرا .. والمسألة نسبية .

* * *

الصعيدى الذى كتبت له الرسالة.. زارنى ومعه آخران.. جلسوا وطلبوا منى أن أكتب لكل منهم رسالة.. وكنت فى حالة رضا وانسجام بعد الرغيف الشهى فرحّبت بهم.. وبعد أن انتهيت من الرسالة الأولى فوجئت بصاحبها يتعامل معى بلغة السجن ويدسّ فى جيب بيچامتى علبة سجاير.. ونظرت إليه مستنكرا ، فأمسك بكتفى مهوّنا وشاكرا ونهض.. وحذا حذوه الثانى والثالث .

بعد مغادرتهم تفحصت العلب الثلاثة.. تفحصت ثروتى.. ضاقت ثم ضاقت ثم فُرِجتْ وكنت أظنّها لا تُفرَج.. واحتوانى الموقف فى أسى لا يخلو من رضا.. وقلت لنفسى (كاتب عمومى أو عرضحالجى لا يهم.. فى الأرياف الحلاقة بكوز ذرة أو كوز بطاطة) وهززت كتفى مهوّنا الأمر (إيه المانع.. عندما تكون فى روما افعل ما يفعله الرومان) .

بعد صلاة العصر صفر الحراس للتوجه إلى الزنازين .. وحضر طابور المستجدين وزجوا بهم زجا ودفعوا بهم دفعا بالأذرع والأقدام .. واستطاع المفتاحجى أن يعد الموجودين

بصعوبة ويتأكد من تمام العدد ويدفع المحشورين بالباب ويغلق الزنزانة.. شعرت أن الليلة سوف تكون سوداء.. القدامى جالسون القرفصاء على أمتعتهم.. والجدد واقفون كأنهم بهائم مذعورة هائمة .. حوالى ثمانين رجلا فى زنزانة مترين فى سبعة .

المعلم (موس) هو النوبتجى الجديد.. باعتباره أقدم الموجودين بعد الراحل زعبلة وكان يعمل صبيا له.. يرتدى جلبابا ويلفّ حول رقبته تلفيحة.. ولكن بعد تنصيبه رفع التلفيحة عن رقبته ولفها حول رأسه لتصبح (لاسة) أى لتصبح تاج الجزيرة.. أو تاج الزنزانة ورمز السلطة .

وضع يده اليمنى فى فتحة صدر الجلباب ويده اليسرى فى خاصرته وزعق بالتعليمات الجديدة.. فشعرت نحوه بشىء من الاستنكار والاستخفاف.. ربما لأنى رأيته وهو مجرد صبى لزعبلة.. وربما لأنه لا يحمل ملعقة.. وربما لأن رهبة المستجد قد ذهبت عنى.. أعلن نصيب كل نزيل فى الأرض ثم صرخ مرة أخرى :

– اللمبة اتحرقت ودى لمبة جديدة.. كل ثلاثة علبة سجائر أو أطفى النور .

وتطلعنا إلى اللمبة المحمّلة بالتراب فى استنكار.. ففاجأ أحد المستجدين بصفعة مدوية بلا سبب فاستقرّ مقامُه فى نفوسنا وأسرعنا نلبى المطلوب.. وبعد ساعة كان يحتل مجلس زعبلة فى حلقة الشمّ وحوله بعض المنافقين يمتدحون الحاكم الجديد ويذمّون الحاكم القديم.. وهو يستقبل مديحهم بكبرياء مكشوف وتواضع مزيف سخيف.. وسَرتْ إشاعة بيننا أنه الذى حرّض الصعيدى على أن يشكو زعبلة.. فجلست أتأمل الصورة وقلت.. (آه يا بلد ..).

* * *

لم تمضِ ساعتان على غلْق الزنزانة، واحتاج عم جرجس قضاء حاجته.. فحمله الشابان وأجلساه على حافة الحوض وسانداه كطفل.. وظلّ جالساً عاجزا عن قضاء حاجته من شدة الحرج حوالى نصف ساعة.. ونحن جميعا نرقبه.. وننظر تحته.. ونشجعه.. وانبرت التعليقات من هنا ومن هناك.. وتبادلوا النكات والقفشات.. وأغلبهم

أحضروا معهم (المزاج) من أفيون أو حشيش أو برشام.. حتى هواة الخمر لم يعجزوا.. يصل لهم مع الطعام عن طريق الطبلية نوع معين من دواء الكحّة المفروض أن يتناول منه المريض ملعقة واحدة ولكن السجين يشرب الزجاجة كلها دفعة واحدة فتقوم مقام الخمر ويسكر.. انسجم أحد النزلاء وصاح يترنم بموّال محمد عبد الوهاب (فى الليل لما خلى) ولكنه غناه (فى الليل لما خرِى) وهلل الجميع بالإعجاب وهتفوا.. أعِد.. أعِد .

وأخيرا استطاع عم جرجس أن يتخلّص من خجله ويقضى حاجته فهللنا وصفقنا وصفّرنا وباركنا لبعضنا.. تماما كما يحدث عندما يحرز فريق الكرة هدفا .

ثم شارك فى تخفيف متاعب الزحام أخرس خفيف الظلّ.. أخذ يقلّد الديكتاتور برعى واستقباله للجدد.. ثم أخذ يقلد امرأة ليل.. ويشلح جلبابه القذر عن ساقه المعوجّة القبيحة المشعرة المشوّهة فى إغراء النساء.. والكل يصيح بالنشوة والإعجاب والانبهار كأننا فعلا نرى امرأة جميلة تُعرّى فخذها.. وفجأة يغطى فخذه فى دلال فنصرخ ملتاعين ملحّين.. ونستحلفه فيعود إلى شلح الجلباب تدريجيا.. وكلما شلح مساحة صِحْنا مهللين .. ويمشط شعر رأسه بأصابعه رغم أنه أصلع.. ويهذب الجلباب على ثدييه بين آهات الاستحسان والتمتّع بشىء غير موجود أصلاً.. عندما نكون فى حاجة إلى الضحك نضحك على النكتة السخيفة والنكتة التى سمعناها من قبل.. بل ونضحك على أنفسنا إذا دعت الحاجة..

* * *

بعد صلاة العشاء قرأ البغبغان من زنزانته أسماء طابور عرض باكر.. ودعا لهم كالعادة (يروحوا ما يرجعوا) وردد النزلاء خلفه فى كل الزنازين ( آمين) .

تكفّل النزلاء الذين كتبت لهم رسائل بعمل الدعاية لى.. وانتشر بين النزلاء أننى أجيد كتابة الرسائل و(تحبيشها) أى وضع التوابل التى تجعلها لذيذة المذاق.. لأنى كنت لو طلب منى صاحب الرسالة أن أرسل السلام لخالته زدت أنا فأرسلته إلى خالته وأولاد خالته وزوج خالته وجيران خالته.. ولو طلب أن أرسل لأمه أو لزوجته ألف سلام أرسلت

أنا لها مليون وهكذا.. فأشاعوا أنى كريم و(أتوصى) بالزبون.. فضلا عن أنى لا أحدّد تسعيرة ولا أشترط أى أجر وأقبل ما يدفعه الزبون أيا كان .. يدسه فى جيبى فأشكره دون أن أنظر إليه.. على طريقة الحلاقين .

بعد العشاء تجمع حولى عدد لا بأس به من الزبائن فأخرجت بضاعتى.. البلوك نوت والقلم وأخذت أكتب ما يملى على وأزيد التوابل ما أمكن.. وكـل المنتظرين دورهم حولى يمصمصون شفاههم استحسانا وإعجاباً وينظرون إلىّ بانبهار.. وكلما انتهيت من رسالة وضع صاحبها (ما فيه القسمة) فى جيب البيچامة أو فى حجرى.. خيارة.. برتقالة.. بيضة.. رغيف .

هنا الكل يرتزق.. جندى من حراس الليل يحمل راديو ترانزيستور صغير.. وجهه إلى داخل الزنزانة من خلال شرّاعة الباب لمدة خمسة دقائق استمعنا خلالها لأغنية وجمعنا له من عشـّاق الطرب علبة سجاير.. وكلما حاول الانصراف اسـتحلفناه خمسة دقائق أخرى.. وكله بحسابه.. وكانت هذه الدقائق من أمتع اللحظات ولا يشعر بقيمتها إلا المحبوس الذى لا يصـله مـن الدنيا الخارجيّـة أى صوت.. فأيقنت أن المسألة نسبية.. فأم كلثوم قد لا يكون لها أى شأن فى خمّارة كل من فيها سكارى لاهـون.. أو فى وكر قمار كل من فيه متوتر مشـدود الأعصاب.. ولكن مطرب درجة ثالثة هنا هو محمد عبد الوهاب .. وتذكرت يوم عشت فى مخبأ تحت الأرض فى جبهة القتال لمدة شهر وأنا ضابط فى الجيش أستمع على (بيك أب) يعمل بالبطارية لأسطوانة واحدة مشروخة لم يكن عندى غيرها.. فكانت فى هذه الأيام هى كل سلواى .

نام أغلب النزلاء فى أوضـاع مضحكة مبكية.. لاسيمـا الجدد الذين لم يترك لهم القدامى أية مساحة.. وكنت قد جمعتُ صحف اليوم ممن وردت لهم مع (الطبلية) فاستأنفت سهرتى أتصفّحها على رائحة دخان السجائر وبخار البول.. وفجأة ضحكت.. وعرفت سرّ التجهم والغضب الذى لازم المؤلف طوال اليوم.. وجدت فى الجريدة مقالا يتجه بالقضية اتجاها آخر.. يقول إن مدبولى.. هذا الناشر الثرى لم يقنع بالملايين التى

يربحها من بيع الكتب فى مصر والدول العربية، فاستأجر مؤلفا درجة ثالثة مغمورا ليؤلف له كتـابا يلقى رواجـاً ويحقق أرباحا طائلة.. على غرار كتاب سلمان رشدى آيـات شـيطانيـة .

إذن هذا سر الانفعال الذى بدا واضحا على المؤلف طوال السهرة.. كان يستكثر علينا أنا ومدبولى أن نشاركه (شرف) الاتهام بهذه الجريمة.. فجاء من يتهمه بأنه مجرد كاتب درجة ثالثة مغمور مأجور لا وزن له فى القضية.. وعدت أقرأ الخبر وأضحك.. ونظرت إليه وهمست دون أن يسمعنى (ماتزعلش.. أنا كمان أجرونى بخيارة).. وأخيرا تمددت أو تكورت أو تقوقعت كدودة البلهارسيا فى المساحة الضئيلة التى أمر بها النوبتجي الجـديد.. وكان موقعى بحكم زيادة العدد قد ابتعد عن حوض البول وأبو رجل خشب فحمدت اللـه.. ورغم ذلك لم أنم ما بقى من الليل لأنى صحوت ثلاث مرّات مـفزوعا.. بعدها لم يعادونى النوم حتى الصباح .

المرة الأولى صحوت مفزوعا على أصوات صاخبة تصرخ.. (اقتلوه.. اقتلوه).. فانتفضت مرتعبا متوقعا أنى سأرى جريمة قتل.. وبعد أن تنبهت وأفقت تبينت أن مجموعة من الصعايدة منكفئون على الأرض يطاردون تحت الأفرشة والبطاطين والحقائب .. صرصاراً.

والمرة الثانية صحوت مفزوعا على إحساس بآلة حادة كالسكين مزقت بنطلون البيجامة ومزقت من تحتـه جلد سـاقى.. وتبينت أن الزميـل الذى أخذ مكانه أمامى بـدلا من أبو رجل خشب.. لأصابع قدميه أظافر طويلة حادة لم يقصها طوال حياته.. فقضيت بعد ذلك أغلب الليل منكمشا بساقى.. متوترا متهيبا أن ينالنى الظفر مرة أخرى .

والمرة الثالثة صحوت على صوت أمطار.. وفتحت عينى فتبينت أن الحقيبة المعلقة فوق رأسى تتساقط منها قطرات من الماء فوق وجهى مباشرة.. وسقطت نقطة فى فمى فتذوقتها فاكتشفت أن فى الحقيبة (برطمان)طرشى انقلب على جنبه وأخذ الماء ينساب منه قطرة قطرة.. ولم تكن المساحة تسمح بأى حال من الأحوال أن أبتعد برأسى عن

مركز تجمع ماء الطرشى وسقوطه قطرات.. ولم أجد مفرّاً من أن أرقد وعينى مفتوحة ترقب الحقيبة.. وأنتظر حتى تتجمع النقطة وتسقط فأفتح فمى لاستقبالها.. وظللت هكذا حوالى ساعة حتى امتلأت بطنى بماء الطرشى فلم أجد بدا من النهوض والجلوس القرفصاء مباعدا بين ساقى مسافة تسمح بسقوط النقط على الفراش.. ورغم المحنة والوقت العصيب فالشهادة لله.. كانت قطرات ماء الطرشى لذيذة .

هكذا استقبلت كل المواقف.. السهل والصعب.. المريح والمؤلم.. الإنسانى والمهين.. المحترم والحقير.. بالاستسلام الكامل والرضا.. بل أكثر من هذا استقبلت كل شىء بمتعة المغامرة والتجربة التى تفيد وتعلم.. واستطعت مع كل لحظة ومن كل موقف أن أستخلص الدرس وأسجل على الورق .

فتحت الأبواب فانطلقنا إلى دورة الميـاه.. كل منا يحمل آلام الانتظار والصبر ساعة أو ساعتين على الأقل.. وكالعادة طوابير العرض وعمال الترحيلة والطبلية والعيادة والزيارة والشكاوى.. وشىء من كل هذا لا شأن لى بـه للآن.. ففرشت بطانيتى فى الفناء.. وهى (دكانى) الذى أبيع فيه بضاعتى.. ووضعت أمامى (عدة) الشغل فى عرض متناسق لأغرى الزبائن.. البلوك نوت والقلم وكذا أجندة المذكرات لأدوّن فى الحال أى فكرة أو لمحة أو ملحوظة أو خاطرة.. وجلست أنتظر الزبائن كحلاقى الأرصفة فى الأحياء الفقيرة والأقاليم .

وتملكنى فجأة قلق رهيب.. أربعة أيام مرت ولم تسأل عنى أسرتى.. نعم أنا قلت لابنى فى الحجز ألا يتصلوا بى قبل أن أرسل لهم رسالة بنظام الزيارة.. ولكن ألا تكفى أربعة أيام ليقلقوا ويضربوا بتعليماتى ويبحثوا عنى.. أقل ما يجب أن يلجأوا لضابط الشرطة قريبنا .. هل وصـل بهم الخـوف من عار حبسى إلى حد دفنى هنا (ولا من شـاف ولا من درى) .

وكنت قبل أن أختلف مع المؤلف قد أعطيته رقم تليفون بيتى ليعطيه لأحد زواره الكثيرين.. ولكن من الواضح أن خلافى معه جعله يمتنع عن تقديم هذه الخدمة

البسيطة الإنسانية بصرف النظر عن أى خلاف.. وتحجر قلبه ونسى أنى هنا بسبب افتراء منه فلا أقل من أن يخفف من غضبى ومن ذنبه .

وانتابتنى الوساوس والظنون وذهبت بى بعيدا وخمنّت أن تكون إحدى الجماعات المتطرفة قد هاجمت مطبعتى وربما أشعلت فيها النيران وربما آذوا أسرتى.. فليس من المعقول أن يتراخوا فى زيارتى ويتركونى لعذاب الظنون والتسول أربعة أيام .

* * *

غدا عيد الربيع وعيد الأم.. وكان لى فى هذا اليوم عادات.. شراء الهدايا لأمى وحماتى وزوجتى.. وسهرة عائلية تجمع شمل الأسرة والأنساب مع عشاء فوق العادة وحلوى متنوعة.. وتذكرت أولادى وهم يتعاونون فى تزيين الشقة بالبالونات والأوراق الملونة والزهور والشموع .

وذهبت رأسى إلى أفكار كثيرة.. فرغم أنى برىء بدأت أخاف وأعتقد أن الحكم قد يكون جزافيا دون تروٍّ أو قراءة وأنى ذاهب إلى ما وراء الشمس .

كان بعض زملائى المقربين فى الزنزانة قد تنبهوا إلى أن أحدا لم يزرنى.. فكانوا كلما مرّ أحدهم أمام بطانيتى فى الفناء يرفع يده بالتحية سائلا عن أخبار الزيارة.. فأمط شفتى فى استياء.. وفجأة وجدت خمسة من شباب الزنزانة يتسابقون نحوى ليحظى أسبقهم بإبلاغى أن لى زيارة .. فقمت واقفا كالمأخوذ واندفعت مهرولا فنبهونى أنى حافٍ فعدت ودسست قدمى فى الشبشب وانطلقت.. ولاحقنى أحدهم يلفت نظرى إلى أنى أرتدى البيچامة وذقنى ليست حليقة فأشحت له مهوّنا وجريت كطفل يبحث عن أمه .

* * *

عانقت أولادى ثم زوجتى.. التى أطبقت بعد العناق على كفى بكفيها هامسة دامعة.. (ماعرفناش قيمتك إلا بعد ما فارقتنا ) فعلقت ضاحكا.. هكذا كل شيء.. لا نعرف قيمته إلا بعد أن نفقده.. ثم صافحت محاميا قدموه لى.. استطاع بوجهه البشوش المتحمس وكلماته القليلة المعبرة الواثقة المتفائلة أن يزيل الكثير من قلقى على موقفى فى القضية .. ثم تركنى لأسرتى وانتحى جانباً .

ظلمتهم.. ظننتهم نسونى أو أهملونى فتأكد لى أنهم عاشوا هذه الأيام الأربعة أسود كثيرا مما عشتها.. وعانوا وهم بكامل حريتهم أضعاف ما عانيت وأنا محبوس.. وبكوا جميعا أمامي.. ولكن الحالة التى تملكتنى منذ القبض على استمرت فى هذه اللحظة أيضا.. فأخذت أمسح دموعهم وأضحك وأهون الأمر وألومهم على هذا الانزعاج وهذه المبالغة التى لا مبرر لها.. فأصابتهم الدهشة وظنوا وهم يتبادلون النظرات أننى ربما أكون قد أصبت بحالة تبلد عاطفى أو توهان عقل.. وأن هذه المرحلة هى التى تسبق الجنون.. فأخذت أشرح لهم أحوال السجن والفرق بين عنبر الميرى وعنبر الملكى لتتأكد لهم مدى راحتى.. وأخذت أكرر أننى فى رحلة شيقة مبهرة جديدة تفيد أى كاتب.. وأن السجن لا يتعدى أن يكون مجرد معسكر كشافة أو وحدة عسكرية فى الجيش أو مدرسة داخلية.. واستطعت فعلا أن أهون عليهم وأن أعيد الابتسامة إلى وجوههم.. واتفقت معهم على الإجراءات والخطوات القادمة المطلوبة خارج وداخل السجن .

وبكت زوجتى مرة أخرى عندما اعتذرت لها عن عدم إمكانى الاحتفال بها غدا فى عيد الأم وأوصيتها أن تحمل إلى أمى التى لا تعرف أنى محبوس هدية كالعادة وتعتذر لها بحجة سفرى.. وفاجأنى أولادى أنهم فعلوا ذلك فعلا وجهزوا الهدية لتقديمها باكر.. وعشت معهم لحظات جياشة بالمشاعر.. هم أعلنوها وأنا أخفيتها.. ولكنى شعرت فعلا بعذاب الحبس .

* * *

عكّر صفو اللحظة الحارس المكلف بحراسة الزيارة.. وقف على بعد مترين منى وأشار لى بإصبعه كأنه يشير لكلب أو قطة.. فنسيت فى لحظة الخوف كل ما حولى وتوجهت إليه كتلميذ صغير مذنب يقف أمام الناظر.. فأمرنى أن أحمل حقيبة طعامى وأعود إلى السجن.. فعدت مسرعا وقبّلتهم على عجل وحملت الحقيبة وهرعت عائدا قبل أن يلحقنى الحارس بشتمة أوصفعة أمامهم.. أو هكذا توهمت.. عدت إلى الزنزانة وأنا فى أشد حالات الهياج والغضب والألم والحزن معا.. لأن كل ما قلته لأولادى وهوّنت به الأمر عليهم بأننا نلقى معاملة كريمة انكشف وبصورة مهينة وأنا ألبى نداء

إصبع هذا الخنزير وأحمل حقيبتى وأهرع إلى السـجن .. وأحسـست أن هذه اللحظة من الإهـانة لن تمحى من ذاكـرة أولادى ومشـاعرهم طوال مدة حبسى وربما بعد ذلك بسنوات .

* * *

أقبل الزملاء مهنئين باطمئنانى على سلامة الأسرة فلاحظوا أنى مغتمّ مكتئب فتكاثروا حولى فحكيت لهم ما حدث من الحارس.. فهوّنوا علىّ وأفهمونى أن الزيارة ككل شيء فى السجن لها تسعيرة.. وأن السجين يجب أن يدفع للحارس كل نصف ساعة علبة سجايرْ ليستمر فى الزيارة.. أما السجين الذى (يطنّش) أو السجين الغشيم مثلى.. فينتزع من وسط أهله بهذه الطريقة المهينة .

فتحت الحقيبة وتفحّصت محتوياتها.. ملابس داخلية وأدوات وأطعمة وفاكهة وكتب.. وأهم من كل هذا كمية كبيرة من علب السجاير.. وفتحت لفافة فوجدت زجاجة عطر ورسالة.. هدية من أسرتى بمناسبة عيد الأم.. فسالت دموعى وأسالت معها غضبى وشعورى بالإهانة .

# الزنـــــــزانـة

وجاء فرج آخر ليبعد عن نفسى ما تبقى من آلام الإهانة.. صدر الأمر بتوزيع النزلاء القدامى على الزنازين المتخصصة.. وظللت أرهف السمع للحارس وهو ينادى الأسماء حتى نادى اسمى (فتحى قفل).. فصحّحت له الاسم (فتحى فضل) فوافقنى.. فودعت الزملاء واتجه كل منّا إلى زنزانته الجديدة ، فَرِحين تماماً كالطلبة الناجحين المنقولين من الصف الأول إلى الصف الثانى .

صعدت السلم الكبير الذى يتوسط الفناء الداخلى للعنبر إلى الدور الثانى.. الذى كان كشأن أى مبنى جدرانه أفضل من الدور الأرضى.. وكانت الزنزانة قبل الأخيرة فى الصف الأيمن ومكتوب على بابها بخط ركيك٢/٥ أموال عامة .

استقبلنى نزلاؤها بترحيب بالغ.. واستضافنى النوبتجى على فراشه.. وكان أول من تعرّفت عليه.. شاب تخطى الثلاثين ، بكالوريوس تجارة متزوج وله طفلان.. تهمته الاختلاس من خزينة شركة قطاع عام.. قدّم لى كوبا من الشاى وقطعتَىْ جاتوه كأنى فى بيته فدهشت لتوفر هذه الإمكانيات .

تكلمنا فى موضوعات شتى.. وعرفت أنه يكتب الشعر وأسمعنى بعضه فوجدته موهوبا فعلا.. شكرته على حسن استقباله وعلى كرم الضيافة.. وقلت له إننى سعيد جدا أن يكون قائد الزنزانة جامعيًا وشاعراً أيضا.. ذلك أفضل ألف مرة من زعبلة وموس الذين عانيت تحت حكمهما أربعة أيام.. وسعيد أيضا لأنى سأقضى ما كُتب علىّ من أيام فى هذا السجن فى معاشرة موظفين حكوميين مؤهلين جامعيين.. تهمهم الرشوة والاختلاس والتزييف والتزوير وليس بينهم قاتل ولا لصّ ولا نشال ولا قوّاد ولا هاتك عرض ولا تاجر مخدرات.. فابتسم وأفهمنى أنى لم آتِ إلى هذه الزنزانة من باب الصدفة.. فهناك ثلاث زنازين أخرى (أموال عامة) وأن الحقيقة أنهم (اشترونى)

فابتسمت واستفسرت منه فأفهمنى أن النزلاء تعاونوا فى دفع رشوة للمسئول عن التوزيع لأكون من نصيبهم.. فالمسألة ستكون عشرة وعيش وملح.. وفكرة الاختيار واردة وهامة بالنسبة للنزلاء.. ولما لاحظ دهشتى استطرد (أنت وزميلك صحفيان وموضوعكم انتشر فى السجن وقرأناه فى الجرائد أكثر من مرة.. وجلستك فى الفناء وشرحك وتعليقاتك وفهمك للأمور محل إعجاب.. ووجودك بيننا مكسب كبير) فجاشت نفسى واهتاجت عواطفى.. وتذكّرت إهانة الحارس فى الزيارة وقارنت.. وسالت دموعى.

كان هناك فرق فى كل شىء .. زنازين الدور الأرضى ارتفاع سقفها حوالى مترين ونصف وهنا يزيد الأرتفاع مترا ، أما السعة فواحدة لأن كل زنزانة تعلوها زنزانة على نفس المساحة .. والحوائط هنا مطلية حديثا وخالية من أية شعارات ومزدانة بصور نجمات السينما ونجوم الكرة المنزوعة من المجلات.. وكل الحقائب معلقة بالحبال فى قضبان النافذتين والبطاطين المفروشة مستواها أفضل.. ونصيب الفرد من المساحة أكبر.. وبها نافذتان أخريان داخليتان تطلان على الممرّ مرصوص عليهما أوانى طعام النزلاء وزجاجات من البلاستيك لماء الشرب.. ويتدلى من السقف ثلاثة مصابيح كهربية.

والوجوه أغلبها باشّة مطمئنة متعلمة.. ملابسهم نظيفة وبعضهم يرتدى الأرواب (دى شامبر) المكوية فوق البيجامات.. ولكن رغم كل هذا الفارق الأفضل الواضح فى كل شىء فللأسف يوجد هنا أيضا الحوض الأسمنتى الذى تدور فيه دلفة الباب ويستعمل لنفس الغرض.. المخلفات والبول والبراز .

بحكم أننى أحدث نزيل بالزنزانة فمكانى حسب اللوائح والعرف المتبع أمام الحوض مباشرة.. فكلما أفرج عن نزيل حلّ محله من يليه فى الأقدمية وهكذا.. ولما سألت النوبتجى عن المدة التى قضاها فى الزنزانة حتى وصل إلى موقعه هذا الفريد المتميز قال سنة ونصف.. فصرخت وتمنيت ألا يكتب لى حظه وألا أصل أبدا إلى مقامه الرفيع.. وأدركت أن السكن بجوار المرحاض أرحم .

حدّد لى النوبتجى مكانى أمام المرحاض معتذرا.. وأفهمنى أن المساحة المسموح بها تختلف من يوم لآخر حسب عدد النزلاء.. ولكنها أفضل دائما من زنزانة الإيراد.. وأن

المساحة المسموح بها الليلة هي بلاطتان ونصف عرضا وسبع بلاطات طولا أى(نصف متر فى متر ونصف) فعلّقت بأنه سبق لى التعرف على هذه المعلومة من المعلم زعبلة.. فابتسم غامزا :

– مع الفارق.. فأنا لا أبيع اللمبة الكهربية للنزلاء كل يوم .

وضحكنا معا.. لم أكن أعرف أننى أصبحت بهذه السرعة شهيرا فى السجن إلى هذا الحد.. وعرفت أكثر من ذلك أننى كنت محل تنافس بين زنازين الأموال العامة الثلاث.. وأن الزنزانة ٢/٥ رسا عليها العطاء عندما رفعت السعر إلى خمس علب سجاير كليوباترا.. وشعرت بالزهو.. فأنا الآن مثل (مارادونا) أباع و لى سعر.. هو يقدر ثمنه بأربعة عشر مليون دولار وأنا يقدر ثمنى بخمس علب سجاير.. مع الفرق طبعا.. والفرق هنا لصالحى فأنا الأفضل.. ما قيمة أربعة عشر مليون دولار فى أوربا الممتلئة ببلايين الدولارات.. فخمسة علب سجاير هنا من هؤلاء المساجين التعساء تساوى وزنها ذهبا.. والمسألة نسبية.. أو هكذا أوهمت نفسى لأفلسف الموقف وأسعد باللحظة .

بدأت الوفود تنتقل لفراشى للتعارف.. عطشى إلى سماع تفاصيل قضيتى وموضوع الكتاب محلّ التحقيق.. فالمؤلف لم ينقل معى ولا أعرف حتى هذه اللحظة إلى أية زنزانة تـمّ توزيعـه.

مع الغروب رأيت السماء من نوافذ الزنزانة الأربعة.. النافذتين المطلتين على الفناء الخارجى.. والمطلتين على الممرّ ويظهر منهما سقف العنبر كله بقضبانه الحديدية المتوازية.. وهذا ما لم يكن متاحا فى الدور الأرضى.. ورغم الحبس يشعر المرء وهو يرى السماء ، بالحرية وانطلاق روحه التى لا تحدّها ولا تحبسها قضبان.

أضاءت المصابيح الكهربائية بعد الغروب.. وقبل العشاء وقف طابور أمام البرميل البلاستيكى الكبير.. يملأ منه المتوضئ (كوزا) من البلاستيك ويعلقه فى حافة البرميل ويسحب منه الماء حفنة حفنة بكفّه.. وأذّن البغبغان للصلاة.. وكان العدد فى الزنزانة خمسة وعشرين.. اصطفّ للصلاة عشرون ولم يتخلف سوى خمسة ، منهم واحد مسيحى.. ورشّحنى الجميع إماما.. ربّما لكبر سنّى ولو أننى لم أكن أكبر الموجودين

على الإطلاق فهناك خمسة أكبر منى.. وربما للمركز الأدبى الذى منحونى إياه.. وربما من باب الترحيب.. المهم أنهم رشّحونى ورفضت وأخذت مكانا فى الصفّ .

بعد العشاء نادى البغبغان على طابور عرض باكر.. وسررت عندما أدركت أن زنزانته هى المواجهة لزنزانتى فى الدور الثانى وأصبحت أسمعه بوضوح ـ وهو مسجون قديم محكوم عليه بخمس سنوات فى تهمة سرقة بالإكراه مع استعمال السلاح.. كان هاربا وصدر عليه الحكم غيابيا فلما قبض عليه أعيدت له إجراءات المحاكمة.. وهو هنا منذ عام انتظارا للفصل فى الاستئناف.. واسمه الحقيقى حامد وأطلق عليه المساجين (البغبغان) نظرا لُطبيعة الخدمة التى يؤديها.. يحصل على نَصّ النشرة من الحراس قبل غلق الزنازين كل يوم مقابل حصة من السجاير.. ويقوم بإذاعتها بعد صلاة العشاء مقابل علبة من كل سجين يرد اسمه فيها.. فهى حرفة ومصدر رزق له وللحراس.. ونص النداء هو :

« بعد مساء الخير على المساجين وعلى حرس الليل.. دور واحد ودور اثنين.. مخزن واحد ومخزن اثنين.. البغبغان يحييكم من زنزانة ثمانية على اثنين.. ويقدم الوصف التفصيلى للمروّحين بكرة..

يا حنّـان يا منّـان.. يارب
رحمتك سبقت عذابك.. يا ربّ
هاتها جمايل واعدل المايل.. يارب
صلوا على حضرة النبى.. وردّوا وراى
يارب نروح يارب ... آمين
يارب الخارجين بكرة يروحوا ما يرجعوا... آمين
يارب اللى يرجع.. تجبر خاطره... آمين
يارب المنتظر تفكّ ضيقته... آمين
يارب المحكوم عليه تدى له الصبر... آمين »

ثم تتلى الأسماء والجهة المستدعى إليها السجين، ويختمها بالشكر لحسن الاستماع.

أضاء بعض القدامى ممن يحتلون الأركان أباچورات معلقة على مسامير بالحوائط فى غاية البساطة والجمال.. والمدهش أننى عرفت أنهم يصنعونها هنا فى الزنزانة من فوارغ علب الحلوى الطحينية البلاستيك الشفافة بعد تلوينها بألوان ونقوش مختلفة وتثبيت أكثر من علبة بلاصق فى تكوينات وتشكيلات بديعة تتفق مع مستوياتهم العلمية والثقافية ومدى الفراغ الذى يعيشون فيه والذى يساعدهم على التفنن والإبداع .

شكل الزنزانة فى السهرة بالقياس إلى زنزانة الإيراد مُفرح ومبهج.. الحوائط النظيفة والسقف العالى والمصابيح الملونة والفرش المرتب.. والوجوه التى شبهتها الصحف (بالقطط السمان) من مختلسى ومرتشى الحكومة والقطاع العام.. وجوه شابعة مرتاحة مطمئنة راقدة على (خميرة) مخفيّة ومدّخرة للمستقبل.. لأيام بيضاء بعد هذه الأيام السوداء.

ولم يبدّد بهجة المنظر أمام عينى إلا هذان البرميلان الكبيران من البلاستيك المنصوبان على جانبى حوض البول.. أحدهما لماء الاستعمال والاغتسال والوضوء.. والثانى المفروض أنه للتبوّل.. أما الحوض فهو أصلا صندوق للقمامة والمخلفات الورقية.. ولكنى وجدت برميل البول هذا فى كل الزنازين دائما مثقوباً وفى الأغلب الأعم بفعل فاعل وكل ما يصل إليه يتسرب إلى الأرض.. لهذا فمن باب الاختصار يستعمل النزلاء الحوض مباشرة .

بدأت السهرة.. تجمّع المطرب وجوقته فى وسط الزنزانة ومعهم آلاتهم الموسيقية، وهى عبارة عن جردل بلاستيكى صغير يستعمل نهاراً لغسل الثياب ويستخدم وهو مقلوب ككرسى وفى الليل يستعمل طبلة، وباقى الآلات من علب الأغذية المحفوظة الصفيح الفارغة وضعوا بداخلها بعض نوى الزيتون كشخاليل الأطفال، يدقون عليها بالملاعق والشُوَك البلاستيك فتخرج أصواتا تساعد على التنغيم مع رتم الدق على الجردل .

ولم يكن نزلاء الزنزانة جميعهم مدعوين فى الحفلة.. فبعضهم تجمع حول الشطرنج أو الكوتشينة والبعض تفرغ لكتابة الرسائل أو قراءة الروايات أو القرآن الكريم أو قانون الإجراءات.. وإن كان الجميع بآذانهم مع الفرقة..

بدأت الحفلة بالنشيد الوطنى للزنزانة.. وأدهشنى أن هذا النشيد يدور حول طبيعة التهم ويعبر بحق عن الموجودين :

(يا مختلسين.. هيه
يا مرتشـــين.. هيه
يا مـزوّريـــن.. هيه
يا مـزيفـــين.. هيه
يا مـدلسـين.. هيه
يا نصّـابـين.. هيه
بَـدْرِى بـدرى بـدرى
يا بخت اللى لحق وقته.. وعملهم بدرى
المتعوس يشوفه الجنيه.. يهرب
وإن حاول يمسكه.. يتكهرب
والمحظوظ يعمل ميت أستك.. وتلاته أرنب
مش مهم الشهايد
مش المهم الكفاح
المهم.. إزاى تعملها وتهرب)

وبعد النشيد الوطنى الذى يمثل الافتتاحية كل ليلة.. غنوا أغنية تحية استقبال الزميل لجديد.. وهى أغنية قديمة مشهورة لمطرب مشهور.. قام النوبتجى الشاعر بتغيير بعض كلماتها بما يناسب المناسبة.. وصفقوا على إيقاعات الأغنية فشاركتهم ردا على لتحية.. وتملكتنى فرحة وبهجة وحالة رضا.. وكانت من اللحظات أو الساعات التى شعرت فيها فعلا بالغبطة والسرور .

بعد ذلك.. وحسب العرف المتبع فى كل الزنازين.. أعلن المطرب أن الأغنية التالية هداة إلى الزملاء الذين حكم لهم اليوم بالإفراج.. وكان المفرج عنه اليوم واحدا فقط.. كالعرف المتبع لابد أن يرقص.. فتوسط الحلقة وحزموه وعلا صراخ المطرب ودقّ الجرجل

والكل يصفق.. وصاحبنا (هات يا رقص) وكان طويلا عريضا ضخم الجثة فظل يدب بقدميه على إخواننا سكان الزنزانة السفلى حتى كاد يهدمها على رؤوسهم.. والغريب.. والمريح أيضا.. أن إدارة السجن لا تعترض على أى تهريج أو هذر أو غناء مهما علا صخبه.. أما المرفوض فهو الشجار ولعب القمار وتعاطى المسكرات والمخدرات .

وللإدارة عيون من قدامى النزلاء فى كل زنزانة.. يعرفهم إلى حدٍّ ما المحبوسون ويتجنبون ارتكاب أى خطأ أمامهم خشية الوشاية.. ويطلقون عليهم فى همس (المرشـدين) .

بعد ذلك انخرط المطرب وجوقته فى مجموعة من الأغانى المشهورة.. مع ارتجال استبدال بعض الكلمات أحيانا بما يتفق وحالهم وبؤسهم وسجنهم ومحنتهم من باب الإضـحاك .

انتهت وصلة المطرب وهدأ الصخب فى الزنزانة.. ودار المفرج عنه على النزلاء (بأوتوجراف) ليسجّل كل منهم له كلمة.. فلما وصلنى تصفحت الكلمات التى سبقتنى .

ـ (ما أحبش أشوف وِشّك هنا تانى

ـ عرفتنى فى الحبس.. فافتكرنى فى الحرية

ـ وصيتك دعوة وانت طاهر فى السيدة والحسين

ـ يخونك العيش والملح والبول والكيس.. لو نسيتنى

ـ فاكر لما كنت جنبى

ـ إوعى تفتح بُقّـك بكلمة.. أنا لسه فى السجن

ـ سلم لى على الترعة والجميزة والمصلية.. وخللى بالك من الجاموسة يا حمار

ـ القفة أم ودنين يشيلوها اتنين.. أنا شلت القضية.. شيل انت ولادى

ـ زورونى كل سنة مرة

ـ خليها توبة.. وروحة بلا أوبة

ـ سلام يا صاحبى.. وسلم لنا على الترماى

ـ إن كان ذراعك عسكرى إقطعه

ـ عليك بالصلاة والصوم.. وقرب من الله تبعد عن السجن

ـ مع السلامة.. يا سلامه

ـ تخونك ليالى الزنزانة.. يا هاجرنى

ـ خلينى دايما على بالك

ـ لما ترجع لأيام العسل.. إفتكر أيام البصل

ـ قول لهم يسامحونى.. يمكن ربنا يسامحنى

ـ لما تروح حاسب.. وافتكر دايما إن وراك محاسب

ـ ما تفرحش قوى.. ده انت راجع للغُلب تانى

ـ سلم لى على الحبايب.. وبلغهم إنى تايب ودايب

ـ المرة دى فتحت عينك وقعت.. المرة الجاية فتح مخك

ـ قدامك سكة سفر

ـ سَمِّيها زىّ ما تسميها.. أهى أيام الله لا يرجعها) .

نام البعض وبقى هواة السهر حول الشطرنج والكوتشينة والكتب.. وأخرجت أنا الأچندة وسحبت منها رسالة أولادى وأعدت قراءتها ودمعت عينى.. ثم فتحت صفحة جديدة أدوّن أحداث هذا اليوم الطويل جدا.. ثم استسلمت لنوم عميق حُرِمت منه عدة ليال.

* * *

هذه المنطقة من طره بها عدة سجون.. منها سجن الأجانب والسجن السياسى وسجن مزرعة طره أو ليمان طره وهذا السجن الذى أتشرف بالإقامة فيه.. وهذه السجون تبعد عن كورنيش النيل بضعة أمتار.. أو كما يقول العامة (فَرْكَة كَعب) ترسّب حولها ما يشبه القرية كل رزق أهلها من تجارة السجاير والمعلبات والأطعمة والفاكهة وما يلزم زوار السجن.

وسجننا كما سبق وصفه ثلاثة أجنحة.. الإدارة وعنبران.. الميرى والملكى.. فى الملكى الغرفة الأولى إلى اليمين زنزانة الإيراد.. ويقابلها إلى اليسار غرفة يتقاسمها الخياط والمكوجى والحلاق.. وباقى الصفين زنازين عادية .

أما الدور الثانى فكله زنازين عادية يتوسط كل صف حجرة صغيرة كانت أصلاً مخزنا للوازم الحراس، ومع الزمن وخراب الذمم وكثرة المخطئين أصبحت تستعمل لحبس ذوى الحسب والنسب وأصحاب الواسطة.. ولا تحتمل حجرة المخزن أكثر من خمسة نزلاء ننظر إليهم بحسد.. فالمخزن نظيف وبرميل البول ليس مثقوبا.. ويمكنهم إخفاء أجهزة الترانزيستور فى فراشهم دون قلق أو خوف من احتمال التفتيش.. فكل الحراس يتجنبون التحرّش بهم لأنهم من أصحاب النفوذ.. أو على الأقل وراءهم أصحاب نفوذ.

وفى الفناء الخارجى حول العنبر يوجد ثلاث بنايات صغيرة.. الأولى بها الكنتين والعيادة والحبس الانفرادى ومكتب الضابط النوبتجى.. وفى الضلع الثانى دورة المياه.. وفى الثالث المسجد.. وفوق الأسوار الأربعة بارتفاع عشرة أمتار توجد أكشاك أسمنتية يقف فيها حراس شاهرى السلاح . والدورة اليومية بالترتيب.. كالتالى :

.. (فتح الزنازين

.. الجرى إلى دورات المياه

.. النداء على طابور العرض

.. نشر الفراش فى الشمس

.. العيادة

.. وصول طابور الخدمات من سجناء الميرى للنظافة

.. النداء على الزيارة الخاصة والعادية والسلك

.. النداء على الطبلية

.. طابور عرض الشكاوى على قائد العنبر

.. زيارة المأمور غير المنتظمة لسماع الشكاوى

.. صلاة الظهر.. ثم صلاة العصر

.. الترحيل إلى السجون الأخرى للمحكوم عليهم

.. الترحيل إلى المستشفى أو الحبس الانفرادى.. أو الإفراج

.. الإيراد الجديد

.. الترحيل من الإيراد للتسكين فى الزنازين النوعية

.. دفع رسوم الخدمات المختلفة

.. عودة طابور العرض

.. التمام وغلق الزنازين فى الرابعة

.. أذان المغرب ثم أذان العشاء

.. النشرة بمعرفة البغبغان

.. السهرات المختلفة والأنشطة داخل الزنازين

.. نداء الحراس على بعضهم فى الممرّات وفوق الأسوار) .

فتحت الزنازين وجرينا إلى دورة المياه.. ثم توجّه كل منا إلى غرضه فى الأنشطة المختلفة.. ونشط الباعة الجوالون وافترش التجار البطاطين ورصّوا عليها بضائعهم.. أما الكنتين فهو لا يبيع سوى الحلوى الطحينية والسجاير.. وسألت كيف تشترى السجاير بالسجاير.. فعرفت أن من حق أى سجين أن يودع أهله له رصيدا فى صندوق الكنتين عن طريق الإدارة.. يسحب منه لشراء أى كمية من السجاير.. ليصرف منها على مشترياته وخدماته.. أى أن الكنتين باختصار يقوم بوظيفة بنك استبدال عملة.. يحول عملة الدولة الرسمية إلى عملة محلية.

ونشط أصحاب الدخول الطفيلية وهى نوعان.. نوع يمارس فى الفناء والآخر داخل الزنازين قبل وبعد الإغلاق.. وأسعار الخدمات هى :

.. دورة المياه لاستعمال المراحيض لأى عدد من المرات.. علبة سجائر كل أسبوع والاستحمام علبة كل مرة

.. نداء الميكروفون على الزيارة.. على كل نداء علبة.

.. نداء الميكروفون على الطبلية.. على كل نداء علبة
.. نداء البغبغان على العرض.. على كل نداء علبة
.. الحلاقة.. لحلق الذقن علبة ولقص الشعر علبتان
.. المكوجي.. لكيّ القميص علبة وللجلباب والبنطلون والچاكت علبتان
.. الكهـربائى.. لإعادة ربط الأسلاك للمصبـاح أو السخان يُجمع له علبتان بمعدل سيجارة من كل نزيل.
.. ماسح الأحذية للمسحة نصف علبة.. والحقير حقير حتى فى رزقه
.. الغسـيل والنشـر.. يجلس النزيل صاحب حق الامتياز وأمامه جردل ماء وصـابون وخلفه حبل مشدود من حائط العنبر إلى حائط السور ويتفق مع الزبون على الأجر للغسيل والنشر أو للنشر فقط حسب كمية الملابس.
.. الخياط.. ترقيع الثياب بالاتفاق المسبق
.. المفتاحجى.. الذى يفتح ويغلق الزنزانة.. علبة كل أسبوع
.. حامل الختم.. وهو سجين أيضا يجلس فى مكتب الضابط النوبتجى تحصل منه على بصمة خاتـم شعار الجمهوريـة على أى توكيل أو التماس أو عرض حال.. علبة عن كل بصمة
.. الحارس الذى يبيع الأغانى من الراديو الترانزيستور.. عن كل أغنية علبة
.. وأخيرا المهنة أو الحرفة التى ابتدعها العبد لله.. كتابة الرسائل.. والسعر كما سبق أن ذكرت كان ينخفض أحيانا إلى خيارة .

أما الخدمات داخل الزنازين فسأذكرها رغم أن هذا سابق لأوانه أو سابق لزمن تسجيلها وهى: المساج وحلاقة الذقن والشعر والنتف بالفتلة.. والرُّقَى .. وقراءة الكفّ.. وتسعيرة كل خدمة علبة سجاير .

والنداءات هى :
.. يا عم الفول ماله يا جماله.. بائع علب فول مدمس
.. لمّع لمـع لمـع.. لمـع يا مروّح لمـع.. ماسح أحذية

.. ساعة للبيع.. نشال

.. البنج.. تاجر مخدرات وبرشام

.. روشة خدمة ممتازة.. نوبتجى دورة المياه

.. المستورد.. بائع سجاير مستوردة

.. حلاق يا مسافر.. الحلاق

.. فنيك، بخور، صابون، مَكَن حلاقة.. بائع سرّيح

.. بطانية للبيع.. سجين مفلس كما فعل زعبلة.

دنيا طويلة عُريضة حيّة نشطة والخير كثير.. مسجونون أغنياء من تجار مخدرات وعملة وأعراض ومختلسون ومرتشون ومزيفون ينفقون بسخاء.. يرتزق منهم بالبيع أو الخدمة أصحاب الجرائم الفقيرة التى لا تدرّ ربحاً كالقتلة وهاتكى الأعراض وجرائم النفس.. يحصل البائع أو صاحب الحرفة أو الخدمة على نصف الأجر والنصف الثانى يُحصّل بنظام وحسابات مدروسة لحساب الحراس.. وكل منهم يحصُل على حقه حتى لو كان فى إجازة.. فهو بمثابة دخل ثابت يتعيّش منه ويربى منه أولاده.. لا يرى فى ذلك أى خطأ أو خروج على الدين أو القانون .

* * *

فرشتُ بطاطينى كالعادة وأمتلأت بالصعايدة والفلاحين الأميين.. وأعلنت أن كتابة الرسائل من اليوم مجّانا ولن أسمح لأحد أن يدسّ فى جيبى علبة سجاير أو برتقالة أو خيارة بعد اليوم.. فزاد إعجاب الزبائن وكثر عددهم.. ومن كان يطلب رسالة طلب رسالتين.. ومن كان يكتفى برسالة لأولاده طلب رسالة لكل واحد منهم.. ولو تركت الحبل على الغارب لطلبوا رسائل لأعمامهم وأخوالهم وأقاربهم حتى الدرجة الخامسة عملا بمبدأ (أبو بلاش كتّر منّه).

تعبت من الكتابة فصرفت الباقين على وعدٍ بالكتابة لهم باكر فهاجمتنى ذكريات اليوم.. عيد الأم.. وكيف كنت أجمع الأسرة والأهل وأجعل من هذا اليوم عيدا.. تلهيت بقراءة الرسالة ربما للمرة العاشرة.. ثم تلهيت فى تصفح جرائد الأمس..

وضايقنى أن الصحافة ما زالت تصوّر قضيتنا على أننا عصابة من التجار الأثرياء الجشعين الذين يبحثون عن وسيلة جديدة للربح فأستأجرنا مؤلفا وطبعنا كتابا مشابهاً لكتاب سلمان رشدى.. واتهمونا بركوب العربات الفارهة واكتناز الملايين فى بنوك الخارج.. وربما كان قصدهم فى المقام الأول الحاج محمد مدبولى لكنهم من باب الهرب من المساءلة والمقاضاة لجأوا إلى أسلوب التعميم فجمعوا بينى وبينه فى معنى وقصد واحد .

وفكّرت أن أكتب للصحف ردا على هذه الافتراءات والافتراضات التى لا تقوم على أقلّ قدر من واجب التحرّى والتأكّد والصدق.. لأشرح لهؤلاء السادة الذين يكتبون المسودات ويرسلونها إلى المطابع وهم جالسون على مكاتبهم العريضة والكراسى ذات الظهور العالية وتحت أجهزة التكييف.. دون تكليف أنفسهم مشقّة التروّى وتقصّى الحقائق .

تصدّرَتْ للمؤلف صورة بالصفحة الأولى بإحدى جرائد المعارضة اليوم.. رأيته يتبختر ويلوّح بكلتا يديه بالتحية فى خيلاء للمندهشين الذين ينظرون إليه كملحد وكأنهم ينظرون إلى مخلوق وافد من كوكب آخر وهو يظنهم مبهورين معجبين.. ومما زاد غروره وخيلاءه تسكينه فى زنزانة (المخزن) مع علِيةَ القوم بكارت توصية طبعا .

دوّى صفير الحراس فى الفناء آمراً المساجين بالعودة إلى الزنازين رغم أن الموعد لم يحِنْ بعد.. فلما قوبل صفيرهم بالاستنكار قالوا إن وزير الداخلية الجديد سوف يزور السجن.. وفى عودتى اشتريت من السوبر ماركت المفروش على الأرض بخورا.. فى محاولة للتغلب على رائحة البول .

أغلقوا الزنازين مبكرا ساعة.. وبدأ النزلاء كالعادة فى التلهّى بفحص محتويات الحقائب التى وردت لهم فى الزيارة أو الطبلية.. وعلق أحد الظرفاء على عملية الإغلاق المبكر:

– وزير الداخلية الجديد جاى يصدر أمر بالإفراج عنكم؛ علشان البلد يكتر فيها النصابين والمختلسين والمرتشين والمزيفين والمزورين فيرجع يقفشكم تانى وبكده يبين شطارته وتفوقه على الوزير اللى سبقه .

وقبل الغروب فتح باب الزنزانة مرة أخرى ودخل الخمسة الذين غادرونا صباحا إلى طابور العرض.. اثنان تأجلت قضيتاهما.. أحدهما لأن الشاهد لم يحضر والثانى لأن الأوراق المطلوبة للقضية من إحدى الجهات الإدارية لم تضم للملف.. واثنان حكم لهما بالإفراج نظير كفالة.. والخامس حكم عليه بالسجن خمسة عشر عاما.. وهنا تضاربت المشاعر وارتبكت.. ولم نعرف كيف نفرح ونهنئ ونبارك للمفرج عنهما وكيف نحزن للمحكوم عليه ونواسيه ونصبره.. كيف يتم هذا وذاك ونحن جميعا فى زنزانة واحدة وعلى مرأى ومسمع من بعضنا البعض .

فى الحرية كان يُمكن لأى منا أن يذهب إلى عزاء ثم إلى زفاف فى ليلة واحدة وبنفس البدلة أو على أكثر تقدير مع تغيير الكرفتة الحمراء بأخرى سوداء لأن كل زيارة فى حىّ أو شارع مختلف.. وحتى الآن بعدما عمّت بلادة الإحساس وتفشى انعدام الذوق وأصبحنا نرى مأتما فى شقة وفرحا فى شقة أخرى فى نفس الوقت ونفس العمارة ويكتفى أهل الفرح بالاعتذار البسيط الشكلى لأهل الميت بأن كل شيء قد تم إعداده ودفعت تكاليف الفراشة والكهرباء والميكروفون وثمن الحلويات والمشروبات وأرسلت تذاكر الدعوة قبل وفاة المأسوف على عمره.. وأن لا ذنب لهم أن المرحوم كان قليل الذوق ولم يختر الوقت المناسب ليموت.. حتى فى مثل هذه الحالات فالموقف أهون من هذا المأزق الذى نحن فيه .

عاد الذى حكم عليه بالسجن فارتمى على فراشه دون كلام أو طعام واستسلم للنوم.. وهذا شيء طبيعى.. فهو فى العادة يقضى ليلة الجلسة فى قلق وأرق ولكن بعد صدور الحكم يختفى التوتر والقلق.. ويستسلم المحكوم عليه للإحباط ويذرف الدمع وينام.. كالغريق الذى يقاوم ويتمسك بقشة إلى أن يغوص جسده تحت الماء فيستسلم للغرق.. وكما يقول المثل (وقوع البلاء ولا انتظاره) .

واللذان حكم لهما بالإفراج بكفالة بـدآ فى تجهيز حقائبهما والتخلّص من الأشياء الزائدة كالأطعمة والشاى والسكر..

أما اللذان تأجلت قضيتاهما فجلسا معا فى ثرثرة حادة غاضبة وسبّ المحكمة والحكومة والزمن والمحامى الخائب الذى لم يستطع انتزاع البراءة لهما .

وفى السهرة حرمنا من المطرب وصوته الحميرى.. ولكن تجمعت شلل الكوتشينة والشطرنج.. وظهرت الرسائل والروايات وقانون الإجراءات وكتب الدين.. وانتهزنا فرصة نوم المحكوم عليه وتسللنا إلى المؤجلة قضيتاهما نصبرهما ونعشمهما خيرا وأن الفرج آتٍ فى الجلسة القادمة.. ثم انتقلنا إلى المفرج عنهما نبتسم فى تخفٍّ ونهمس.. ألف مبروك .

* * *

قضينا السهرة فى ارتباك ونفاق.. ورغم هذا لم تخلُ من مفارقة مضحكة.. ففى شدة المحنة تشتدّ الحاجة للمُلحة والفكاهة.. تجمعتْ شلّتى للعشاء.. وشلّتى لم أخترها.. هم أقرب جيرانى.. وهنا يأتلف النزلاء بسرعة رغم اختلاف البيئة والمشارب والأمزجة والمستوى .

جلسنا نحن الأربعة.. وفرش كل منا ما عنده من طعام.. وفى العادة إذا تكرر صنف نأكل واحدا ونؤجل الآخر للغد.. ونراعى أن نأكل الصنف الذى يتلف لو بات ونؤجل الصنف الذى سيظل صالحا.. وكان أوضح ما فى المائدة (حلة محشى) وردت لأحد الزملاء.. وأخذنا نلتهم المحشى وكان ما زال محتفظا بحرارته.. وأثناء الأكل تنبّهنا إلى صاحب المحشى وهو يسحب من فمه مسمارا طوله خمسة سنتيمترات ويعلق باسما :

– أنا وصّيت الأولاد يحطّوا لى ثلاث مسامير فى المحشى علشان ندقّـهم فى الحيط.. آدى واحد منهم.. خلوا بالكم لسه ناقص اثنين .

وبدأنا نأكل بحذر ونمضغ جيدا.. واستمرت نصف حلة المحشى أمامنا نصف ساعة مع أننا التهمنا نصفها الأول فى خمس دقائق.. وعثر زميل آخر على المسمار الثانى.. وظللنا نأكل فى حذر وترقب ونراقب بعضنا فى انتظار المسمار الثالث.. إلى أن نفدت حلة المحشى ولم يظهر.. وكان رابعنا هو المعلم عبد الكريم.. سمين له كرش بارز ضعف

المساحة القانونية التى صرّح بها نوبتجى الزنزانة.. وكان الأسطى عوض صاحب حلة المحشى رجلا خفيف الظل وابن بلد حاضر النكتة.. وراق له أن يداعب المعلم عبد الكريم، وراقت لنا نفس الرغبة لأنه كان يأكل بنهم وسرعة ولا يراعى الذوق والمجاملة والمشاركة وآداب المائدة.. فقد الْتَهَم وحده مثل ما التهمناه نحن الثلاثة.. فمال صاحب الحلة إلى أقرب زميل مراعيا أن يسمعه عبد الكريم.. وهمس له أن الاحتمال الأغلب أن المسمار الثالث يرقد الآن فى بطن عبد الكريم لأنه كان يلتهم بسرعة ويبلع بدون مضغ.. واصفرّ وجه الرجل وقام إلى الحوض فتقيأ.. ثم فتش فى القيء عن المسمار فلم يجده فعاد يغصب نفسه على القيء.. وظل هكذا لمدة ساعة.. وأصبح شاغله الشاغل أن يتقيأ المسمار.. وكلّما ابتسمنا زاد شكّه وقلقه وقام إلى الحوض ووضع إصبعه فى حلقه.

وهكذا انتقم منه صاحب المحشى.. وقضينا الليلة وعبد الكريم تسليتُنا.. إلى أن ضِقْتُ أنا بهذا الهذر الذى أرهق الرجل كثيرا فاستحلفت صاحب المحشى أن يقول الحقيقة فأخرج المسامير الثلاثة من جيبه.. فاطمأنّ عبد الكريم واستكان.. وسرعان ما استسلم للنوم وهو مرهق وجائع ومغتاظ.

* * *

ودّعنا الزملاء بالأحضان والدموع.. لحظات عظيمة وحرجة مشحونة بالمشاعر الإنسانية الفياضة.. الدموع فى العيون والقلوب تخفق بشدة كطيور ذبيحة تنتفض من قسوة السكين.. ولم يُطِقْ أحد البقاء فى الزنزانة بعد رحيلهم.. وفضلنا الانطلاق إلى الفناء بعيدا عن مصدر الشجن..

وهناك انضممت إلى طابور المشى.. وهى الرياضة المفضلة هنا لكبار السن لأنها مفيدة للروح والجسد.. فالسجين المحبوس فى الزنزانة ست عشرة ساعة من الرابعة بعد الظهر حتى الثامنة من صباح اليوم التالى.. لا يملك خلالها سوى أن يجلس أو يرقد.. يسعده كثيرا أن يقطع مسافة طويلة من المشى من باب التعويض.. فالمشى هو الحركة.. والحركة هى الحرية.

ورياضة الشباب هى كرة القدم ويمارسونها بعد صلاة الظهر.. أما الصعايدة فيمارسون رياضة أو لعبة طريفة وساذجة ولكنها تمثل البيئة وتسمى (كارِتّة العمدة) وتقوم على ثلاثة.. أحدهم يقف منتصبا والثانى ينحنى خلفه ويضع رأسه فى ظهره ويمسكه بيديه من خاصرته.. ويركب الثالث فوق ظهر الثانى.. وبهذا يمثل الأول الحصان والثانى الكارتّة والثالث العمدة.. ويتحرك الركب فى الفناء عَدْواً.. ومن حق العمدة أن يحث الحصان على السرعة كلما تباطأ بأن يضرب الأول على قفاه.. وأيضا من حقه أن يركُل بقدميه الكارتّة أى بطن الثانى.. ويستمر تلطيش العمدة فى الحصان والكارتة طوال الرحلة وهى دورة كاملة حول العنبر.. ثم يصير تبْادل المواقع.. فينتقم الحصان الذى أصبح عمدة من العمدة الذى انسخط حصانا أو كارتة ويكيل له أضعاف ما لحق به من الركل والصفع.. وهكذا تظل اللعبة طوال استمرارها مثار ضحك وتعليق النزلاء.. وزيادة فى البهجة والمتعة؛ فكلما مرّ العمدة بجماعة جالسة على البطاطين رفع إليهم يده بالتحية فى عظمة العُمَد وعاد بها إلى قفا الحصان فيردون تحيته بأحسن منها ويضحكون.. ولقد أثار انتباهى فى هذه اللعبة طبع الصعايدة.. فالصعيدى أهون عليه أن تقتله ولا تضربه على قفاه.. وهذه الإهانة بمثابة الشرك بالله.. ورغم هذا يقبل أن يضربه العمدة على مرأى ومسمع من النـاس.. كأن هذا حق الوالى عليه.. أو حق رب الأسرة أو شيخ القبيلة.. ولا شك أن هذا من موروثاتنا فى علاقة الحاكم بالمحكوم .

* * *

كانت الحركة فى الفناء منتعشة اليوم.. لعب وتهريج.. ربما لغياب الشمس.. فالجوّ مائل للبرودة والحركة تبعث الدفء.. ورغم هذا فأحد النزلاء الأجانب وكان فرنسيا متهما بتزوير شيك سياحى وقف عاريا إلا من قطعة صغيرة حمراء منقوشة فى حجم المايوه البكينى كان واضحا أنه يتمنّى أن يتخلص منها.. التفّ حوله مجموعة من الصعايدة المحرومين جنسيا من طول مدة حبسهم .. يحدّقون فى لحمه الأبيض الوردى الخالى من الشعر فَاغِرِى الأفواه تطفح عيونهم بالغباء والجنس والحيوانيّة والشهوة والتعطّش .

ولفت هذا المنظر نظرى إلى كثرة الصعايدة . وربما يساعد على ذلك أنهم يفدون إلى القاهرة هربا من قسوة العيش وضيق الرزق ويمارسون أى عمل ارتجالا بلا خبرة مما يوقعهم فى مشاكل ومآزق قانونية.. فتذكرت مقولة برنارد شو (كلنا خطاءون ولكن من فى السجون هم الخطاءون الأغبياء ).

بدأت أحفظ الوجوه.. وبعضها يبادلنى التحية كل صباح فى الفناء دون سابق معرفة.. وتعودت على كل شيء بعد أن تكرر أمامى كل موقف وكل سلوك وكل عرف أو عادة.. ولم يعد شيء يبهرنى أو يدهشنى أو يشدّنى.. حتى القلق الذى استولى علىّ فى الأيام الأولى لعدم اتصال أسرتى تبدد بعد أن تكررت الزيارة وانتظم الإمداد بالتموين والرسائل.. لهذا بدأ يتسلل إلى نفسى الملل.. وبدأت أشعر بأعراض الحبس وضياع الحرية بعد أن نفدت شهيتى إلى متابعة المناظر بنفس الرتم والإيقاع.. ولولا الرسائل التى تلهيت بكتابتها اليوم للنزلاء لشعرت بالضيق لطول الوقت.. فقد كانت كثيرة ومتنوعة وفيها من الأخبار ما لم يسمح لى أن أستسلم للملل .

* * *

فى السهرة كان البرنامج ككل يوم.. ترتيب الفراش وفرز الأطعمة وصلاة المغرب ثم العشاء ونداء البغبغان.. وانتظام جماعات الشطرنج والكوتشينة والقرآن وقانون الإجراءات.. ونداء النوبتجى بالمساحة المسموح بها اليوم.. وهنا ظهرت مشكلة.. زميل كان قد أفرج عنه ولكن الجهات الإدارية تبيّنت أنه مطلوب على ذمة قضية أخرى فاحتجز فى قسم الشرطة ثلاثة أيام ثم أمرت النيابة بإعادته إلى السجن.. والمشكلة تكمن فى موقعه المتميز فى الزنزانة الذى وصل إليه بعد شهور.. وكان قد احتله من عليه الدور.. وتمسك هو بموقعه القديم ورفض الآخر التنازل عنه باعتبار أنه بعد عودته يعتبر نزيلا جديدا يأخذ دوره فى الزنزانة من جديد.. واستمر الجدل وانقلب إلى تشاتم ثم تماسك بالأيدى.. ونادى النوبتجى على حارس الباب فذهب وعرض المشكلة على الضابط النوبتجى وعاد بالحل فعاد السجين إلى موقعه.. وجاء الشرح فى حيثيات الحلّ

أن من حق السجين العودة إلى موقعه القديم إذا كان غيابه فى إحدى الجهات الرسمية ولم يطلق سراحه.. كأن يحتجز فى المستشفى أو الحبس الانفرادى أو أقسام الشرطة .

عادت بعد ذلك الزنزانة إلى سهرتها وصخبها.. وسحب المطرب الجردل فتجمعت الفرقة بالكيزان والملاعق.. وبدأ الدقّ.. وصفّق الجمهور.. وهكذا تستمر الحياة.. وبالصورة التى يريدها القدر.. بخيرها وشرها وحلوها ومرها رغم أنف الناس والزمن.. فنحاول أن نصنع أو نضيف للواقع شيئا من التحسين لنقبله أو لنتقبله .

* * *

عندما يدير السجّان المفتاح فى الرابعة بعد الظهر إيذانا بغلق الزنازين والبيات الطويل ينتابنا جميعا الشعور بالحبس.. فهو عندما يسحب دلفة الباب من حوض البول ويقول لنا.. (تصبحوا على خير) نشعر أنه يقطع ما بيننا وبين العالم حتى صباح اليوم التالى.. ونهمس لأنفسنا (اللهم عَدّيها على خير) فنحن لا نعرف ما قد يورطنا فيه هذا الباب الحديدى المصفح لو أصاب أحدنا مغص أو نزيف مفاجئ أو حدث حريق.. ففى الزنزانة خمسة وعشرون رجلا يدخنون وسخان كهربى مشتعل طوال السهرة.. لذا فأى مكروه لأى واحد يهمّ الجميع .. وليس فى وسع الأنانى أو الخائف أن يفرّ منه.. ومن خلال هذا الشعور المشترك تتولد الألفة والمودة سريعا.. وبحكم الحركة اليومية المستمرة بين الإيداع والإفراج تتغير الجيرة بين النزلاء يوميا.. ولا يستغرق الأمر سوى دقائق ليتمّ التعارف وتبادل الشاى والسجاير والمشاركة فى الطعام حتى قبل أن يتعرف النزيل على اسم جاره.. بعد الشعور الجماعى بالاكتئاب لحظة الغلق ينشغل كل منا بحاله حوالى ساعة.. ثم يجمعنا طابور الوضوء وصلاة المغرب.. ثم تبادل الزيارات حتى صلاة العشاء.. ثم تتجمع الجماعات.. ثم يسحب (الأستاذ عفّت) الجردل وتنضمّ له باقى الفرقة ويلتفّ حولهم السمّيعة ويعبق الجوّ بدخان السجاير مع بخار البول.. وفى منتصف الليل يكون النزلاء قد وصلوا إلى مرحلة عالية من التوحّد فى المشاعر .

* * *

كل شيء يتمّ فى الزنزانة بالعدوَى.. فعندما تشرع جماعة فى عمل الشاى تتذكر باقى الجماعات وتنتظر دورها أمام السخّان.. وعندما يشرع واحد فى كتابة رسالة يخرج الآخرون البلوك نوت والقلم.. وعندما يشرع واحد فى التبول يصطفّ خلفه طابور.. وعندما يشرع آخر فى النوم تغفو العيون وتتساقط الجذوع وتتمدد الأجساد .

وأخطر أنواع العدوى هنا هو (الاكتئاب) إنها العدوى الخبيثة سريعة الانتشار التى يخشاها الجميع ويعملون لها ألف حساب.. فيحدث أحيانا أثناء السهرة فى الغالب أن يتذكر أحد النزلاء أسرته وأولاده أو قضيّته فيشرد عن مشاركة الجماعة ويتوه فى بلواه.. ويلمحه أحدنا فيصرخ فيه (صلّى على النبى) فتنتبه كل الزنزانة ويهرع إليه أكثر من زميل مُبَسمِلين مكبّرين ماسحين جبهته وصدره مردّدين (وحّد الله.. صلّى على النبى.. إتركها للّى خلقك.. الصبر) ويناوله أحدنا كوب ماء.. وآخر علبة عصير أو فصّ ليمون أو يشعل له سيجارة.. ولا يتركونه حتى يغلبوه ويعيدوه إلى الجماعة.. وأحيانا تكون الحالة شديدة فلا تنفع معه بسملة ولا حوقلة ويبكى فتنتقل العدوى فنفاجأ بآخر ربما فى آخر الزنزانة يردّ عليه بلطم خدّيه أو تمزيق ثيابه.. وهنا ينفلت الزمام وتنقلب الزنزانة إلى مناحة وينخرط الجميع فى البكاء كأنهم جلوس حول جثة عزيز غالٍ.. لهذا يخشى الجميع الاكتئاب أو مجرد شرود أى سجين فيظلون حوله حتى يخرجوه من محنته خوفا على أنفسهم .

اشتُهِرْتُ فى الزنزانة بحسن الاستماع والتفهُّم لمشاكل وقضايا الآخرين.. وبأنى لا أترك مهموما إلا بعد أن أزيل عنه كربته ويغادرنى وهو مرتاح نفسيا ومطمئن لعدالة القضاء والسماء.. وسرت أقوالى وتعليقاتى وشرحى كالسحر بين النزلاء فى الزنزانة ونقلوها إلى آخرين فى زنازين أخرى فلم تخلُ بطاطينى فى الفناء كل صباح وحتى موعد الحبس بدقائق من الوفود والروّاد.. ولم تخلُ فرشتى بعد غلق الزنزانة من زميل يحكى أو يشكو أو يعترف أو يسأل أو يحمل لى سؤالا من نزيل فى زنزانة أخرى لم يسعفه الوقت لسؤالى فى الفناء من الزحام الذى حولى .

وفى كل الحالات لا أترك الضيف إلا بعد أن يبتسم ويتفاءل.. وكنت أضيق أحيانا بالكثرة التى تتجمهر حولى ولكنى كنت أبتسم وأسلم لهم وقتى وأذنى وفكرى.. أسمع وأرد فيسعد من أشرح له ويسعد معه المنتظرون الدور.. فبدوت بينهم كالشيخ وسط أتباعه ومريديه من الدراويش.. وفى الأيام التى تلت كانوا يصرون على أخذ البطانية من يدى ويفرشونها هم.. ثم زاد الأمر.. أنزل فأجدهم قد تجمّعوا وفرشوا أكثر من بطانية ووضعوا لى بجوار الحائط مخدّة لأجلس عليها.. وبمجرد حضورى يهبّون وقوفا فأحييهم وأجلس فيردون التحية ويجلسون بعدى وقد زاد عددهم عن الأمس.. ولولا الحياء لقبّل بعضهم يدى.. ونبدأ الحكى والتعليق كأننا فى ندوة أو مؤتمر.. ويتبارون فى فتح علب العصائر لى .

وفضلا عن حسن استماعى وحسن تعليقى وتفهمى فقد زاد من اقتناعهم بى سنى.. فقليل منهم من تجاوزنى فى العمر.. وأيضا طبيعة التهمة الموجهة لى.. فلا أنا نشّال ولا لصّ ولا هاتك عرض ولا قاتل.. مجرد أديب وصاحب مطبعة متهم بطبع كتاب.. وكما علق أحدهم (انت رجل بتاع حبر وورق.. ذنبك إيه فى موضوع الكتاب.. دى مسئولية المؤلف).

وزاد الأمر حتى بدا ظاهرة.. وبدأت أتوجس خيفة من أن تعتبر إدارة السجن هذا المجلس نوعا من التجمهر أو العمل السياسى .. لا سيما أن نص التهمة الموجهة لى والمحررة فى ملفّى بإدارة السجن (الترويج لهدم السلام الاجتماعى للدولة وازدراء الأديان) .

سعدت بجمهورى لأنه عزلنى عن التفكير فى محنتى.. وهذا أفضل ما يطمح إليه سجين.. وأيضا جعلنى أطّلع على مئات القضايا المختلفة مما أثرى هذه المذكرات التى كنت لا أجد وقتا لتدوينها فى حينها وأعتمد على الذاكرة بعد تفرّغى لنفسى فى منتصف الليل عندما يكون أغلب النزلاء قد ناموا .. ولكى أحكى قضية كل من حكى لى فسيحتاج هذا إلى مجلدات.. فرأيت أن أنتقى حالة واحدة من كل عدّة حالات

متشابهة يكون لها أبعاد تنعكس على أغلب الحالات.. وسأبدأ بزنزانتي.. والجرائم فيها ستة أنواع هى.. الرشوة والاختلاس والتزوير والتزييف والتدليس والنصب والاحتيال .

* * *

عمّ سعفان تريللا: كما يناديه النزلاء.. فَحل.. طول وعرض.. ولكن جلد على عظم كخيال المآتة أو كهيكل عظمى لديناصور قديم.. وجهه الذى حرقته شمس الطريق يشى بعمره الحقيقى الذى تخطى الستين.. تذكرته بمجرد دخولى الزنزانة.. إنه الرجل الذى تسوّلت منه الرغيف منذ أيام وإن لم ينتبه هو إلى ذلك.. كانت فرشته مواجهة لفرشتى.. وكان كريما معى منذ اللحظة الأولى فظل يقذف إلىّ ببرتقالة فخيارة فإصبع موز طوال السهرة من باب التحية.. وتوطدت بيننا الصداقة سريعا وانتقل إلى فراشى.. وكان أول من حكى لى قضيته.. ولما رآنى أدوّن ما يقول استحلفنى أن أكتب للصحف عنه.. بل سألنى كم يتكلّف كتاب يحكى قصته للرأى العام.. ومن باب الوفاء للخيار والبرتقال ولأشهر رغيف فى عمرى سأبدأ به .

عندما شاخ أبوه وعجز عن إدارة محل الجزارة وترك له إدارته.. أهمله وقضى نهاره فى ملاحقة النساء وليله فى ملاهى شارع الهرم.. وبعدما بدّد ثروته احترف قيادة السيارات.. ومرّ به العمر فتزوّج وأنجب.. وعندما تخطى الخمسين كان يعمل سائقا لسيارة نقل كبيرة ذات مقطورة لها فنطاس تابعة لشركة بترول قطاع عام .

وذات يوم كان عائدا بسيارته من السويس للقاهرة بعد منتصف الليل.. وفى الطريق الصحراوى على بعد عشرة كيلو مترات من القاهرة اشتعل موتور السيارة فاشتعلت النار فى فنطاس البترول فقفز من الكبينة وظل واقفا على بُعد عاجزاً عن أى حلّ.. حتى احترقت السيارة بكامل حمولتها فأشار لسيّارة مارّة على الطريق ووصل إلى القاهرة وأبلغ عن الحادث.. واتهمته الشركة بالإهمال.. واكتفت بفصله وحرمانه من مكافأة نهاية الخدمة.. فسافر إلى دولة عربية واشتغل هناك.. ونسى الموضوع تماما.. ولكن بعد مرور ثمانية سنوات على هذا الحادث اعترض ديوان المحاسبات واعتبر البترول المحترق فى حكم

المختلس.. فاضطرت الشركة إلى إبلاغ النيابة العامة.. وقضية اختلاس وتبديد مال عام ثم محاكمة غيابية وهو فى الخارج.. ثم الشىء العجيب حكم بالسجن المؤبد.. أى خمسة وعشرين عاما .

واستند القاضى فى الحكم على أن محضر المعاينة التى قام بها مهندسو الشركة وقت الحادث يشير إلى أنه كان يمكنه فصل المقطورة عن السيارة ولكنه لم يفعل فاتهمته النيابة بأنه باع البنزين أولا ثم أشعل النار فى السيارة والمقطورة.. وفى إحدى زياراته لمصر قبض عليه وأودع السجن وبدأت إجراءات إعادة المحاكمة نظرا لأن الحكم غيابى .

بان على وجهى الانزعاج والدهشة.. كيف تحكم المحكمة على غائبٍ مثلَ هذا الحكم دون سماع دفاعه.. فأفهمنى المخضرمون فى الزنزانة أن القاضى فى كل الحالات التى لا يمثل فيها المتهم أمام المحكمة مضطر لأن يحكم بأقصى العقوبة ما دام ليس أمامه دفاع عن المتهم ليبرئه أو يبرر التخفيف.. والقاضى يحكم بأقصى العقوبة وهو مرتاح الضمير لأن هناك فرصة لإعادة المحاكمة عندما يظهر المتهم الغائب ويدافع عن نفسه .

وألمح عم سعفان كل ليلة قبل أن ينام يضرب كفًا بكفٍّ ويكلم نفسه.. (القاضى بيسألنى.. يا عم سعفان.. لما العربية ولّعت منك.. ليه ما فضلتش ماشى بها وتوجهت إلى أقرب مطافى فى مصر الجديدة.. يا ناس يا هوه.. أمشى بعربية مولعة وفنطاس فيه أربعة آلاف لتر بنزين عشرة كيلو!.. أمشى بها نص ساعة.. دى لو ما انفجرتش فى الطريق ح تنفجر فى مصر الجديدة.. روحى أنا وأرواح سكان مصر الجديدة أرخص من أربعة آلاف لتر بنزين.. عجايب) ثم يسلّم أمره لله ويسحب طرف جلبابه إلى قدميه.. وينام.

وفى إحدى الليالى وقبل أن ينام .. همس لى وكأنه يكتمنى سرا :

– أنا مش هنا علشان عربية البنزين اللى اتحرقت.. أنا هنا علشان أبويا قبل ما يموت

وأنا طايح أبدّد فى ثروته احتاج يشوفنى.. وكنت فى دنيا ثانية ومش فايق له.. فدعا علىّ وقال (روح إلهى ربنا يحوجك لابنك ما تلاقيه) وفعلا.. مراتى ماتت فى شبابها وتركت لى ولد وبنت.. الولد مات شاب وأنا فى الخارج.. والبنت متجوزة وعايشة فى الصعيد.. ورغم إن عندى فلوس لكن أنا دالوقت محتاج لابنى يقف جنبى مش لاقيه.. سامحنى يابا.. الله يرحمك يابا.. الله يرحمك يا بنى .

وبكى عم سعفان فى صدرى هذه الليلة كثيرا.. وهو ينادى ابنه وأباه.. ثم سحب طرف الجلباب إلى قدميه ونام .

* * *

أبو زيد الهلالى : فى الأربعين.. طويل متناسق الأعضاء.. وجهه أبيض مشرب بحمرة كالإنجليز.. يرتدى بصفة دائمة (ترييننج سوت) أزرق.. أنيق فى ملبسه وفرشته.. منعزل إلى حد كبير.. قليل الكلام.. أكثر من مرّة ينخرط فى بكاء حاد دفعة واحدة وفى غير موعد ثابت أو معلوم فيتجمع البعض حوله ويهدئونه فيسلم نفسه بعد ذلك للنوم حتى لو كنا ظهرا.. ولاحظت أيضا أنه الوحيد الذى قام بعملية (التكييس) أكثر من مرة .

وعملية التكييس اسمها مشتقّ من (كيس) فعندما يحتاج أحد النزلاء إلى التبول فالمعتاد هو أن يقف أمام الجميع ويفتح بنطلونه أو يشلح جلبابه ويمسك قضيبه ويتبول فى الحوض على مرأى ومسمع ومشهد من الجميع.. أما التبرز فهو أبغض الحلال.. ولم يكن يحتاجه إلا عدد قليل معروفون بانفلات أعصابهم.. وكان الكل يعذر ويقدر.. فيجلس الشخص القرفصاء وقدماه على حافة الحوض ويوجه مؤخرته إلى داخل الحوض ويتبرز فى كيس بلاستيك يضبطه تحته بيده بينما يقف متطوعان – فى العادة أقرب جارين له – يمينه ويساره ناشرين ملاءة تستره عن (بعض وليس كل) من فى الزنزانة.. ولكن ماذا تفيد الملاءة وستر جسده إذا كانت الرائحة تصل إلينا بالخبر اليقين .

ومنظر المتطوعين وهما ناشران الملاءة أو البطانية كأنهما ممسكان بطرفى ستارة فى مسرح على وشك رفعها.. وورد هذا المعنى على ذهن أحد الظرفاء فكان أثناء وجود

الأستاذ أبو زيد خلف الستارة يرفع عقيرته على طريقة الرجل المتجول بصندوق الدنيا ويغنى (واتفرج يا سلام.. أبو زيد الهلالى بيكيس) ويستمر فى شرح باقى المراحل بمنتهى الدقة والتسلسل والتفصيل (أبو زيد رجع لوره.. أبو زيد بيحزق) فيصيب البعض بالضحك والبعض بالغثيان .

ولقد ظللت أياما أترقب زيارة الأستاذ أبو زيد لى على فراشى.. أو على كرسى الاعتراف.. أو بتعبير أدق على بطانية الاعتراف.. وخشيت أن أنتقل أنا إليه فلا يرحب بى وظللت مشدودا إلى شخصيته هذه الفريدة لا سيما بعدما عرفت أنه يحمل بكالوريوس التجارة وأن قضيته اختلاس من خزينة قطاع عام كانت بعهدته وصدر ضده حكم بالسجن خمسة عشر عاما منذ شهر فقط.. وقد استأنف.. ولكن منذ صدور الحكم وهو منعزل قليل الكلام وتتملكه حالة البكاء الحاد المفاجئ وحالة التكييس المتكرر .

وأخيرا جاء الأستاذ أبو زيد بعد أن رشوته أكثر من مرة بكوب شاى توددا بغير إفصاح .. واعترف.. ونادرا ما يعترف النزلاء هنا فى سجن الحبس الاحتياطى خشية (المرشدين) ولكنى سمعت أن الاعترافات تكون صريحة.. بل ومتبجحة وتحكى فى تباه بين النزلاء الذين يقضون مدة العقوبة فى السجون الأخرى بعد فقد الأمل فى الاستئناف وعندما يصبح الحكم نهائيا.. فهناك لا يخشى النزلاء من المرشدين لأن وشاياتهم لن تغير الحال.. وقصة أبو زيد حكاها وهو منهار يبكى كالأطفال.. تزوج ولم ينجب.. وعرض نفسه وزوجته على الأطباء فاتضح أنه محتاج لعلاج طويل الأمد يحتاج إلى سنين ومال.. ولم يتردد.. مد يده إلى العهدة للصرف منها على علاجه.. واستمر العلاج والاختلاس طوال عشرة سنوات.. كان خلالها الأطباء يؤكدون له أن الشفاء قريب وأكيد.. وزيادة فى التأكيد دأب هو وزوجته على زيارة الأولياء وتقديم الهبات والنذور وذبح الأضاحى على أعتاب الأضرحة وتوزيعها على الفقراء فى كل مناسبة تقرّبا إلى صاحب الضريح أن يفك كربته.. ثم حج إلى بيت الله.. وكل هذا من مال الدولة .. وفك الله كربته ومنّ عليه بولد (الخالق الناطق أبوه) هكذا قال.. فأقام الأفراح والليالى

الملاح.. ويوم أسبوع المولود جردت عهدته وافتضح سره وقبض عليه .

وختم قصته وهو يضرب كفًا بكفّ.. ويقول :

– عشر سنين باتعالج علشان ييجي الولد.. ولما هو جه رحت انا فى داهية .. عشر سنين علشان أجيبه ولما جه مش ح أقدر أصرف عليه ولا أربيه.. انتظرته عشر سنين وما عاشرتوش عشرة أيام .

ورغم دموعه الغزيرة.. كِدْتُ أضحك .

* * *

ملك التزوير : اسمه فؤاد.. فى الستين.. وهو شقيق فنانتين كبيرتين شهيرتين.. إحداهن ممثلة شاملة خفيفة الدم والثانية مطربة مرموقة.. أبيض البشرة والشعر.. له ملامح شامية.. وبالفعل عرفت منه أن والده كان سوريا ونزح بأسرته إلى مصر.. مهنته إرثا عن والده (زنكوغرافجى) احترف تزوير جوازات السفر للشخصيات الكبيرة وتجار المخدرات الصادر ضدهم أحكام والمطاردين السياسيين الراغبين فى الفرار خارج البلاد.. وتسعيرته لجواز السفر الواحد لا تقل بأى حال عن ألف جنيه.. وهو محبوس على ذمة أربع وأربعين قضية لأربعة وأربعين جواز سفر مزور.. حكم لصالحه بالبراءة فى ثلاث وأربعين وما زال محبوسا على ذمة القضية الأخيرة .

ولما سألته بانبهار.. أجاب بلهجة الواثق أنه سوف يخرج من هذه القضية كما تخرج الشعرة من العجين وأنه سيحصل على البراءة ككل القضايا.. ولما ناقشته قال :

– القانون مغفل.. بيشترط لتطبيق عقوبة التزوير أن يكون خاتم شعار الجمهورية مطابقا تماما للخاتم الأصلى.. أما إذا لم يكن مطابقا فيعتبر مجرد رسم وليس تزويرا.. ومع وجود محامى (شاطر) يوضح هذه الثغرة فى القانون ويصرّ عليها يحكم بالبراءة.. وأنا أراعى دائما فى كل ختم أقلده أن يكون فيه شىء مخالف للخاتم الأصلى ولكن بطريقة لا تخطر على بال.. فمثلا.. بدلا من أن أجعل منقار النسر جهة اليمين أجعله جهة اليسار.. وهذا شىء لا يخطر على بال الناس عادة ما دام الرسم مطابقا فى الشكل

وفى الحجم .. ثم سألنى بطريقة العارف الخبير:

- هل تعرف أنت منقار النسر فى شعار الجمهورية يمين أم يسار؟

فهرشت رأسى متذكرا ثم قلت:

- لا .

- أنا أستفيد من هذه المعلومة الإنسانية البسيطة التى تقول (الواضح لا يطرأ على الذهن) .

- طيب إزاى الحكومة كشفت التزوير؟

- الحكومة ما كشفتش التزوير.. فيه مطلوبين هربوا .. وبالتحقيق مع بعض المقبوض عليهم اعترفوا وأرشدوا عنى .

- علشان كده سمّوك.. ملك التزوير .

- الملك لله .

* * *

حضرة المفتش : كما كنا نناديه دائما.. فى الخمسين.. منفوخ الصدر كالديك الرومى.. له عينا صقر وأنف طويل حاد قاس وفكان غاضبان بغير غضب.. كان ينتحل صفة مفتش تموين وبياغت المحلات ومعه بعض معاونيه منتحلين صفة مخبرين.. ويستولى على بضائع بحجة عرضها على المعامل لتحليلها.. ولسوء حظه استملحت زوجته لحم أحد الجزارين واستحلفته ألا يشترى اللحم إلا منه.. ودأب على مداهمة محله والاستيلاء على (فخدة) كل أسبوع بحجة الكشف عليها .

وتحرّى الجزار عن اسمه فى الإدارة ليعقد معه معاهدة صلح مقابل رشوة معلومة كل شهر بدلا من هذه المداهمة التى تسبب للمحل سوء السمعة.. فلم يجد بين المفتشين من يسمى باسمه ولا من يوصف بأوصافه.. فتربص له مع بعض صبيانه وجيرانه وعمل له كمينا.. فلما حضر كالعادة ودخل إلى المحل منفوخا وفتح باب الثلاجة متفحصا.. هجم عليه الجزار وصبيانه وأغلق الثلاجة على ذراعه فأطلق جنوده

المزيفون سيقانهم للريح .. وكلما سألناه فى ساعات الهزر والصفاء :

– المعلم عمل فيك إيه يا حضرة المفتش؟

– شبك خطاف اللحمة فى ياقة الچاكتة من عند قفاى .. وشالونى صبيانه وعلقونى مع اللحمة .

– المعلم قال لك إيه يا حضرة المفتش؟

– قال لى انت عجوز.. خليك جنب الكندوز .

– اللحمة كان طعمها إيه يا حضرة المفتش؟

– عسل .

– مراتك قالت لك عليها إيه يا حضرة المفتش؟

– اللحمة صغيرة يا ابو محمد.. ما أخدتْش على النار غَـلْوَة.. والنبى ما عدت تجيب لنا إلا منه.. الله يخرب بيتها هى اللى ودتنى فى داهية.. كان مرة من شبرا ومرة من السيدة ومرة من العباسية وكانت ماشية والآشية معدن.. كان لازم يعنى تحكّم رأيها!

* * *

مفتش المباحث : شاب فى الثلاثين.. مؤهل متوسط.. كان سكرتيرا لمفتش المباحث.. ومن كثرة كتابته ومعايشته للأحداث تملكه الوهم والخيال وعاش ليالى فى هوس وشهوة السلطة.. وتقمصته شخصية رئيس المباحث.. فاختار بعض الشباب العاطل وشكل منهم مجموعة عمل ودربهم على أعمال لجان تفتيش المباحث التى تهاجم أوكار القمار والدعارة والتى يتولى أمرها رئيسه المباشر.. واختار لنشاطه الملاهى.. يدخل ويدخلون خلفه وأمامه موسعين له الطريق منبهين لقدومه.. مرتديا البالطو رافعا ياقته وعلى عينه منظار أسود كرجال شرطة أسكوتلانديارد.. ويمرون بالمحل بعيون متفحصة.. فيتبعهم صاحب الملهى وموظفوه مرحبين.. ثم يتقدم إليه منحنيا باسما ويدعوه إلى

السهرة فيقبل بعد رجاء.. ويحتل هو ورجاله منضدة سرعان ما يملأها الجرسونات بأشهى الأطعمة والمشروبات.. وبعد أن تمتلئ بطونهم وتنتعش رؤوسهم يغادرون المحلّ فى تعاظم كما دخلوا.. بعد إلقاء عدة أوامر ونصائح وتحذيرات لصاحب المحل.. وهكذا كل يوم فى محل.. وساعده على ذلك أنه كان بحكم عمله يحفظ الإجراءات القانونية الخاصة بهذه المحلات.. وأيضا أسماء جهات الأمن المختصة وأسماء الرتب الكبيرة.. فاستطاع أن يتقن دوره .

والذى كشفه أنه فى إحدى الليالى بعد أن سكر استملح راقصة فتبعها هو ورجاله بعد مغادرتها الملهى وهاجموها فى بيتها بحجة التفتيش.. وقضى هو رغبته معها.. وحتى هنا كان ممكنا أن يظل الأمر مستورا.. ولكن المشكلة أن رجاله جردوا الشقة من المصاغ والمال أثناء التفتيش.. فارتابت الراقصة فى الأمر.. وذهبت فى اليوم التالى إلى المباحث تبحث عن حضرة المفتش لتشكو له ما فعله رجاله.. فاكتشفت أنه مجرد كاتب فأطبقت فى خناقه .

وكان يجلس أحياناً يحكى لنا مغامراته مع راقصات شارع الهرم.. وكنا نؤمّن على كل ما يحكيه سواء أصدّقنا أم كذّبنا.. من باب التسلية وقطع الوقت .

* * *

المحامى المزوّر : محام فى الأربعين.. خلص عشرات المتهمين فى قضايا المخدرات من حبل المشنقة أو السجن المؤبد بحيلة بسيطة.. فأثناء نظر الدعوى.. وبعد جلسة أو جلستين كان يقدم للقاضى شهادة بوفاة المتهم فتحفظ القضية .. وتصادف وجود ضابط شرطة فى المحكمة مطلوب للشهادة فى قضية.. ورأى المحامى وهو يقدم للقاضى شهادة بوفاة واحد من أشهر تجار المخدرات فندّت عنه همهمة ودهشة.. وكان جالسا فى الصف الأول فانتبه القاضى وسأله فقال :

– هذا المتهم دوّخ المديرية فى تجارة المخدرات .. كنت أستجوبه فى تهمة جديدة أول إمبارح .. وآدى آخرتها وسبحان من له الدوام .

ولم يكن الضابط يشكّ في وفاة المتهم.. فقط كان يتعجب لتصاريف القدر مع هذا المهرب الذى ظل يكتنز ثم مات وترك الجمل بما حمل.. ولكن خاطرا أضاء فى ذهن القاضى فجأة .. فعاد يسحب شـهادة الوفاة من الملفّ الذى أمامه ويقرأ تاريخ الوفاة .. ثم رفع رأسه إلى الضابط وسـأله فى لهفة:

– بتقول كان عندك أول إمبارح؟

– أيوه.. والنيابة أفرجت عنه بضمان سكنه .

– ولكن الشهادة بتقول إن تاريخ الوفاة من أسبوع .

وأحال القاضى شهادة الوفاة إلى النيابة التى أمرت بالقبض على المحامى المزور.

وكان السجنـاء يستفتونـه فى قضايـاهم.. وفى موقف.. بعد أن أفتى فى قضية داعبـه النزلاء :

– إوعى تكون الفتاوى دى كمان مزوّرة .

– ده تلاقيه معاه الإعدادية بس.. وزوّر الليسانس .

– لأ يا إخوان.. هو محامى بصحيح.. بس كان متعود يغش فى الامتحانات وهو طالب.. فلما اتخرج بقى يغش فى المستندات .

* * *

**النصابان:** شابان افتتحا محلا لبيع الأجهزة الكهربائية.. غسّـالة. ثلاجة. تليفزيون. بوتاجاز. كاسيت. مروحة.. وخلافه.. جهزوا المحل ووضعوا فى الفاترينة عينات من هذه الأصناف من قبيل العرض فقط.. وبوسائلهم الخاصة وبمندوبين لهما أخذا يتعاملان مع الموظفين المتعثرين المعسرين.. يوقع الموظف على عقد بأنه اشترى واستلم من المحل ثلاجة بمبلغ ما.. ويحرر بالثمن مجموعة من الكمبيالات مدفوعة على أقساط شهرية.. ولا يحصل الموظف على الثلاجة.. ولكن على نصف قيمة الكمبيالات الموقعة منه نقدا.. ويقوم المحل بصرف القيمة من بنك ناصر خصما شهريا من مرتب الموظف .

والذى كشف الحيلة أن موظفا مدينا للبنك أصدرت جهة عمله قرارا بوقفه عن العمل ووقف صرف مرتبه لأسباب خاصة بالعمل.. فاتخذ البنك إجراءات الحجز على الثلاجة فلم يجدها.. واكتشف الحقيقة فأبلغ النيابة.. واتضح أثناء التحقيق أنهما بهذه الحيلة وخلال ثلاث سنوات جمعا مليونى جنيه وضعاها فى شركة توظيف أموال.. وترحل المليونان ضمن الملايين التى ترحلت إلى الخارج.. وترحلا هما إلى السجن.. عملا بالمثل الذى يقول (من جاء من حرام ذهب إلى حرام) أو (ما جاء سهلا ذهب سهلا) .

* * *

المخدوع : الوحيد الذى كان يرفع شعارا مخطوطا على ورقة كرتون يعلّقها على الحائط خلف ظهره (احترس من النسوان) وظلت عينى على شعاره ولعابى يسيل على زيارته لى وسماعى لقصته حتى جاء بقدميه كالآخرين.. وكما قلت.. كل شىء هنا يتمّ بالعدوى.. شابّ لم يتجاوز الثلاثين.. ثالث ثلاثة فى الزنزانة صدرت ضدهم أحكام بعد عمّ سعفان والأستاذ أبو زيد ولكن حكمه هو نهائى بعد الاستئناف ومنتظر صدور التعليمات بترحيله إلى السجن لقضاء العقوبة ومدتها خمس سنوات .

وحكايته أنه تزوّج من فتاة شرهة للمال.. يقول إنها أيام الخطوبة وأثناء جلساتهما الشاعرية وأحلامهما الأولى على شاطئ النيل فى ضوء القمر . كانت تسأله كثيرا عن حجم الأموال التى بعهدته .. وكان لسذاجته يظن أنها تسأله لتتباهى أمام صديقاتها بضخامة المبلغ الذى فى حوزته ومدى ثقة الشركة به.. وبعد أن تمّ الزواج لم تقتنع بالعيش فى حدود دخله.. وظلت تحرّضه وتزين له وترسم له الخطط حتى اختلس.. وأخذت كل ما اختلسه بحجة إخفائه عن العيون ثم أبلغت عنه الشركة برسالة مجهولة.. وأثناء المحاكمة وقبل أن يصدر ضده الحكم أفرج عنه بكفالة تحت ذمة القضية.. ولم يكن فى وقتها يعرف أنها المبلغة.. فأوعزت إليه بالهروب إلى العراق وبعد صدور الحكم.. إن كان البراءة يعُدْ.. وإن كان الحبس تسافر هى له.. وسافر.. ثم صدر الحكم بالسجن

خمس سنوات.. وبدلا من أن تسافر له كما وعدت.. رفعت دعوى وحصلت على حكم غيابى بالطلاق.. وبعد سنوات قبض عليه البوليس الدولى ورحّله إلى مصر.. فوجدها قد تزوّجت .

إنه متلهف على الترحيل إلى السجن لقضاء العقوبة والانتهاء منها ليخرج إلى الحرية لا لكى يسافر أو ليعوض ما فات، ولكن ليرتكب جريمة أكبر قد تكلفه المؤبد أو الإعدام.

* * *

روميو شارع الهرم : كتبت عنه الصحف (يبيع عدّادات النور وينفق على الراقصات فى كباريهات شارع الهرم) شاب فى حوالى الثلاثين.. خريج كلية التجارة.. ريفى ساذج ضئيل الجسم حليق الرأس.. وشكله عموما بعيد جدا عن الوسامة.. ومن النوع الذى لا تلتفت إليه النساء.. طوال الوقت يرتدى جلبابا قطنيا لا هو فى طول الجلباب ولا فى قصر القميص.. كان ينتهى تحت الركبة بقليل كأنه جلباب أخيه الصغير.. وقماشه وطريقة حياكته تدل على فقر مدقع.. وحكايته أنه عين مفتشا بشركة النور.. ويوما أبلغ الشركة بوجود عداد فى أحد المنازل مخالف لشروط التعاقد تم تركيبه بطريقة غير قانونية.. وقامت الشركة بضبط الواقعة بناء على تبليغه.. ولكن صاحب العداد المخالف ادعى أن المفتش سبق أن حصل على رشوة مقابل هذا الوضع الخطأ.. قصة عجيبة غير منطقية.. كيف حصل على رشوة ووافق على التركيب المخالف وكيف أبلغ.. ورغم القبض على صاحب العداد.. أمرت النيابة بالقبض على المفتش وتكليف الشركة بتشكيل لجان لمراجعة كل عدادات المنطقة محل الواقعة وإبلاغ النيابة لتحديد موقف المفتش .

وسألتُه عن حكايته مع راقصات شارع الهرم التى وردت فى الصحف وأنا على يقين أن مثل هذه الشخصية مستحيل أن تعرف الطريق إلى الكباريهات.. ولا تعرف كيف تنشئ علاقة غرامية حتى مع خادمة.. فأجاب :

– الصحفى اللى نشر الحادث نقله من محضر التحقيق .. ولما وجد عنوانى فى المحضر (شارع الهرم خلف كازينو الليل).. ألّف الموضوع على هذا الأساس.

وظلت تسليتى فى الليالى التالية عندما أقوم بتقديمه لنزيل جديد.. أقول:

– الأستاذ سعيد.. عربيد وسكّير ومرقّع وابن بلد.. ومدوّخ نساء مصر.. وكان ماشى مع كل راقصات شارع الهرم.. يقدّم هداياه لضحاياه عدادات نور فى علب فاخرة.. ويوماً ما قدّم هدية لنجوى فؤاد عداد (ثلاثة فاس) وقدم لسهير زكى عداد (فاسة واحدة) فاغتاظت ووشت به.

وكان يفتح فمه كالأبله لأنه يسمع هذه الأسماء لأول مرة.. وشخصيته وشكله تكذب تماما ما أقول.. وهو محبوس إلى أن تنتهى اللجان من جرد كل عدادات المنطقة الخاصة به وتكتب عن ذلك للنيابة العامة.. بعد سنة.. سنتين.. أكثر.. وسوف تتكلف الدولة مصاريف وتكاليف لجان حصر وبدلات انتقال وتكاليف تقارير تزيد مائة مرة أو مئات المرات عن بضعة الجنيهات رسوم التركيب المتهم باختلاسها .

* * *

اللاجئ : اقترب من الأربعين.. ملتح.. مبتسم دائما وابن نكتة وخفيف الظل وكثير الاستدانة من النزلاء.. متهم بتزوير شيكات سياحية.. تفقه فى حرفته وأتقنها لدرجة أنه يعرف كيف يطلع على الشيكات السياحية وأرقامها الخاصة بالسائحين بين دول العالم بطريقة معقدة وذكية لم أستوعب شرحه لها نظرا لأن لهجته نصف فلسطينية ونصف أوربية.. المهم أنه فى النهاية يستطيع صرف قيمة الشيك السياحى ويسيح به ويمتّع شبابه فى فنادق الخمس نجوم فى جميع دول العالم معتمداً على وسامته وثيابه الفاخرة وإتقانه لعدة لغات .. يهز كتفه باستهانة واستهتار ويقول:

– رجّعوا لنا بلدنا واحنا نعيش.. ما دام بلدنا مسروق.. حلال نسرق فى أى بلد .

وأغلب دول أوربا تتنافس على اصطياده.. ولكن مصر المحروسة ظفرت به.. وكان يسألنى على سبيل الهذر:

– من فضلك.. هو أوتيل طره بالاس ده.. درجة إيه؟.. أصل أنا ما اقدرش أتنازل عن مستواى.. أنا دايما أنزل فى الأوتيلات الخمس نجوم.. بلّغ المسئولين إن الأوتيل ده مش من مستواى .

فأصبّره بنفس الدعابة التى يتكلم بها وأعده أن رغبته سوف أوصلها للإدارة لتعمل على رفع شأن السجن وتحسين الخدمة به إكراما لخاطره ومستواه.. وأشير إلى الحوض قائلا :

- سوف أحثّهم على أن يبنوا فى كل زنزانة حوضين بدلا من حوض واحد.. أحدهما للبول والثانى للبراز.. عملا بمبدأ التخصص بدلا من هذه الفوضى .

فيهزّ رأسه فى عظمة ممتنّا .

* * *

موثق الشهر العقارى : عبد النبى شاب يمثل الجيل الجديد الذى يتخرج فى الجامعة ويلتحق بالحكومة ثم يكتشف بعد سنوات أن ليس من حقه فى هذا البلد سوى مرتبه الضئيل الذى لم يغنِه عن (المصروف) الذى كان ومازال يأخذه من والده.. ولم يغنه عن نصيبه الضئيل من الفراش فى بيت أبيه والذى كان يبيت عليه وهو طالب ابتدائى ثم إعدادى ثم ثانوى ثم جامعة.. أما المسكن والزوجة والدخل المناسب فمجرد أحلام مقلقه للراحة .

وتحت ضغط واقعه وأحلامه بدأ يتنازل عن إجراءات الحيطة والحذر عند التسجيل مقابل رشوة.. وسجل لمهرّب عشرات السيارات.. وهو الآن مطالب برد قيمة جمرك خمسين سيارة مرسيدس.. وحسبنا المبلغ فى إحدى سهراتنا فوجدناه يربو على المليون.. وكنت فى هزرى معه أنصحه بأن أقرب وأسهل الحلول أن يسدد لخزينة الدولة مليون جنيه ليطلق سراحه.. فيهز رأسه موافقا ويعدنى بأنه سيحرر لهم شيكا بالمبلغ فى أقرب فرصة .

* * *

رئيس الجمعية : مسئول عن جمعية استهلاكية.. فى الأربعين تقريبا.. حكى لى حكايته وهو يبكى.. فاجأته الشركة بجرد عهدته فوجدوا عجزا.. لا سيما فى البلح الأبريمى المعروض بمناسبة اقتراب شهر رمضان.. وهو يقسم أن الأصناف التى ظهر بها العجز تجف ويقل وزنها فما ذنبه.. ولكنى لم أصدقه.. ربما لأنى كنت أصلا مغتاظا

ككل الشعب من موظفى الجمعيات الذين لا يراعون العدالة فى التوزيع.. وربما لأنى لاحظت أنه ينفـق بسخاء والطبليـة تأتى له كل يوم محملة بخيرات كثيرة ولا تخلو حتى من زجاجات المياه الغازية واللبان والشيكولاتة.. مما لا يتناسب مع دخل مجرد رئيس جمعيـة .

* * *

النوبتـجى: بكالوريوس تجارة وشاعر.. قرّر أن يختلس من الخزانة التى بحوزته مليون جنيه.. وأقول (قرر) لأنه دبر وخطط ورسم وحسب لجريمته قبل ارتكابها ألف حساب.. وبعد دراسة جدوى مستفيضة دعا زوجته إلى سهرة للعشاء وشرح لها على الورق خطته.. (مبلغ كذا لفتح بوتيك تستتر خلفه بأنه مصدر رزقها هى والأولاد طوال مدة سجنه.. ومبلغ كذا مصاريف البيت وإيجار الشقة فى ثلاث سنوات هى مدة العقوبة التى سيحكم بها عليه حسب نص القانون.. ومبلغ كذا مصاريف الأولاد فى المدرسة الأجنبية.. ومبلغ كذا لزوم المحامين ومصاريف السجن والرشاوى.. بعد كل هذا وأية احتمالات أخرى.. يتبقى نصف مليون تدخر لحين خروجه بعد قضاء مدة العقوبة ليعيشا بعد ذلك أثرياء) وبمنتهى البساطة سحب المبلغ.. ودفع لها كل ما اتفقوا عليه وأخفى النصف مليون الأخرى فى مكان لا يعلمه أحد سواه.. وجهز كل لوازم الرحلة ثم أبلغ عن الحادث .

وبعد أن توطدت العلاقة بيننا فى الأيام التالية كان يقول لى ببساطة ونحن نحتسى الشاى على فراشه أو فراشى:

– كأنى مسـافر ثلاث سنوات إلى دولة عربية.. هل لو كنت سافرت كنت ح اقدر أدخر نصف مليون؟.. بالطبع لأ.. إذن هذا الوضع أفضل.. لو سافرت كنت ح أشوف زوجتى وأولادى مـرّة كل سنة .. ولكن دالوقت باقدر اشوفهم كل أسبوع.. وزىّ ما انت شايف.. كل شىء بيوصلنى بمنتهى الراحة حتى لو طلبت لبن العصفور.

* * *

المطـــرب : أشرفَ على الخمسين.. كان من كبار موظفى الدولة وانتدب عضوا بلجنة مشكّلة فى وزارة الأوقاف لتوزيع شقق تمليك فتلاعبوا فى تسليمها لمستحقيها.. والمؤلم فى قضيته أنه من أسرة كبيرة أغلبها تحتل مراكز مرموقة فى السلطة.. فتبرأوا منه خوفا على مراكزهم وكراسيهم.. حتى زوجته طلقت منه بحكم محكمة خوفا على مركز أخيها السفير.. ومن تاريخ القبض عليه منذ عام ونصف لم يزره أحد ولم يصله أى ملبس أو طعام.. وهو يقضى أيام حبسه على ذمة القضية آخذا على عاتقه الترويح عن النزلاء بالغناء فى السهرة.. ورغم أن صوته أجشّ ولا يصلح للغناء بأى حال إلا أنه فى نظر النزلاء أفضل مَن (مافيش).

ولاحظت أنه فى بعض الليالى.. بعد صلاة العشاء يسحب الجردل ويبدأ الدق رغم ما يكون عليه من إعياء أو مرض أو حالة اكتئاب مما ينتاب المساجين عادة من غير سبب مباشر.. وذلك شعورا منه بأنه مكلف بذلك مقابل استضافة أى مجموعة له عند كل وجبة.. ولاحظت أيضا بتوالى الأيام أنه يقوم بنشر البطاطين فى الشمس كل صباح لبعض النزلاء الذين يولونه عطفا وكرما خاصا ويسددون عنه رسوم الخدمات.. وهكذا يكسب عيشه واستمرار أيامه بخدمة الآخرين الذين كان أمثالهم يتمنون خدمته والتمسح فى ركابه أيام أن كان فى السلطة.. وكان يرفع عقيرته مجهدا نفسه مشهدا الجميع كم يبذل من جهد لإسعادهم.. ليحلل لنفسه ولهم اللقمة التى تحفظ عليه حياته.. كبهلوان يتشقلب ليسعد الناس وهو شقى.. يضحك ويلعب ويغنى وقلبه يبكى.. وكان قلبى يدمى له.. وبدلا من أن أضحك كالآخرين كنت أصاب بالأسى والإشفاق.. وهو الوحيد الذى ظللت حريصا على ألا أزوره أو يزورنى حتى لا أورطه فى أن يحكى ويعترف وسمعت كل قصته من الآخرين.. قائلا لنفسى (لا تحرك مواجعه وكفاه ما هو فيه وكان الله فى عونه) والشىء القدرى المحزن.. أنه ذات صباح أثناء ترتيبه لفراش بعض النزلاء.. وكنت أنا خارج الزنزانة.. تورط والتقط أجندة مذكراتى وقرأ بنفسه قصته هذه بنفس النص.. وأعاد المذكرات إلى مكانها تحت مخدتى وجلس يبكى طوال اليوم.. وفى السهرة كان يغنى بانفعال وشجن ودموع.. فهمس لى جارى:

– أصله قرأ مذكراتك يا أستاذ وانت كاتب إن صوته كصوت الحمار .

فتألمت أياما ثم عُـدت باللوم عليه.. من قال له أن يمدّ يده ويقرأ أسـرارى.. إنه حمار فعلا.

* * *

الأسطى عوض : جارى المباشر من جهة اليمين.. اقترب من الستين نحيف ملتح.. وجهه أسمر حلو صبوح مبتسم دائما فى صبر.. قليل الكلام لبق حكيم شمولى الرؤية .. كان يتطوع بتهذيب فرشتى ويدفع إلىّ بكوب الشاى فى الوقت المناسب ويسألنى إذا ما شردت.. هل أحضر لك أسبرين؟.. ويتحفنى بنصف كوب عرْقسوس وتظل عيناه علىّ أغلب الوقت كأنه مكلف برعايتى.. يقرأ وجهى ويسألنى ويحاول إراحتى بشتى الطرق كأنه المسئول عن محنتى.. وعندما نفدت سجائرى تولى هو دفع كافة رسوم الخدمات عنى لعدة أيام حتى وردت لى سجائر مع الزيارة فسددت له الدين.. وبعد أسبوع من معاشرتى له أصبت بإحباط عندما دفع إلىّ برسالة لكى أقرأها فاكتشفت أن هذا الرجل الذكى لا يقرأ ولا يكتب.. كان عاملا بالحكومة وسوّى معاشه مبكرا وافتتح مسبكا صغيرا.. وهو محبوس لأن موظف المعاشات سوّى له المعاش بزيادة ثلاثة جنيهات وظل يصرف المعاش دون علمه بهذه الزيادة لمدة ثلاثة أشهر.. ولو كان الأمر قاصرا على معاشه لاكتفت النيابة بتسديده التسعة جنيهات التى حصل عليها إلى خزينة الدولة.. ولكن جهة المعاش اكتشفت أن الخطأ شمل أربعين حالة أخرى.. ودفع الأسطى عوض أمام النيابة بأنه لا يقرأ ولا يكتب.. ولو كانوا صرفوا له المعاش أقلّ مما يستحق لاقتنع به وظنه حقه كاملا.. فهو لن يعرف أكثر أو أفضل من الحكومة.. ودفع نصحى أفندى الموظف المسئول بأنه لم يخطئ.. وأن الأربعين حالة محلّ التحقيق كلها صحيحة.. وأن الزيادة المشتبه فيها ناتجة عن الفرق فى تطبيق قانونين.. أى عن ثغرة فى القانون.. وحاول شرح ذلك للنيابة ولكنها افترضت سوء النية بين الموظف المسئول والأربعين شخصا المحالين إلى المعاش واستقر فى يقينها احتمال أنه كان يحصل على رشوة مقابل رفع المعاش.. أو كان يتقاسم هذه الزيادة معهم بالتحايل واستغلال الثغرة

التى يقول عنها.. فأمرت بحبسهما.. ثم حكمت المحكمة بإحالة الموضوع إلى خبير.. ولحين استدعاء الأربعين.. خيارا أو جبرا.. ولحين انتهاء الخبير من تقريره.. سيظلان محبوسين على ذمة القضية.. وفى بعض الليالى يهزّ الأسطى عوض رأسه فى أسى ويرفع إصبعه فى وجهى قائلا:

- أربعين متهما أحرار وأنا الوحيد اللى محبوس.. لأنى احترمت القانون ورحت النيابة برجلى .

* * *

أيوب المصرى : الأستاذ ويليام.. المسيحى الوحيد فى الزنزانة.. فى حوالى الخمسين.. له جسم محدود وملامح مصرية فرعونية ووجه نحيف مجهد يذكّرنى بملامح رفات رمسيس الثانى.. مثال للصبر والاحتمال.. وتأكد لى ذلك كما سوف يرد فى باقى قصته وتطورها مع الأيام.. فأطلقت عليه (أيوب المصرى).. أسعدنى بأن قال لى فى بداية حديثه وهو يقدم لى نفسه:

- إنت أبونا.. وأنا جى اعترف لك .

مهندس.. ومسئول عهدة قطع الغيار فى هيئة قطاع عام خاصة بالنقل.. وكل غلطته أنه كان يجامل أو كان يؤخذ بسيف الحياء.. فكان رؤساؤه يطلبون منه قطع غيار لسياراتهم الخاصة على سبيل الاستعارة بحجة عدم توافرها فى الأسواق فيلبى.. ولما اشتدت وطأة الطلب عليه وبدأ يستشعر فداحة العجز كف عن الاستجابة فاغتاظ أحدهم ووشى به فى رسالة كيدية.. وتم جرد مخزنه وحصر العجز وأودع السجن على ذمة القضية.. وهو يقسم بأغلظ الأيمانات طوال الوقت أنه برىء من أى سرقة أو انحراف.. ويبكى لأن رؤساءه الذين جاملهم والذين هم السبب فى ورطته تخلوا عنه.. بل وتبرأوا وأعلنوا استنكارهم لجريمته.. ولقد تأكد لى أنه لم يجْنِ أى ثروة من وراء وظيفته ولا مجاملاته وأنه دخل السجن وهو خالى الوفاض.. وبيته مهدد بالضياع بعد أن أوقف مرتبه.. وطبليته كانت تأتى فقيرة.. عدة أرغفة وجبن ومعلبات بقول قليلة من حين لآخر.. أما الشاى والسكر فكان يعتمد على دعوة الآخرين وكانت كثيرة نظرا لذوقه

ورقته وأدبه.. وكان يتأخر دائما عن دفع الرسوم المقررة من السجاير للخدمات المختلفة ويقترب من المحصل ويهمس له فى حياء وحرج شديد ويستسمحه أن يمهله يومين حتى يفرجها الله.. وقمت كثيرا بتسديد ديونه فى غفلة منه وأوصيت بعدم إبلاغه.. وكان يظن أن المحصل نسى أو غفل عنه.

واصطفانى بحبه.. فكان ينعزل بى فى آخر الفناء بعيدا عن أعين النزلاء ويبكى حظه وبيته الموشك على الضياع وأولاده الأربعة الطلبة فى الثانوى والإعدادى وقد اقتربت الامتحانات ومحتاجون رعايته ووجوده.

ومن المواقف التى أدمت قلبى ووجدتنى دون أن أدرى أبكى معه أن أحد أولاده كان يحضر كل يوم بالطبلية الفقيرة لا ليحضر طعاما ولكن ليحضر فى الأوانى الدروس المقررة له ولإخوته فيسهر طوال الليل ليكتب الشرح والإجابة.. وهكذا ظل يقوم بكل الدروس الخصوصية لأولاده بالمراسلة من داخل الزنزانة عبر أوانى الطعام.. وأشهد الله أنى لم أره يتناول خلاف الخبز والجبن.. ولو كان هذا الرجل قد استفاد من الجريمة المتهم بها لوفر على نفسه وعلى أولاده هذا الجهد الشاق ولأوكل أمرهم إلى مدرسين خصوصيين لاسيما أن أحدهم كان فى الثانوية العامة.. ولكن المسكين كان يجاهد خارج وداخل السجن.. ورغم أن نقص العهدة ثابت ضده إلا أننى بمعاشرته أصدق روايته وأعتقد أنه برىء فعلا.. راح ضحية الحياء والمجاملة.

وظللت أرقب طبليته كل يوم بقلق وهو يتسلم الأوانى فارغة ليس بداخلها سوى ورق وكتب فينكفئ عليها طوال الليل ليكتب الإجابة والحلول.. وتعاد الأوانى نظيفة كما أتت.

وذات يوم نادى الميكروفون بأن كل النزلاء المسيحيين مدعوون للقاء القسيس فى مبنى المستشفى.. فذهب ويليام وغاب نصف ساعة وعاد حاملا هدية من الكنيسة.. (عظة بالصبر.. وملابس داخلية) قدمها إلىّ وهو سعيد كطفل فرح بملابس العيد.. فقلت له:

- لو كنت أنا القاضى وعرفت ظروف بيتك وأولادك ما قبلت أن أعاقبك رغم أن التهمة ثابتة عليك.. لأن هذا معناه أنى أظلم خمسة من أجل تحقيق العدالة فى واحد.

* * *

بعد أن تعرفت على كل حالات زنزانتى تشبعت بمناخ السجن حتى قبل أن أستمع لباقى أنواع الجرائم فى الزنازين المختلفة.. فتبينت أنه أحيانا لا تتناسب العقوبة مع الجريمة.. فأحيانا كنت أجد الجريمة أكبر من العقوبة كما فى حالة نوبتجى الزنزانة الذى درس الموقف القانونى وتأكد أن العقوبة هى ثلاث سنوات مقابل مليون جنيه.. وأحيانا العكس كحالة عم سعفان.. وبعض الحالات لا تستحق الحبس كجارى الأسطى عوض.. الذى سيظل محبوسا إلى أن يصل إلى المحكمة تقرير الخبير.

وهنا لا تعرف الحقيقة من الكذب.. فالكل يدعى أنه برىء.. والكل يبكى.. والكل يقول يارب.. وأحيانا نفاجأ بنزيل يبكى أو يلطم ويشق ملابسه فنتجمع حوله فيقسم بكل الأديان أنه برىء.. فنصبره ونقول له مقولة مشهورة هنا فى السجن (أنت برىء.. ولكن الله أوقعك فى هذا المأزق سدادا لذنوب أخرى قديمة أفلتّ فيها من العقاب.. فحبسك هذا تكفير عن أخطاء أخرى لم تعاقب عليها) وكان السجين بعدها ينعزل فى جانب ويشرد عاصرا ذاكرته.. محصيا أخطاءه القديمة.. متحيرا.. أى هذه الأخطاء التى يسدد عنها العقوبة الآن ؟.

وزارنى يوما نزيل وطلب منى كتابة عدة رسائل وكانت رسالة منها موجهة إلى أولاده يوصيهم بسداد كل الحقوق التى أكلها على آخرين.. وأرفق بالرسالة كشفا بأسمائهم والمبلغ المستحق لكل منهم.. وباقى الرسائل موجهة إلى الذين ظلمهم طوال حياته يطلب منهم الصفح والسماح ليفرج الله كربته.. والمدهش أنه كان ضمن الرسائل رسالة موجهة إلى امرأة ظلمها فى فجر شبابه منذ ثلاثين عاما.. كان قد وعدها بالزواج وبعد أن نال غرضه منها هجرها فى وقت حرج وهى حامل منه مما اضطرها إلى الإجهاض.. وبعد أن انتهيت من رسائله التى استغرقت ساعات تنفست الصعداء

وقلت له:

- الله يمهــل ولا يهمل.. وفى الســجن سبع فوائد.. باقى ذنب لم ترسل لصاحبــه رســالة.

فنظر إلىّ بلهفة متسائلا.. فقلت:

- ذنبى أنا.. ثلاث ساعات وأنا أكتب يا ظالم !

ومن الملاحظات اللافتة للنظر الإقبال على المسجد بنسبة أكبر من المعتادة فى الحياة العامة.. والبعض يدخل فى غير أوقات الصلاة بقصد قطع الوقت والتغلب على الفراغ كأنهم يدخلون النادى مثلا.. منهم من يلتمس المغفرة ومن يلتمس ألا ينكشف أمره ومن يلتمس الإفراج.. وحتى الصلاة فى حدّ ذاتها البعض يؤديها كعادة.. والبعض يعتقد أنها عملية حسابية بحتة.. فإن زادت صلاته عن أخطائه دخل الجنة.. فكلما زاد من صلاته زاد من رصيده فى مواجهة أخطائه.. ولا تعارض بين الصلاة والخطأ والمهم أن يكون رصيد الصلاة أرجح.. وقليل منهم من يعى أن فلسفة الصلاة أنها تنهى عن الفحشاء والمنكر.

* * *

ومن الملاحظات أيضا وجود شباب لم يصلوا بعد لسن العشرين كما سوف أحكى مستقبلا إحدى الحالات..

إن أقوى وأهم ما فى عملية الحبس هو (الرهبة).. فالفزع والخوف من السجن هو الشىء الذى يروع النفس ويجعلها تفكر قبل أن ترتكب الجرم.. أما الذين يجربون السجن فتزول عنهم هذه الرهبة ويصبح شيئا عاديا سبق تحمله والتعود عليه.. من هنا يسهل على من جرب السجن ارتكاب الجريمة الثانية بتردد أقل مما كان عليه عند ارتكاب جريمته الأولى.

أنا نفسى.. رغم أنى تخطيت الخمسين.. كنت أكره أن أتوجه إلى قسم الشرطة حتى لعمل بطاقة.. ويوم رأيت سجن طرة لأول مرة من الخارج من سنوات وقفت أتطلع إليه وأتفحصه فى رهبة.. أما الآن فسهل علىّ جدا أن يتكرر القبض علىّ وإيداعى

السجن.. وأصبح الأمر مجرد تحصيل حاصل وتكرار لما سبق لا يحمل دهشته ولا آلامه.. مجرد إجراءات سبق أن عرفتها ورشاوى حفظت أسعارها.. نعم لا مغالطة فى أن الحبس صعب ومؤلم.. ولكنه بالتأكيد أهون فى المرة الثانية عنه فى المرة الأولى لأنه يكون بلا وهم أو فزع أو رهبة.. فلو حافظ المسئولون على أن تظل للسجن رهبته وهيبته.. بالتحرّى الدقيق ، ما دخله جزافا شباب فى مقتبل العمر وخرجوا بخبرة فى الجريمة تشجعهم على التكرار مع تجنّب الأخطاء التى وقعوا فيها أول مرة.. فليس السجن دائما تأديبا وتهذيبا وإصلاحا. حقا أنا شخصيا استفدت من التجربة فخرجت بهذا الدرس الكبير.. وكان السجن بالنسبة لى فرصة للراحة الإجبارية الجسدية والنفسية من طاحونة العمل التى كنت أجرّها.. ومن كل شواغل الحياة التى كانت تحتوينى بحيث لم أكن أعى صبحى من مسائى ولا سبتى من ثلاثائى.. فأنا واحد من الملايين الذين شغلتهم القاهرة بنشاطها ولهاثها وارتباكها وتخبطها وانفعالها بأكل العيش.. وكنت لا أنظر لأعلى من اللافتة التى تحمل اسم طبيب أو شركة.. أما الآن وأنا هنا فى الفناء جالس على بطانيتى.. فرأسى وعيناى دائما إلى السماء.. وبعد أن تغلق علينا الزنازين لا أكفّ عن التطلع إليها من خلال قضبان النافذة الصغيرة... فى وقفة مع النفس ومع الكون كله .

* * *

صحوت مبكرا كالعادة.. وشعرت بالتهاب فى سقف حلقى مصدره على ما أظن دخان السجائر الذى تكاثف طوال الليل فى الزنزانة مختلطا ببخار البول وما تيسر من البراز فضلا عن الروائح الخبيثة التى تصدر من بعض النزلاء وهم نيام.

وجلست أتأمل الأحوال.. إن المذنب المحكوم عليه إذا مرض توقف عنه العقوبة وينقل إلى المستشفى حتى يتم شفائه.. وقد يصل الأمر إلى حد الإفراج عنه صحيا.. والمحكوم عليه بالإعدام فى كل دساتير وقوانين الدول لا تنفذ فيه العقوبة وهو مريض أو جريح.. فلماذا هذا العقاب غير الإنسانى.. بل لماذا العقاب أصلا ونحن فى نظر المجتمع والقانون مجرّد أفراد محتجزين تحت ذمّة التحقيق.. أرى كل يوم نزلاء يُحكَم لهم بالبراءة

فما هو العوض لهم عن عذاب الحبس وتكاليف التقاضى وخراب البيوت وتشرّد الأولاد وتوقّف الأنشطة التجارية والصناعية.. أليس المنطق أن يكون سجن الحبس الاحتياطى مجرد مكان للاحتجاز لا يختلف عن مستوى الحياة فى البيوت.. إن الهدف من الحبس هو مجرد الاحتجـاز وليس العقـاب.. فلمـاذا العقـاب وبهـذا الأسلوب المنافى لأبسط حقـوق الإنسان؟!.

وسمعت مقارنات كثيرة بين سجوننا وسجون أوربا.. بل وسجون الدول العربية التى وصلت إلى حد أنها مكيفة ومفروشة بالموكيت وبها دورات مياه باردة وساخنة وتليفون وتليفزيون والعهدة على الراوى.

ورغم أن إدارة السجن تضع براميل للبول ويقوم بثقبها السجانون والمسجونون المنتفعون والمرتزقون من هذا الوضع وليس لإدارة السجن ذنب فى ذلك.. فإنى أتساءل.. لماذا لا تحرص إدارة السجن بأى أسلوب على بقاء البراميل سليمة.. وهى لن تعدم وسيلة إلى ذلك.. لو فكرت الإدارة فى مؤاخذة نوبتجى كل زنزانة عن ثقب البرميل.. لو فكرت فقط فى هذا الإجراء البسيط لاختفت هذه الظاهرة المجافية للإنسانية.. إن الإدارة قادرة على السيطرة علينا كبشر فكيف لا تقدر على السيطرة على بضعة براميل.

وحتى لو كان هذا الأسلوب البشع مناسبا للغرض من الحبس فى السجون الأخرى التى تتولى تنفيذ العقوبة وترى الإدارة بعبقريتها أن هذه القاذورات جزء من العقاب و(التأديب والتهذيب والإصلاح) فما هو المبرر لاستعمال هذا الأسلوب بالنسبة لسجن تسفر الإحصائيات دائما أن حوالى خمسين بالمائة من نزلائه أبرياء.

والمدهش أنى سمعت أن بعض المميزات.. مثل التليفزيون.. موجودة فعلا فى بعض سـجوننا الخاصة بتنفيذ العقـوبة.. وتعجبت.. كيف بالله تكون للمحكـوم عليهم المدانين فى جرائم.. ولا تكون للذين لم تثبُتْ إدانتهم بعد.. وأكثر من هذا عرفت أن الإتاوات التى تفرض علينا هنا نظير كل خدمة وبأسعار باهظة.. كأنها ضريبة مشروعة واجبة أو رسوم صدرت بمرسوم والتى يقدر متوسطها فى اليوم الواحد حوالى عشرة جنيهات.. هذه الرشاوى ليس لها نظير فى السجون الأخرى.. وقال لى أحد النزلاء من

أصحاب السوابق.. (هناك ما يقدرش عسكرى يطلب من مسجون سيجارة.. فالمساجين هناك يائسين وحالتهم النفسية زى الزفت وأغلبهم أصحاب سوابق.. لو طلب منه السجان سيجارة يخرم عينه) ولكنهم هنا يخرمون عيوننا وجيوبنا وبيوتنا (عينى عينك).. والعجيب فى هذا النظام الذكى.. أن الذى يدفع محبوس والذى يأخذ محبوس.. والسادة الحراس مجرد متابعين مشرفين عن بعد.. بعيدا عن المسئولية والمساءلة.. وفى النهاية.. وفى السر.. كل العائد أو أغلبه يصل إليهم .

* * *

رآنى عم سعفان واقفا متأهبا فى لهفة على فتح الباب فظن أننى فى حاجة إلى دورة المياه.. وشرحت له أن سقف حلقى ملتهب فأسعفنى بملعقة بُنّ دلك لى بها سقف حلقى.. وتذكرت أن أمى كانت تفعل لى ذلك وأنا صغير.. وارتحت فعلا وشكرته ودعوت الله أن يفك كربته ويرفع عنه غمته ويحكم له بالبراءة.. فقال لى فى أسى من بين أسنانه المثرمة :

- يشيل خمسة وعشرين سنة علشان ملعقة بن.. ما كانتشى العين بكت.

- الحسنة بعشرة أمثالها يا عم سعفان.

قهقه عاليا وقال:

- والله حتى ولو بمليون مثلها.. برضه أفضل مديون للحكومة.

- خللى أملك فى الله.

اختفت ضحكته.. وقال:

- أيوه يا أستاذ.. الأمل فى رحمة الله.. هو اللى ممكن يخفف الحكم .. يخليه سنة.. سته أشهر.. شهر.. هو اللى قادر يهربنى من هنا .

فنظرت إليه مستفسرا.. واقتربت منه وسألته هامسا..

- تهرب .. إزاى ؟

فردّ ببساطة وهو يرفع رأسه للسماء:

– ياخدني

وجزعت من إجابته.. ولكن بعد قليل اقتنعت أنه للخلاص من بعض حالات المرض يصبح الموت رحمة.. وكذلك السجن .

* * *

دار المفتاح وفتح باب الزنزانة.. وهجم علينا عشرة جنود وفى لحظة خاطفة كانوا فوق رؤوس الجالس والنائم.. وصرخ أحدهم آمرا الجميع بالانتباه والوقوف فوق الفراش وبسرعة كنا جميعا كما أمر.. وأصفرت الوجوه وبان الذعر والقلق فى العيون.. كأننا مجموعة من الأسرى داهمتهم وحدة مسلحة من الأعداء المنتصرين وستأمر بإبادتهم كلهم فى التوّ واللحظة .

ودخل حضرة الضابط.. شـاب صغير بنجمة واحدة.. وبإشارة من إصبعه بدأ الحراس تفتيشنا.. وكل من يفتش تفتيشا ذاتيا يؤمر بمغادرة الزنزانة والانتظار أمام الباب.. وخرج أغلبنا حفاة ولم يغادر النوم الأجفان بعد.. وبعدما أصبحنا جميعا أمام الباب هجم الجند على الحقائب المعلقة والفرش فرزا وفحصا وتقليبا وتفتيشا.. وسرى بيننا الهمس.. إنهم يفتشون عن المخدرات والنقود.. وأنه تفتيش دورى لا غبار عليه وبالطبع لن يجدوا شيئا.

وبعد حوالى نصف ساعة أمرونا بالدخول وأن يقف كل سجين فوق فراشه فدخلنا.. وصرخ الضابط فجأة :

– فين الواد الصحفى؟

والتفتُّ يمينى ويسارى أبحث عن(الواد الصحفى) ثم استقرّ فى يقينى أننى المقصود فرفعت يدى.. فتقدم نحوى وسألنى بنفس اللهجة الحادة :

– فين المذكرات اللى بتكتبها؟

وارتبكت.. وعجزت عن الردّ.. وقبل أن يدرك ارتباكى انحنى بنفسه يعيد تفتيش فراشى.. فهرع بعض النزلاء للقيام بهذه المهمة بدلاً منه من باب الاحترام له فاستسلم وتركهم يقلبون فراشى وحقيبتى وعينه تتابعهم.. وأنا وباقى المساجين نتابع بلهفة وقلق..

وانبرى نزيل آخر:

– دى مش مذكـرات يا سـعادة الباشـا.. ده كان بيكتب قصة حياته ولما قرأها لنا وما عجبتناش قطعها .

وبعد أن بعثر الزملاء المتطوّعون أمتعتى وطعامى تحت قدَمَىْ الضابط نظر إلىّ متحيّرا ثم استدار خارجا وخلفه جنوده.. فاستدار أحد الجنود نحوى.. وكان له شارب ضخم ووجه جاهل وعلّق هازئا:

– يعنى يا خىّ قصة ابو زيد الهلالى..

فضحك بعض النزلاء مجاملة له وليعجلوا بخروجه.. وأعقبه جندى آخر.. أراد أن يتبارى مع الأول وأن يثبت للمساجين أنه مثقف.. فقال:

– لأ.. قصة حياة شرشر .

جلست فى ذهول.. والتفّ البعض حولى ونسوا دورة المياه وأخذوا يتحاورون.. وكل منهم يدلى برأيه:

– أكيد وشاية.

– طبعا مرشد من هنا.. من الزنزانة.

– طيّب أبو زيد الهلالى وعرفناه.. لكن شرشر ده إيه؟

– قصده تشرشل.. بس بيدلعه.. ما هو جاهل.

وانفجرنا جميعا بالضحك.. رغم أن الفزع مازال باديا على الوجوه .

وفوجئت بجارى الأسطى عوض يغادر الزنزانة لثوان ويعود وبيده أجندة مذكراتى.. فهلل الجميع وتلقفوها منه بفرحة.. فقصة كل منهم فيها.. وكان جارى هذا الأمى المحنك الذكى قد أدرك بفطنته وسرعة بديهته أن التفتيش لا يمكن أن يكون بحثا عن المخدرات لأن الزنزانة خالية منها فعلا.. ولا يمكن للمرشد أن يرشد عن شىء غير

موجود.. وأن الهدف من التفتيش لابد أن يكون شيئا آخر.. وهداه تفكيره إلى احتمال أن يكون الهدف هو المذكرات.. فبعد أن فتشوه ذاتيا انحنى فالتقط منشفتى من فوق وسادتى كأنها منشفته وزحف بها بخفة يد فالتقط داخلها أچندة المذكرات من تحت الوسادة.. ووضع المنشفة تحت إبطه ببساطة أمام الضابط وغادر الزنزانة.. وأخفاها فى نافذة الزنزانة المجاورة كما هى داخل المنشفة .

وبقدر ما ارتعبت عندما عرفت أننى سبب وهدف التفتيش.. بقدر ما سعدت بالنفوس والأفئدة التى التفّت حولى وتعاطفت معى.. وشعرت أن صرخاتى على الورق هى صرخاتهم.. وأن ما يحتوينى من مشاعر أدونها هى نفس مشاعرهم.. وأن مذكراتى كما هى حياتى هى أيضا حياتهم .

* * *

الحنيطى.. خادم الزنزانة الذى يفد يوميا من عنبر الميرى لم يحضر اليوم لمرضه؛ فأوفدوا لنا بدلا منه سجينا آخر.. رآنى فهجم علىّ معانقا.. إنه صديقى الذى أوحشنى كثيرا عبده النشال.. وقمت باستضافته على فراشى بعض الوقت فأفطرنا وشربنا الشاى.. ثم نادى الميكروفون اسمى للزيارة فتركته يقوم بإجراءات خدمته وتوجهت إلى هناك وكانت الزيارة بمناسبة انتهاء الأسبوعين الحبس المحكوم علىّ بها.. وسأُعرض على المحكمة غدا.. وحضر المحامى مع أسرتى فتفاهمنا على كل شىء.. وودعونى على أمل اللقاء باكر فى المحكمة وكنت قد دسست الأچندة فى الملابس المتسخة المعادة ونبهتهم لها وأوصيتهم عليها.. وعدت إلى الزنزانة وقد طيبت الزيارة ورؤية أسرتى خاطرى وأنستنى فزع الحملة التفتيشية وما تركته فى نفسى .

* * *

وجدت صديقى قد انتهى من عمله وجلس فى انتظارى لتوديعى.. فاستبقيته وقسمت ما حملته لى أسرتى فى الزيارة من فاكهة وطعام وأعطيته نصيبه.. واندهش من كرمى ونظر إلىّ ممتنا وشاكرا.. فعلقت باسما:

- رزقك.. لو جيت امبارح ماكنتش ح تلاقى عندى حاجة .

ولمحت فى عينيه دمعة.. فلطمته على خده فى ودّ ، وقلت عاتبا: (فين نكتتك الحلوة) ؟ فابتسم من بين دموعه.. وقال:

- تعرف مين اللى سرق ونْش مترو الأنفاق يا أستاذ؟

- لأ؟

- رئيس الوزراء.. سرقه علشان يرفع به الأسعار.

* * *

نصحنى بعض الزملاء بأنه لا داعى لفرش البطانية فى الفناء وعمل هذه المظاهرة.. وضرورة الابتعاد عن الأتباع والمحاسيب ولو لعدة أيام إلى أن تنكشف لنا الأبعاد الحقيقية التى وراء هذا التفتيش.. فبالتأكيد أنا الآن تحت المراقبة.. فاستجبت لوجهة نظرهم ونزلت إلى الفناء وطلبت من المجموعة المنتظرة الانصراف.. وكان خبر التفتيش قد انتشر فاستجابوا.. وما أسرع ما ينتشر أى خبر فى أنحاء السجن.. فنحن تصلنا كل يوم أخبار كل الزنازين وما يستجد فيها من إيداع أو إفراج أو صدور أحكام.. وكأن السجن كله قبيلة واحدة.. تعيش بقلب واحد ورئة واحدة .

* * *

تسكعت فى الفناء قليلا.. ووقفت لحظات أصفّق مع الصعايدة للفرنسى أبيض اللحم وهو يرقص بالمايوه الأحمر بين تهليل المعجبين والمشتهين.. كما لو كانت راقصة فى ملهى . ثم وقفت أتأمل مجموعة من القطط التفّت حول مخلفات طعام.. والقطط هنا سمان بشكل غير عادى وتستجيب لأى نزيل يناديها وبسهولة تقفز وتجلس على حجره.. فهى تشعر بالأمان لأن الجميع يعاملونها بحنان ويمارسون معها حنانهم لأولادهم .

ثم تصفّحت الجرائد التى وصلتنى فى الزيارة.. وقد أصبح متيسرا لى الاطلاع على كل الصحف اليومية التى ترد لى ولزملائى ضمن الأطعمة.. شىء واحد شعرت بالحنين إليه ولهفتى عليه.. سماع شىء من الموسيقى والأغانى.. أىّ موسيقى ولو كانت موسيقى حسب الله.. وأىّ أغانٍ ولو كانت من ذلك المطرب المتسول بعوده على مقاهى الحسين.. أشياء كثيرة فى حياتنا لا نشعر بأهميتها وقيمتها إلا بعد أن نفقدها.. فأنا هنا أشعر بحاجتى لسماع أم كلثوم بنفس اللهفة الطاغية التى يشعر بها المدمن لحقنة المورفين.. أو بتعبير أكثر بساطة.. أشعر بحاجتى إليها تماما كحاجتى إلى الطعام .

* * *

أغلقت الزنازين.. الصعيدى الذى خرج اليوم إلى المحكمة عاد وحكى لنا وهو منفعل كيف انفعل على القاضى وقال له يا سعادة الباشا.. (دبّة مرزبّة ولا دقّة ألف شاكوش) بمعنى أن الحكم الآن مهما كان قاسيا أفضل من الانتظار وتكرار التأجيل.. فدبّه القاضى مرزبة وزنها (ثلاث سنوات) ولأول مرّة أرى نزيلا محكوما عليه يضحك.. وشاركته الزنزانة الضحك.. وعلى ما يبدو أنه كان مرتعبا ويتوقع عقوبة أشدّ.. لهذا ظل يضحك حتى وهو مرحّل فى اليوم التالى إلى السجن لقضاء العقوبة .

* * *

بعد صلاة العشاء نادى البغبغان على (المروحين بكره) وأنصتُّ باهتمام حتى سمعت اسمى.. وأنصت أكثر وهو يدعو لنا فى نهاية النشرة.. (يارب تروحوا ما ترجعوا) ورد عليه السجن كله فى نفس واحد (آمين) .. ولأنى رأيت ما ينتاب النزيل ليلة عرضه على النيابة أو المباحث أو المديرية أو المحكمة من قلق وتوتر.. فقد تعجبت لأن شيئا من هذا لا يعترينى .. وبدأت أتشكك فى أمرى.. هل فقدت الحس المرهف.. هل فقدت القدرة على الشعور.. هل تبلدت أجهزة التلقى عندى.. شىء غريب إحساسى الدائم بالرضا والأمان هنا فى جو مشحون دائما بالتوتر والانفعال والقلق والاكتئاب.

فى السهرة وصلتنا الزغاريد والطبل والزمر من زنازين المخدرات.. ولما استفسرت قالوا إنه صدر اليوم حكم جاء فى الصحف بأن تكوين مجلس الشعب غير قانونى.. وبالتالى

تصبح القوانين الصادرة عنه غير صحيحة.. وعليه فالأحكام الصادرة عن هذه القوانين باطلة.. وكان من ضمنها قانون المخدرات.. وشاركتْهم زنزانتنا الأفراح.. وردّت على طبلهم بالطبل.. وأرسلت زنازين المخدرات إلى باقى الزنازين عبر الحراس علب الحلوى والشيكولاتة.. وزاط السجن وظلّ ساهرا بمشاعر واحدة إلى بعد منتصف الليل.. وتصاعد الدخان الأزرق من نوافذ زنازين المخدرات فى حراسة ورعاية الجنود المكلفين بالحراسة والذين ملأت أفواههم الأطعمة والحلوى .

* * *

قطة قفزتْ وجلستْ فى نافذة الزنزانة المطلة على الممر وأخذت تموء.. وبدأ بعض النزلاء يقدمون لها الطعام.. ثم تحوّلوا من تقديم الطعام إلى تقديم الغزل.. بدأوا من مجالسهم فوق فراشهم يتبارون فى مغازلتها.. واحتدّت المباراة والمنافسة بين العشاق وأسمعها كل منهم أفضل ما عنده من عبارات النجوى والشكوى ونسوا أنفسهم وهاموا بها كأنها فعلا امرأة.. فأسرعت إلى البلوك نوت أسجل الحوار:

- ياجميل انت يا اللى فى الشباك اللى قصادى.. نظرة.
- يا أبو عيون خُضر وشعر لون الليل.. إرحم.
- شعرك إسود لون ليالينا.. يا قمر.
- حنّ يا جميل وانزل.. إدينى خربوش والنبى.
- فين لياليكى واحنا قاعدين والقزازة بيننا والشيطان تالتنا.
- يا خاين زىّ القطط تأكل وتنكر.. نسيتنى وولفت على غيرى.
- ربنا فوق كل قوى.. ربنا يهدك يا جميل.

وظل كل منهم يخرج ما يحتويه من مشاعر خاصة نحو زوجته أو محبوبته أو معشوقته فى شخص القطة.

كان ملصقا على جدار الزنزانة مجموعة من صور نجوم الكرة والفنانات منتزعة من المجلات.. وتصادف أن كانت كلها لفنانات أجنبيات.. عدا صورة واحدة كبيرة لفنانة

مصرية.. لها وجه أنثوى مستدير.. تشعر من ملامحه بالدّم المصرى وعمق الريف ورائحة الطين وطمى النيل.. تشعر أنها من حريم الدار الذى نغار عليه ونحرص على إخفائه عن العيون.. وتدرك من عيونها المصرية السود أنها (نتاية) ولحم بيتى لم يخلق للشارع.. ونور يشع من ابتسامتها الهادئة الواثقة من أنوثتها.. فهى هنا المرأة الوحيدة بين ثلاثين رجلا .. تشعر بدلالها وأنها محطّ أنظارهم وزوجة لهم جميعا.. ولا أعرف مشاعر الأنثى عندما تكون ضيفة فراش ثلاثين رجلا كلّ ليلة فى وقت ومكان واحد.. لا أعرف إن كانت هذه الجمهرة حول امرأة واحدة وحيدة تسعدها أم تشقيها.. ولكنى أعرف مشاعرى كرجل.. وأعرف أنها كانت تسعدنى بفطرتها الذكية وشفتيها الحلوتين المبتسمتين فى حياء وخفر.. وأتوهم أنها تنظر إلىّ أنا بالذات.. وتبتسم لى وحدى فى غفلة من الآخرين.. وتؤنس أيامى وتخفف كثيرا من مشاعر محنتى.. وأحرص على أن تكون آخر شىء أغلق عليه عينى قبل أن أنام وأول شىء أستقبله كل صباح .

وككل شىء نحرم منه ندرك قيمته.. كان للجنس هنا قيمة لا تعادلها قيمة.. ومعاناة لا تعادلها معاناة.. وهو مغزى حقيقى فى فلسفة الحبس.. كنا نفرغه ونطلقه صيحات مجنونة على الورق فى الرسائل.. أو فى مشاهدة لحم الفرنسى العارى.. أو التحديق فى الصور.. أو مغازلة القطة.. أو التشرد فى الذكريات .

# الكفـــــالة

كأغلب الناس.. نوم خفيف وصحو مبكر عندما نكون على موعد هام.. انتزعت ملابسى المكرمشة من المخلة وارتديتها دون التفكير أمس فى كيّها كما يفعل البعض.. حتى ذقنى لم أحلقها.. قائلا لنفسى (أهلى وهيئة المحكمة والمحامون يعرفون أنى قادم من السجن.. فعلى من سأكذب) وأفطرت فطورا خفيفا أجبرت نفسى عليه حرصا على أن أكون بكامل حيويتى أمام المحكمة .

وفتح الباب وانطلقت إلى دورة المياه ، ثم إلى مكتب ضابط العنبر واستلمت الكارت الأصفر الذى حرر لى يوم دخولى.. وقرأت رقمى وتفحّصت صورتى.. إنها صورة مدهشة.. ليست جميلة بالطبع ولكنها نادرة.. شعرى الخفيف مهوش حول أذنى والنظرة بسيطة راضية بقضاء الله.. واللوح المكتوب عليه اسمى يغطى صدرى.. تمنيت أن أحتفظ بهذه الصورة مستقبلا.. ولقد استطعت الحصول عليها فعلا فيما بعد.. وهى الصورة المنشورة الآن على ظهر غلاف هذا الكتاب .

انتظرت مع الوافدين من كافة الزنازين حتى اكتمل العدد الوارد فى كشف البغبغان.. وأمرونا فجلسنا القرفصاء فى طابور طويل كل اثنين معا.. وبالطبع كان زميلى هو المؤلف.. فنحن أصحاب قضية واحدة ورحلة واحدة.. وضعوا القيد فى أيدينا.. وحرصت كالعادة أن أمد يدى الشمال لتظل اليمين حرة وإن لم ينتبه المؤلف إلى خدعتى هذه فى أى مرة.. وكان يرتدى كل شىء جديدا من البدلة حتى الحذاء.. حلق ذقنه وشعره وبدا مشدودا متأنقا كأنه عريس ليلة دخلته .. فنظرت إليه بطرف عينى فلمحنى وأدار وجهه لى وتفحصنى من رأسى لقدمى بتبجح ثم مط شفتيه بقرف وقال بعصبية:

– إنت إيه اللى عامله فى نفسك!

- وانت إيه اللى عامله فى نفسك! كل اللى ح تقابلهم عارفين إنك جاى من السجن وبتنام على الأرض .
- أنا صورى فى الجرايد كل يوم.. وزمان المصورين والصحفيين منتظرين على باب المحكمة.. والجمهور زمانه واقف على الصفين فى انتظارى .
- هأ هأ هأ.. ليه.. هو انت محمد حسنين هيكل .
- إخرس
- إخرس انت واتلمّ.. يا راجل يا اهبل.. اللى منتظرينك دالوقت الجماعات الإسلامية.. وإن شاء الله ح يقلعوك الكرافتة الجديدة دى ويشنقوك بها.. إفهم يا مجنون إن الصحافة كل ما اهتمّت بموضوعك تبقى آخرتك سودة.. ثم إن كل الجرايد اللى بتكتب عنك بتسخر منك وبتشتمك .
- مش مهم.. المهم الشهرة.. النسخة من الكتاب النهاردة إرتفع ثمنها لعشرة جنيه.. وكل الجرايد ما تشتمنى ح تزيد ويمكن توصل النسخة لخمسين جنيه .
- إنت بتحلم يا مسكين.. ح تضيّع نفسك وتضيع أولادك وتبهدلنا معاك.. إتلمّ وفضّها سيرة وشوف لك لعبة ثانية ما يكنش فيها حبس ولا مشاكل .
- أنا ما اقدرش أظهر معاك باللبس المكرمش ده قدام الصحافة والجمهور .
- ما تخافش.. الصحافة والجمهور ح يشاوروا عليك ويقولوا سعادة البك المؤلف.. وح يشاوروا علىّ ويقولوا.. البائس المسكين التعيس ضحيته.. وعلى كل حال إن ماكنش عاجبك فكّ الحديد إن كنت تقدر .

* * *

اجتزنا البوابة إلى فناء الإدارة الخارجى وتمّت إجراءات التتميم مرة أخرى.. ثم اجتزنا باب السجن الرئيسى إلى مربع مسور تنتظر فيه السيارات الزرقاء ذات الزنازين المصفحة.. واقترب منا الصول وفك قيدى أنا والمؤلف دون باقى المساجين عندما أدرك بغريزته وخبرته من ملابس المؤلف أنه الزبون الوحيد الذى يحرجه القيد ومستعد للدفع .

تحركت السيارة وانتظمت فى الطابور المنطلق على الكورنيش.. ومن النافذة وأنا متشبث بها أطل من ثقوب السلك الشبك رأيت النيل والمراكب الشراعية والخضرة والأشجار ومن خلفهما الحقول.. وعند الأفق الأهرامات الثلاثة.. وحاذتنا سيارة مرسيدس حمراء فاخرة تقودها سيدة أنيقة.. وعلى الكرسى الذى بجوارها كلب (لولو) أبيض أطل برأسه الصغير الجميل وشعره الحرير من نافذة السيارة فى حرية وكبرياء.. فشعرت بالخزى وتحرجت من المقارنة.. فعدت برأسى أخفيه داخل الزنزانة .

ظننت أنه مقابل الرشوة المدفوعة توقفت السيارة على الكورنيش بعيداً عن المحكمة فشعرت بالامتنان لحضرة الصول على لفتته هذه الذكية الكريمة.. نزلنا.. وتحركت السيارة لتكمل رحلتها بباقى المساجين إلى باقى الجهات.. وحك الحارس الذى نزل معنا ذقنه وقال (اهرش) فأفهمناه أننا سبق أن هرشنا لحضرة الصول.. فأفهمنا أن الهرشة السابقة كانت مقابل فك القيد داخل السيارة وانتهى مفعولها.. وأننا الآن فى منطقة نفوذ أخرى.. منطقة نفوذه هو.. وأنه الآن الوحيد فى مصر المتصرف فينا.. ولوح لنا بالحديد فى يده فاقتنعنا واعتذرنا عن جهلنا.. وأدركنا لماذا توقفت بنا السيارة بعيدا عن المحكمة.. ودفعنا.. أو هرشنا .

وصلنا الى المحكمة بوضع مزيف طريف.. أنا وغريمى كل منا يتأبط ذراع الآخر كأوامر الحارس.. أحدنا (متأفف) جدا والثانى (مبهدل) جدا.. ونبتسم كأننا صديقان حميمان .. مما أدهش أهلينا المنتظرين على باب المحكمة .. واستقبلنا الصول فى الحجز بتحية مبالغ فيها.. فهو يعرف قضيتنا ويعرف كم دفعنا فى الزيارة السابقة.. ثم فاجأنا بأكواب الشاى من البوفيه على حسابه.. وكله بحسابه .

* * *

فى الحجز زارنى المحامى وأسرتى.. وقرأت الصحف وكان بها خبر عن محاكمتنا اليوم.. وعند الظهر وضعوا الحديد فى أيدينا واقتادونا إلى قاعة الجلسة وأودعونا فى القفص.. رغم أن المسافة بين الحجز وقاعة الجلسة مجرد طرقة قصيرة لا تتعدى خمسة

أمتار لا تستوجب القيد.. ولكنها لغة متعارف عليها وأكل عيش وأرزاق مقسمة.. وكل يرتزق فى منطقة نفوذه ويعرف جيدا من أين تبدأ الخدمة وأين تنتهى.. سلمنا صول الحجز لصول القفص فحكّ الأخير أرنبة أنفه وقال (اهرش) فهرش كل منا فى جيبه.. وأقسمت أن أهرشهم جميعا فى مذكراتى.. هذه البدعة التى انتشرت واستفحلت فى السنوات الأخيرة وعصر الانفتاح.. حتى أصبحت كلمة (اهرش) عادية وبسيطة وغير مزعجة.. ولم يبق إلا أن يضمها مجمع اللغة العربية إلى قاموس لغة هذا العصر .

* * *

جلس القاضى على المنصّة وعلى يمينه وكيل النيابة الذى تولىَ معنا التحقيق والذى يكرهه المؤلف هكذا لوجه الله.. وعن يساره الكاتب.. ونادى على ثمانين قضية.. يناول الكاتب الملف للقاضى ويقرأ القاضى الاسم على الغلاف فيزعق به الحاجب بصوته الجهورى.. وقبل أن تصل أطراف القضية إلى المنصة يهمس القاضى مرة أخرى (آخر الجلسة) فيزعق بها الحاجب ويعود المتخاصمون إلى أماكنهم.. وهكذا انتهى من ثمانين قضية فى ساعة واحدة .

ثم انتقلت هيئة المحكمة إلى غرفة المداولة لشرب القهوة.. والجمهور ينتظر ويتابع ويهمس.. ح يشرب القهوة.. بيشرب القهوة.. خلاص شرب القهوة.. فارتدى المحامون الأرواب السوداء وتهيأوا لاستئناف الجلسة .

واقتادونا بلا قيد إلى غرفة المداولة وخلفنا المحامون وتصدر الأهل باب الحجرة يحجزهم ذراع العسكرى الممدود بعرض الباب.. وتكلم محامى المتهم الأول كثيرا مركزا دفاعه على أن الكتاب مجرد رواية خيالية وأن ما يدور فيها من ازدراء للأديان هو على لسان أبطالها ولا يعنى بأى حال اقتناع المؤلف شخصيا بهذه الأفكار واعتناقه لها.. وطلب فى نهاية مرافعته الإفراج عن موكله.. وتكلم المحامى الخاص بى قليلا بقدر حجمى فى القضية وركز دفاعه على أن اتهام المؤلف لى بطبع الكتاب لا يقوم عليه أى دليل.. وأنه قصد من ذلك تضليل المسئولين عن اسم المطبعة التى تولت الطبع حرصا عل ألا تصادر نسخ الكتاب.. ثم فرش أمام القاضى على سطح المكتب ثلاث بطاقات لى.. قائلا :

– دى ثلاث بطاقات للمتهم الثانى.. بطاقة عائلية تثبت أنه بدرجة مدير عام والثانية بطاقة عضوية لاتحاد الكتاب والثالثة بطاقة تعامل مع التليفزيون.. فضلا عن أن الدور المتهم به موكلى ضئيل جدا لا يستوجب الحبس.. ولن يهرب متهم محمل بكل هذه الصفات والمهام والوظائف والتبعات من قضية هو فيها برىء.. وأطالب بالإفراج عنه ما دام سوف يفرج عن المتهم الأول.. وبكره رمضان وكل سنة وسعادتك طيب .

وضحك القاضى ، وقال معلقا :

– كل سنة وانت طيب.. لكن من أدراك يا أستاذ إن المحكمة وافقت على الإفراج عن المتهم الأول ؟ .

وضحكنا جميعا واستبشرنا خيرا.. وقال القاضى (آخر الجلسة) فاقتادونا إلى الحجز .

* * *

ولم يطل انتظارنا ووصلنا الحكم (تؤجل القضية خمسة عشر يوما مع استمرار حبس المتهم الأول والإفراج عن المتهم الثانى بكفالة خمسة آلاف جنيه) .

وصرخنا.. هو صرخ لاستمرار حبسه.. وأنا صرخت لفداحة الكفالة.. والتف حولى أهلى.. وكان المحامى قد عرفهم بما له من خبرة أن احتمال الإفراج كبير ولكن الكفالة قد تصل إلى خمسة آلاف جنيه تيمُّناً بالكفالة التي دِفعها المتهم الثالث الحاج محمد مدبولى.. فرتبوا أمرهم قبل الجلسة بأيام على هذا الاحتمال وتعاون إخوتى فى جمع المبلغ.. وفوجئت بأختى تخرج من حِقيبة يدها مظروفا كبيرا منتفخا به المبلغ وتدفع به إلى المحامى فصرخت ثائرا رافضا (مدبولى دفع خمسة آلاف جنيه لأنه تاجر ومليونير.. الكفالة دى ممكن يخسر أكثر منها لو اتحبس.. لكن أنا مجرد موظف ولم أدخر فى كل عمرى مثل هذا المبلغ ولن أخسر مثله أو حتى نصفه لو استمر حبسى.. ولن أستدين خمسة آلاف جنيه لأدفعها للحكومة مقابل الإفراج عن برىء) .

وألحّ أهلى وفعلوا المستحيل لإقناعى بدفع الكفالة.. ووعد كل من ساهم بمبلغ أنه متنازل عنه ولن يظل دينا.. ولكنى أصررت وأقسمت.. وبكت زوجتى وقالت (كيف

نقضى رمضان من غيرك) وخفت أن أضعف ؛ فأقسمت يمينا بالطلاق (لو دفعوا لى الكفالة لن أخرج من السجن) فتراجعوا أمام إصرارى وانصرفوا حزانى.. واقتادونا مكبلين بالحديد إلى السيارة المنتظرة.. وخلفنا جيش من جنود المحكمة يطاردوننى ويطالبون رغم الغضب والانفعال الواضح على وجهى.. بالحلاوة .

وشتمنى المؤلف لأن المحامى الخاص بى اتهمه بتضليل المسئولين.. وهاجمتنى ابنته الجامعية.. وأراد ابنى أن يرد الإهانة فمنعته.. فأنا أدرى الناس بالحالة النفسية التى هو فيها.. وفى زنزانة السيارة ولم يكن بها سوانا وهى فى طريقها إلى مديرية الأمن لاستعادة المساجين الذين تركتهم هناك.. هاجمنى المؤلف مرة أخرى فحاورته وأنا مقدر ثورته:

- يا أفندى أنا هنا فى السجن بسبب اتهامك لى وأنت وحدك تعلم أنى برىء.. بدل ما تسألنى ليه المحامى بتاعى اتهمك.. اسأل نفسك ليه إنت اتهمتنى؟!

واشتد الحوار واحتدم.. ثم تلفّظ بشتائم.. ورغم أنى أكبر منه بعدة سنوات إلا أن تربيتى الشعبية وشخصيتى الخشنة تختلف وتفوق كثيرا تربيته الناعمة وشخصيته المرفهة.. فاتجهت إليه متحفزا وأمرته أن يكف عن سبّى وأن يخرس تماما وإلا طحنت عظامه.. وأدرك أن الشر قد تملكنى وأنه ليس فى صندوق السيارة سوانا فخاف وخرس فعلا وانزوى فى أحد الأركان مهموما مفكرا.. وانزويت أنا فى الركن الآخر مبتسما فى مرارة.. ضاربا كفا بكف.. أقول (اللى قادر على الكفالة وكان مستعد يدفعها لا ينالها.. واللى مش قادر عليها يحكم له بها ) .

* * *

أهملت المؤلف واهتممت بمتابعة مظاهر الشهر الكريم.. مآذن المساجد التفت حولها عناقيد المصابيح الملونة إيذانا بإضاءتها بعد صلاة العشاء كأنها عقود الماس على عنق امرأة جميلة أو كمجموعة من السبح حول عنق درويش.. وزحام حول عربات الباعة الجوالة المنتشرة على الأرصفة تحمل أكوام البلح الأبريمى والفاكهة.. ومحلات البقالة تتدلى على مداخلها لفافات قمر الدين تحتها أجولة الياميش.. وباعة الفول يصيحون على

المدمس وباعة اللبن الزبادى يهرولون حاملين الطولات.. وباعة العرقسوس يحملون قواريرهم النحاسية ويدقون بصاجاتهم موسيقى تصويرية صاخبة للمهرجان كله .

وفى مدخل (تحت الربع) فرشت محلات العطارة التوابل وفرشت الورش منتجاتها من الشوايات وأسياخ الكفتة واحتل السمكرية نصف الطريق ناشرين ألوانا وأحجاما وأشكالا مختلفة من الفوانيس كان لها فى نفسى وقع مفرح ، وزحام على محطات الأتوبيس والجمعيات الاستهلاكية ومحلات الطرشى .

* * *

دخلت السيارة (طره لاند) على وزن ديزنى لاند فكلتاهما مدينة متخصصة.. الأولى متخصصة فى فن الجريمة والثانية متخصصة فى فن السينما.. نزلنا من السيارة ودخلنا من البوابة الأولى إلى فناء الإدارة ومنه إلى بوابة السجن إلى بوابة العنبر.. ثلاث بوابات حديدية مصفحة خرجنا منها بإجراءات استغرقت أكثر من ساعة ودخلناها بنفس الإجراءات ولكن استغرقت خمس دقائق فقط.. فتذكرت المثل الذى يقول (دخول الحمام مش زى خروجه).

كانت الساعة قد تعدت الرابعة ففتح لى السجان فتلقفنى الزملاء وأنصتوا إلىّ يسمعون الحكم.. فمططت شفتى أسفا ولم أكابر كما يفعل البعض وقلت ببساطة:

- عجزت عن دفع الكفالة.. خمسة آلاف جنيه .

فصرخوا وعلا سبابهم فامتصصت غضبهم بابتسامة مهونا الأمر:

- الظاهر يا جماعة إنى مش ح اقدر أستغنى عنكم.. وخايف لو عاشرتكم أكثر من كده أرفض أخرج.

ولما رأوا أنى تلقيت الحكم ببساطة وصبر.. هان عليهم أمرى.. فالكل هنا أفراحه وأحزانه للآخرين من خارج قلبه.. وأغلب العواطف مجاملات.. لأن قلب كل سجين فيــه ما يكفيه.

بعد صلاة العشاء نادى البغبغان وهنأ الزنازين بالشهر الكريم وتمنى لنا صوما مقبولا.. ثم نشط النزلاء فى تجهيز طعام السحور.. ولاحظت ما شمل حقائب الطعام اليوم من

اختلاف وتنوع.. عرقسوس ولبن زبادى وفول مدمس وطرشى وكنافة وقطايف.. ثم شمل الزنزانة فترة من الصمت والتأمل المشحون بالذكريات والشعور بالهم والأسى.. وهى حالة تشبه الغيوم التى تسبق العاصفة.. وكان المطرب ذكيا فأدرك خطورة اللحظة فأسرع يسحب الجردل وبدأ الدق.. واندفع الكل يشارك بالترديد والتصفيق.. فالكل حريص على ألا تسفر هذه الغيوم عن سقوط المطر.. فاندفعنا خلف المطرب وكأننا نهش عنا الذكريات.. اندفع المطرب والكل خلفه بحماس يرددون أغانى شهر رمضان الشهيرة.. (رمضان جانا قولوا معانا أهلا رمضان.. وحوى يا وحوى إيوحه) .

وزاد الصخب وزادت الحركة وتبادل الزيارات والشاى والحلوى.. والكل يبتسم على أن تمر الليلة على خير فلا يستسلم أحدنا للبكاء فيجر آخر خلفه وتنتشر العدوى فتشمل كل الزنزانة.. وظلت عينى على الأستاذ أبو زيد فهو أسرع من يستسلم للدموع.. وظلت الزنزانة ساهرة تتبادل الصياح بالتهنئة مع الزنازين الأخرى.. وظل التهريج والمرح والمطرب يغنى بحرارة وحماس.. رغم أن الأنوف محمرة والعيون تلمع فيها الدموع.. حتى نادى البغبغان نداء السحور وأرسل التهانى لكل زنزانة باسمها ورقمها.. ثم أرسل التهانى لبعض النزلاء القدامى ذوى المكانة أو الأقدمية فى كل زنزانة .. على طريقة المسحراتى.

ولكن عندما حانت لحظة السحور وفضت اللفافات وتجمعت الجماعات.. تذكر كل منا بيته وأولاده.. وانفجر الأستاذ أبو زيد باكيا.. فلم يقم أحد لتهدئته وانخرطنا جميعا وبلا استثناء فى بكاء حار.. وتسحرنا طعاما مغموسا بالدموع.. ثم نمنا ملتحفين بالهم والغمّ والتعاسة .

وقبل أن أنام تذكرت الكفالة وفداحة المبلغ فتملكنى الغيظ وشعرت بالضيق والاختناق.. ثم صبرت نفسى بأنى كنت محظوظا اليوم فعشت مظاهر الاحتفال بشهر رمضان خارج وداخل السجن.. واكتملت عندى الرؤية.. وطمأنت نفسى أنه يكفينى لأرتاح وأصبر على الحبس الخمسة عشر يوما القادمة أنه فى مقدورى فى أى لحظة أن أدفع الكفالة وأخرج.. بمعنى أننى محبوس (بمزاجى وليس بمزاج الحكومة) .. أليس هذا يكفى !

حتى ثورتى وغضبى من بشاعة ووحشية قيمة الكفالة لم تفقدنى صوابى إلا لحظات.. وفى الحقيقة أن ثورتى المعلنة كانت تستر رغبة خفية ولهفة على استمرارى فى السجن لتحصيل المزيد من هذه الدراسة واكتناز أكبر كم ممكن من معادن النفوس المختزنة هنا.. وكأنى بالفعل عثرت على كنز على بابا وكانت كلمة السر بدلا من افتح يا سمسم هى (احبس يا سمسم).. فعلا كانت عندى رغبة خفية ولهفة على استمرار حبسى حتى أستكمل غربلة النماذج البشرية الفريدة المدهشة والجرائم النادرة التى لم أستمع إليها بعد.. فكل الذى حصلته نماذج زنزانتى.. أما باقى الزنازين فمعلوماتى عنها قليلة.. فضلا عن أنه تملكنى فضول شديد لمشاهدة مظاهر رمضان فى السجن وسلوك المساجين فى الصيام.. وشعرت أننى سأخسر كثيرا لو غادرت السجن قبل أن أشهد وأسجّل هذه الصورة.. لكل هذا استقبلت صباح أول أيام الصيام بنفس مبسوطة حامدة راضية .

* * *

تأخر فتح الزنازين إلى التاسعة.. وكان النزلاء ـ بعد أن امتلأت بطونهم بطعام العشاء والسحور ـ على وشك الانفجار.. وبدأ الدقّ على الأبواب فى احتجاج من كافة الزنازين.. وفتح السجان وقال يبرر التأخير.. إن ذلك مقابل بقاء الزنازين مفتوحة إلى ما بعد أذان المغرب.. ففرحنا وهللنا .

وصلتنى طبلية وفيها أطعمة الإفطار.. وتعمدوا أن يتأخروا لتصلنى الملوخية الخضراء والأرانب ساخنة وبكمية تكفى لعائلة بأكملها.. فقد أفهمتهم أننا فى رمضان بالذات نتناول الطعام جماعات.. وجماعتى مكونة من أربعة.. والنظام المتبع أن تحضر الطبلية كل يوم من بيت واحد فقط تحمل طعاما يكفى لكل الجماعة.. وهكذا بالدور توفيرا لوقت الرسول الذى يحضر الطعام وهو صائم.. ولكى لا يبقى شىء من الطعام للغد فيتلف.. وبهذا الأسلوب كان السجين يعرف اليوم الذى يقع فيه الدور عليه فيبلغ أهله مع عودة الأوانى ويوصيهم بالأصناف المطلوبة بحيث تختلف عما أحضره الزملاء فى الأيام البارحة .

ووجدت فى الطبلية ما هو أهم.. رسالة من ابنتى تهدئ خاطرى وتصبرنى وتؤكد لى أنهم بخير وتطمئننى عليهم وتمتدح رجولتى وتقبّلى وصبرى على المحنة.. وتقول إن خمسة عشر يوما سوف تمرّ سريعا وأكون بينهم فى النصف الثانى من رمضان.. وإن الشهر الكريم سوف يبدأ بالنسبة لهم يوم يجمعنا الطعام ساعة انطلاق مدفع الإفطار.. أثلجت الرسالة صدرى وقرأتها مرات ورضيت نفسا .

* * *

فى الموعد المعتاد صفّر الحراس فدخلنا إلى العنبر وخلا الفناء الخارجى.. وأغلقوا باب العنبر ولكن ظلت الزنازين مفتوحة.. أى محبوسين داخل المبنى مع حرية الحركة داخله.. وكان قدامى المساجين قد سحبوا الحصير البلاستيك من المسجد بعد صلاة العصر وفرشوها فى فناء العنبر بالدور الأرضى وجلس عليها أغلب النزلاء فى جلابيب وطواقى بيضاء وبأيديهم المسابح فى منظر غاية فى الجمال والروعة.. وفرشت الملاءات والبطاطين فى الممرات أمام أبواب الزنازين فى الدورين.. ووضعت عليها الأطعمة مغطاة وتحلق النزلاء حولها.. وفى كل زنزانة زحام حول (السخان) لأن كل الجماعات تقوم بتسخين طعامها فى وقت واحد .. وفى ركن قصىّ من زنزانتنا.. وغالبا فى كل زنزانة.. جلس سجين يجهز السَلَطة لجماعته بسكين واحد يتجاوز عنه المرشد لأنه يشارك فيه.. وربما تتجاوز عنه الإدارة أيضا بمناسبة شهر رمضان.. وخلفه طابور ينتظر الدور.. ونشطت الحركة بين الزنازين على طريقة (أمى بتسلم عليكى وبتقول لك شحتينا رأس ثوم):

– حد عنده بصلة

– حد معاه عيش زيادة

– ملح يا حضرات

– قرن فلفل حامى للسلطة

– خل .. يا أسيادنا

– لمونة يا إخوان .

وكل الجماعات تسارع فتلبى النداء.. من يطلب خيارة يجد عشرة فى كرم وحنان وترحيب.. ونشطت حاستى الصحفية لاسيما بعدما أثلجت صدرى رسالة ابنتى فقمت إلى دراستى.. ومررت بالدورين أتفحص الأطعمة المفروشة بين الجماعات وأقرأ اسم الزنزانة وأقارن.. فاكتشفت أن أكثر الأطعمة ثراءً وكَمّاً هى أطعمة تجار المخدرات.. بين كل جماعة منهم مفرش من النوع الفاخر عليه أكثر من صنف من الفاكهة وأكثر من نوع من الطيور المحمرة ومشهيات رمضان وزجاجات المياه الغازية والمقطرة.. يليها جماعات الأموال العامة.. يليها باقى الجرائم مع الاقتراب فى المستوى.. وأفقرها جميعا زنازين السرقة والنشل .

* * *

فى الدور الثانى.. وفى آخر الممر وجدت الجنود الخمسة.. حرس الليل المحبوسين داخل العنبر معنا تحلقوا متربعين حول طعامهم الميرى المكون من الخبز والجبن لا غير.. وذكرنى هذا المنظر بنزلاء عنبر الميرى.. فبالطبع لن يزيد طعامهم الآن عن الخبز والجبن إن وجد.. وتخيلتهم فى ملابسهم الميرى المتسخة الخفيفة كالبيچامات التى يرتدونها على أجسامهم مباشرة و ينامون ويصحون فيها ويرحلون فيها كل صباح إلى عنبرنا للخدمة.. لمجرد أنهم لم يستطيعوا دفع الإتاوة للديكتاتور (بـرعى) فيخرجون من السجن أكثر حقدا وشراسة .

منظر الجنود الخمسة وبينهم طبق الجبن الوحيد على الأرض وعلى ركبهم الأرغفة شغلنى عن كل المهرجان الذى حولى.. ولكن عندما فرغت الجماعات من عمل السلطة وتسخين الطعام وجلسوا فى انتظار أذان المغرب تنبهوا إلى طعام الحراس فقاموا إليهم.. وانهالت عليهم العطايا من خيرات الله.. فهدأت نفسا .

ران صمت مطبق على كل العنبر.. وكل الجماعات حول طعامها فى الدورين إلى أن أذن البغبغان ففتحت اللفائف ورفعت أغطية الأوانى ونشطت الحركة .

رجل كبير ملتح حمل (چركن ) كبير ومر بالدورين على كل سجين بلا استثناء يلقمه ملعقة ماء.. ولما فتحت فمى أستقبل الملعقة مستسلما وفى عينى دهشة.. قال :

– ماء زمزم يا ولدى.. يوعدك الله بزيارة الرسول .

عظيم أنت يا رمضان حتى فى السجن.. قتلة ولصوص وتجار أعراض ونصّابون ولكن رمضان هو رمضان.. هو العادة.. والعبادة .

* * *

تركونا إلى ما بعد أذان المغرب بساعة ثم أعادونا إلى الزنازين.. فبدأت السهرة.. صلاة العشاء وصلاة التراويح وتبادل الزيارات والحلوى والكنافة والقطايف والعرقسوس والمياه الغازية والشاى.. ثم بدأت وصلة الطرب بأغانى الشهر الكريم وامتدت مع جماعات الكوتشينة والشطرنج وقانون الإجراءات والقراءة فى المصاحف.. وفى السحور فتحت المعلبات.. لا سيما علب الفول المدمس.. وانتظم الطابور مرة أخرى أمام السخان الوحيد والسكينة الوحيدة .

ولما كانت الآلات والأدوات المعدنية عموما ممنوعة فى السجن فلا توجد فتاحات للمعلبات الصفيح.. ولفت نظرى أسلوب المساجين فى فتح المعلبات .. ( يحك سطح العلبة بشدة فى بلاط الزنزانة حتى يبرى وتتآكل الأطراف ثم يضغط عليه باليد فيسقط داخل العلبة). وتمنيت لو كانت العلب من البلاستيك حتى يسهل فتحها.. فالمعروف أن المعلبات فى الأغلب الأعم يكثر استهلاكها فى الأماكن التى تفتقر إلى الاستعدادات كالسجون والمستشفيات والرحلات .

* * *

بعد السحور شغلت بتدوين مذكراتى حتى أذن البغبغان لصلاة الفجر.. وبعد الصلاة قرأت رسالة ابنتى.. وتمددنا جميعا فى طلب النوم إلا واحدا.. الأستاذ ويليام المسيحى الوحيد فى الزنزانة.. الذى لاحظت أنه لم يتناول طعاما طوال اليوم ولم يدخن سيجارة ولم يجهز شايا وصام مشاركة للصائمين.. أو ربما أكل شيئا ولكن فى مكان مستور فى الفناء احتراما للشعور العام.. وعند الغروب شارك بإيجابية فقام بتجهيز السلطة لأكثر من جماعة وانتظم ضمن جماعته ساعة الإفطار.. وفى السهرة شارك أيضا بترديد أغانى

رمضان خلف المطرب.. وكان من عادته قبل أن ينام أن يقرأ فى الإنجيل فأجل ذلك إلى ما بعد صلاة الفّجر.. فلما نمنا جميعا جلس وحده يقيم شعائر دينه .

* * *

دورة المياه والعرض والطبلية والزيارة والعيادة والكنتين وغسل الثياب والاستحمام وكتابة الرسائل وتصفح الجرائد والمسجد وجلسات المناقشة والحكى فى القضايا.. هذه المهام لا يؤديها السجين كل يوم بل يصيبه منها بعضها وباقى الوقت يقطعه فى تناول الطعام والمشروبات والتدخين.. وهذه الأنشطة تقل فى الصيام.. فشعر المسجونون بطول الوقت.. وكان أهم ما يشغل يومى هو مؤتمرى أو ندوتى على البطانية التى حذرونى من استمرارها فبدأت أشعر بطول الوقت.. وواتتنى فكرة.. إذا كنت قد حرمت من روادى فلماذا لا أذهب أنا إليهم فى زنازينهم.. وعرضت رغبتى على النوبتجى كنزيل قديم فرحب بها وقال إنه يعرف أغلب نوبتجية الزنازين ووعد بتدبير ذلك .

طفت بالممرات أقرأ أسماء الزنازين فانتهيت إلى أن بالعنبر الملكى أربعاً وعشرين زنزانة .. صفّان بالدور الأرضى وصفان بالدور الثانى..

واحدة.. أجانب

اثنتان.. سرقة ونشل

ثلاث.. جرائم نفس متنوعة

ثلاث.. قتل

ثلاث.. أموال عامة

اثنتا عشرة.. مخدرات

* * *

بحثت عن البُرْش الشهير فلم أجده فى أية زنزانة.. وتمنيت لو اختفى معه برميل البول المثقوب.. وسألت نفسى.. هل يقلل من آلام الحبس أو الغرض منه أن تكون الزنزانة نظيفة ولكل مسجون سرير كالمستشفى وبها دورة مياه وتليفون متصل بالإدارة؟

وإذا كانت الإدارة تنزعج من وجود هذه الإمكانيات فى الزنزانة لدواعى الأمن ماذا يمنع من تركيب كاميرات تليفزيونية بحيث يستطيع المسئولون متابعة النزلاء فى كل تصرفاتهم .. أليس هذا أجدى للأمن!

تمنيت لو جهزت أفلام تسجيلية عن السجن.. نماذج من الأحكام والجرائم وفكر المجرم والعقوبة ورد الفعل على الأسر.. كنوع من التحذير فالوقاية خير من العلاج.. وأن تنظم رحلات إلى السجون ويدرس القانون للطلبة اعتبارا من المدارس الثانوية وتربط الإجراءات الجنائية بإجراءات الخدمة الاجتماعية.. أى أن تتحرك الأجهزة الأمنية والاجتماعية على التوازى وبسرعة واحدة بمجرد القبض على المتهم.. صيانة للأسر من الانهيار وللمشاريع من الفشل .

* * *

تبرعوا لبناء سجن : فى تجوالى صادفتنى لجنة مكونة من أربعة مساجين يحملون صندوق تبرعات على طريقة اللجان التى تعترضنا فى الشوارع وتنادى بميكروفون (تبرعوا لبناء مسجد) وكانت اللجنة تجمع تبرعات لترميم دورة المياه.. وأقبل المتبرعون لا سيما من تجار المخدرات.. فنحن فى رمضان وأبواب السماء مفتوحة .

* * *

منذ دخولى السجن تشدنى الكلمة المكتوبة بخط كبير ركيك على أبواب بعض الزنازين (قتل).. كان يعترينى شعور بالرهبة والخوف وأنا أمر أمام هذه الكلمة.. وكنت أسترق النظر داخل هذه الزنازين بسرعة وحذر وأتخيل أن ما بداخلها من رعب وبشاعة يفوق أى احتمال.. إن قاتلا واحدا يرعب شارعا أو حيا أو قرية.. فما بالك بحوالى خمسة وعشرين قاتلا معا.. كيف يتعاملون.. هل يسمرون ويغنون ويلعبون الكوتشينة والشطرنج مثلنا فى زنزانة الأموال العامة.. هل يضحكون ويبكون ويأكلون ويشربون شايا أم يشربون دما..

وفجأة أبلغنى النوبتجى أنه دبّر لى أمر أول زيارة وستكون لزنازين القتل.. فانقبض قلبى وخفت.. ولكنى أخفيت خوفى وحملت ورقى وقلمى وذهبت معه إلى هناك.

وبمجرد دخولى فوجئت بالحناجر تنطلق بنشيد الزنزانة :

بنـــدقة بشـــومة بسيف اليـــد نقتـل ونقتـل مايهمّنـــاش حـــد
المقتـــول ياخـــد ســـكينـــة والقـــاتـــل حـديـد فى اليـــد
ده مقتـــول وده قـــاتـــــل قَـــدر مكتـــوب مالـــوش رد
القتــــل للتـــار واجـــب والديـــن أقـــام الحـــد
والشـــرف والعـــرض غـــالى علشـــانه نقتـل جميـل الخـد
القتـــل طـــريقـــه ســـهل لكن الهـــرب طريقـــه ســـد
وقعنـــا ماحـــد سمّا علينـــا والمستخبى ينكشف مهما الأجل مد

ورحب بنا النوبتجى وأفسح لنا مكانا على فراشه وهمّ بعمل الشاى فهمس لى النوبتجى زميلى :

– ده واخد تأبيدة غيابى.. وبيعيد إجراءات .

واقشعر بدنى وسألته :

– عمل إيه؟

–كان بيتأجّر للقتل.. الرأس بألف جنيه .

وتحسست رأسى وبان علىّ الانزعاج.. وعاد الرجل بالشاى وجلسنا نحتسيه وعينى على كل كلمة منه وكل حركة وفى ظنى أنه فجأة سيطرحنى أرضا ويستل سكينا يخفيه فى ملابسه ويقطع رأسى.. ربما مقابل علبة سجائر من المؤلف.. أدهشنى أن الرجل عادى جدا.. ولا يتعاطى أى نوع من المخدرات أو المكيفات ولا حتى السجائر.. مجرد الشاى فقط .

وطفت بعينى فى الزنزانة.. لاتختلف عن زنزانتنا.. نفس المساحة والنوافذ الأربعة والحقائب المعلقة والفرش والحوض.. بعد نصف ساعة ارتحت من كل قلقى وهواجسى.. ولو حلفوا لى بأغلظ الأيمان أن واحدا من هؤلاء الذين أراهم أمامى قتل

يوما لكذّبت.. نماذج بشرية عادية تماما ممن نراها كل يوم فى كل مكان ولكن وضعتهم الأقدار فى لحظات حرجة فقتلوا.. البعض قتل وهو يقصد القتل.. والبعض قتل وكان يقصد غرضا آخر.. والبعض تعارك فانتهى العراك إلى القتل.. والبعض انفعل مجرد انفعال فوجد نفسه بعدها بلحظات قاتلا وأمامه قتيل ولو طلبت منه الآن أن يشرح كيف قتل ما عرف.. أما المحترفون فكانوا ثلاثة فقط .

تجارة المخدرات والعملة والأعراض وجرائم المال وجرائم النفس لها خطوات مدروسة وقواعد وإجراءات وفيها الخبرة والذكاء والاحتراف.. ولكل خطأ فلسفته.. إلا القتل فهو دائما لحظة قدرية وإن شملها أحيانا سبق الإصرار والترصد.. وكثير من القتلة لو راهنته على ذبح دجاجة لخسر الرهان.. ولكنها الحكاية أو الحادثة أو الدافع أو الموقف أو المبدأ .. ثم الجريمة.. وقد لا يدرى إلا بعد فوات الأوان أنه قتل .

هذا هو الاستنتاج الذى خرجت به من زنازين القتل الثلاثة فى ثلاث زيارات.. كل زنزانة يتأكد عندى أن جريمة القتل بالذات.. تختلف .

* * *

ثلاثة كانوا يجلسون على بطانية أحدهم.. يلفون السجائر ويبرمون شواربهم ويضبطون اللاسات الهرمية البيضاء فوق رؤوسهم.. قامتهم مرفوعة فى زهو كأنهم يستعدون للتصوير وعلى شفاههم ابتسامة تدعونى.. وكان قد انتشر أن (الصحفى) سيزور الزنزانة فلبسوا (اللى على الحبل) ظنّا منهم أننى سأنشر صورهم فى الصحف وقد تصل إلى بلدهم . كانت جريمتهم قتل أحد الشبان من بلدتهم تشاجر مع عمهم.. ولما سألتهم مندهشا :

– قتلتوه لمجرد إنه تشاجر مع عمكم؟

ردوا بثقة وإصرار.. وفى نفس واحد :

– وه يا بوى.. كيف نجتله علشان اتعارك مع عمّنا.. احنا جتلناه لأنه وقّع شال عمنا على الأرض.. وعمنا هو كبير العيلة وشاله هو شرف العيلة.. يعنى مرمغ كرامتنا فى التراب يا بوى .

وعادوا يفتلون شواربهم فى كبرياء وزهو .

– علشـان وقّع شال عمكم تقتلوه.. مش يمكن الشال وقع أثناء المعركة قضاء وقدر .. وماكانش يقصد ؟.

– وه.. الشال وجع وخليص.. يقصد وللا مايقصدش مالنا احنـا دى مشكلته.. إحنا كمان جتلناه قضاء وقدر ومانقصدش .

– وقتلتوه بإيه؟

– ضربناه بالفاس قطعنا رقبته .

– وأخذتم حكم؟

– إيوه.. أنا ومحمدين كل واحد خمستاشر سنة وهريدى تأبيدة .

– إشمعنى هريدى ؟ .

– هو اللى ناوله الفاس .

وغمز لى النوبتجى فسلّمت ونهضت وعدنا إلى فرشته فحكى لى قصتهم وهو لا يتمالك نفسه من الضحك .. حتى ظننت أن ما يحكيه نكتة أو نادرة مما تروى عن الصعايدة.. قال إن أوراق القضية أثبتت أن الثلاثة فاجأوا القتيل مع سبق الإصرار والترصد وقتلوه.. ولكن كلا منهم ينفى أنه الذى قام بالقتل وينكر أن الفأس المضبوطة فى الحادث تخصه.. فأمر القاضى بإخراج المتهمين الثلاثة من القفص ومثولهم أمام مكتبه فى غرفة المداولة.. وأفهمهم أنه لو أصر كل منهم على الإنكار فسوف يحكم على الثلاثة لأن التهمة ثابتة عليهم .. وبهذا يذهب ثلاثة فى واحد.. وهذا سوف يعيب شرف العائلة أكثر من وقوع شال عمّهم على الأرض.. كيف يقبلون أن يضيع ثلاثة رجال من عائلتهم مقابل واحد.. ولكن لو اعترفوا بالحقيقة فسيحكم على واحد فقط.. وهنا انـدفع كل منهم يـدّعى أنه القـاتل وأنه صـاحب الفأس.. واحتـار القاضى.. ثم أمر كـلا منـهم على التـوالى أن يحمـل الفـأس ويمثّـل كـيف هـوى بهـا على القتيـل لعله يدرك من خلال تمثيلهم للجريمة أيهم صاحب الفأس.. ولكنه فى النهاية

عجز عن الترجيح.. فقال فى يأس :

– رجعهم يا عسكرى القفص ثانى.. كلهم كذابين.. الظاهر كلهم أبرياء .

وهلل الثلاثة وهاصوا.. وهموا بالخروج وهم يهتفون (يحيا العدل).. وفجأة وهم فى نشـوة الفرحـة.. صـاح القاضى وهو يشـير إلى الفـأس الفاعلة الملوثة بدماء القتيل فوق المكتب :

– تعال يا رجل خد الفاس بتاعتك .

فاستدار هريدى فى غفلة متوجها لأخذ الفأس.. فحكم عليه القاضى بالأشغال الشاقة المؤبدة .

* * *

من القـاتل: التقيت بثلاثة شبان.. سعوا هم إلىّ وفى عيونهم لهفة ظنا منهم أن ما أسجله يصل إلى المسئولين ويوضح موقفهم ويخفف من وطأة محنتهم.. وعرفت أنهم أصدقاء.. أولهم فى الثامنة عشرة لم يتم تعليمه وابن تاجر مخدرات ويعمل فى هذه التجارة مع والده.. والثانى فى الثامنة عشرة أيضا وطالب فى الثانوية العامة.. والثالث فى الثالثة والعشرين متخرج حديثا من كلية الهندسة ولم يمارس عملا بعد.. وقصتهم أن تاجر المخدرات والد الأول ضبط وحكم عليه بالسجن المؤبد.. وأثناء نظر الاستئناف التقى كاتب الجلسة بابنه وهمس له أنه لو دفع ثلاثين ألف جنيه رشوة.. خمسة وعشرين ألفا للقاضى وخمسة آلاف له سيحكم القاضى فى الاستئناف بالبراءة.. وتشاور الشاب مع أهله.. ثم حمل المبلغ وسلمه للكاتب فى منزله.. وفى اليوم التالى حكمت المحكمة بتأييد الحكم بالسجن المؤبد.. وطارد الابن كاتب الجلسة متهما إياه بالنصب والاحتيال ومطالبا برد المبلغ.. وماطله الكاتب ووعده أكثر من مرة وتهرب منه .

وفى المقهى اجتمع الابن بصديقيه.. طالب الثانوية العامة والمهندس.. وحكى لهم الواقعة.. وعلى ما يبدو أنه كان صاحب فضل وكان ينفق عليهما بسخاء بحكم دخله من تجارة المخدرات فتحمسا لرد الجميل.. وانتهى تشاورهم بالاتفاق على شراء سكين

كبيرة والتوجه إلى منزل الكاتب أثناء غيابه وإرغام زوجته على رد المبلغ.. وفعلا اشتروا السكين.. وفى الصباح توجهوا إلى المحكمة وتأكدوا من وجود الكاتب فى عمله ثم توجهوا إلى منزله.. وطرقوا الباب ففتحت زوجته فسألوها عن الأستاذ فقالت إنه فى عمله فطلبوا منها ورقة وقلما ليكتبوا له رسالة فدخلت لتحضر الورقة والقلم فدخلوا وأغلقوا الباب.. وتنبهت الزوجة فغيرت مسارها واندفعت إلى النافذة وصرخت تستغيث وتستنجد بالمارة.. وكان تصرفها هذا مفاجئا ومزعجا لهم.. وفى لحظه خاطفة.. أو فى لمح البصر.. استدار اثنان منهم وفتحا الباب وقفزا السلم فرارا.. أما الثالث طالب الثانوية العامة فكان أقربهم إليها.. وفى نفس اللحظة التى اندفع فيها زميلاه للخلف اندفع هو للأمام واستل السكين ولحق بها ليمنعها من الصراخ.. ولكن بحكم حالة الفزع التى سيطرت عليه.. ودون أن يدرى.. رفع السكين وغرزه فى ظهرها بقصد أن يسكتها ويبعدها عن الشباك.. وقبل أن يلحق بزميليه كان المارة قد تجمهروا على السلم وقبضوا عليه.. وتوفيت الزوجة الشابة التى لم يتجاوز عمرها الثانية والثلاثين فى الحال وهى تنزف والسكين فى ظهرها.. مخلفة وراءها طفلين أحدهما فى سن الرضاعة .

وبكى الشبان الثلاثة أمامى.. وغلّظوا الأيمان أنهم لم يتفقوا ولم يقصدوا أبدا قتلها.. وكانت كل خطتهم مجرد تخويفها لاسترداد المبلغ.. ولكن توجهها إلى الشباك واستغاثتها وخوفهم من الفضيحة وأن يقبض عليهم بتهمة محاولة اغتصابها ورط زميلهم فى رشق السكين فى ظهرها.. واندفع القاتل نحوى والدموع غزيرة فى عينيه وقال:

– والله يا أستاذ أنا ما أعرف أنا قتلتها إزاى .. أنا اترميت عليها علشان أبعدها عن الشباك وما أدرى إن كنت ضربتها بذراعى وللا بالسكين.. ولو كنت انتبهت إن أصحابى جريوا.. كنت أنا كمان جريت .

وطمأنتهم بأن المحكمة ستراعى سنّهم ومستقبلهم والظروف التى دفعتهم وعدم توفر نية القتل أو سبق الإصرار.. بمنطق أن رغبتهم فى استرداد المبلغ أهم كثيرا من رغبتهم فى القتل.. وأن ما حدث كان مجرد قدر فرضته لحظة خوف.. وهونت عليهم وأكدت لهم أن الحكم سيكون مخففا.. وهم مازالوا صغارا وفى العمر بقية.. وأن القاتل الحقيقى

هو الزوج.. والمخطئ الأصلى تاجر المخدرات.. فارتاحوا لكلامى وهدأوا إلى حد ما.. وإن شككت أنا فى صحة ما قلت .

* * *

شاهد محتاج شاهد : ظل يشك فى سلوك زوجته ويعانى شهورا طويلة.. ولكن الزوجة كانت ذكية وجريئة فاستطاعت أن تضلله طويلا.. وظلّ يتقصّى أخبارها ويراقب سلوكها وتحركاتها ويتربص ويتحين الفرصة.. إلى أن أفلح فى مداهمة مسكنه وهى فى أحضان العشيق.. دس المفتاح فى باب الشقة فوجده مغلقا من الداخل فجُنّ جنونه ووقف لحظات يفكّر.. ثم طرق الباب بطريقة طبيعية فظنّت الطارق إحدى جاراتها فلم تستجب على أمل أن تنصرف.. ولكن الطرق استمر وأزعجها وبدد دفئها فى حضن العشيق فنهضت لتفتح وهى فى حنق.. وقبل أن تصل يدها إلى رتاج الباب أعادتها رغم أنها اتصلت بزوجها فى التليفون قبل وصول العشيق بدقائق وتأكدت من وجوده فى عمله.. واقتربت برأسها من الباب وهمست تسأل.. فقلّد الزوج همهمة صبى المكوجى الأخرس ففتحت.. وقفت أمامه بملابس الفراش والذعر يملأ وجهها ويحبس أنفاسها.. فتخطاها واندفع إلى حجرة النوم حيث العشيق ما زال ممددا فى فراشه فى استرخاء .

وقدّرت مدى الفضيحة التى ستحدث خلال الدقائق التالية.. وبلا وعى اندفعت إلى حجرة مكتب الزوج والتقطت طبنجته وعادت مندفعة إلى الصالة بغرض إرغامه تحت تهديد السلاح على السكوت وإعطاء الفرصة للعشيق ليهرب.. وفض الاشتباك وعدم نشر الفضيحة .

وفوجئت بباب حجرة النوم ينفتح بشدة.. ودون قصد منها.. ومن الخوف والرعب الذى احتواها.. ضغط إصبعها على الزناد رغم أنها لم يسبق لها استعماله فانطلقت رصاصة.. ولم يكن الذى خرج من حجرة النوم هو الزوج كما توقّعت.. بل كان العشيق الذى فاجأه الزوج فقفز من الفراش عاريا واندفع إلى الباب مذعورا لتتلقفه الطلقة أو ليتلقفها فى فرجة الباب.. فأردته قتيلا .

وأصبح الموقف أكبر من أن تحتويه فاحتواها.. وزاد ذعرها ورعبها فوجهت فوهة الطبنجة إلى صدرها وضغطت الزناد فسقطت بجوار العشيق.. على طريقة كليوباترة وأنطونيو وروميو وجولييت .

ومثّل الزوج الحادث أمام المباحث والنيابة وشرح مرارا أمام المحكمة وأقسم أنه لم يمسك الطبنجة ولم يقتل العشيق ولا الزوجة.. وأنه برىء.. وقال لى فى آخر كلامه:

- المفروض إنى مش متهم.. المفروض إنى شاهد.. ولكن لأنى الشاهد الوحيد فأنا محتاج إلى شاهد يشهد أنى شاهد .

* * *

المبتسم دائما : انتشرت قصته فى أنحاء السجن.. زرته وهو بسبيل إطلاق سراحه.. وكانت هذه هى الليلة الأخيرة له هنا فاستقبلنى بابتسامة كبيرة تناسب حكم البراءة الذى حصل عليه.. وحكى لى قصته أيضا وهو يبتسم.. وملخصها أنه كان متهما بالقتل.. وطوال أيام المحاكمة وهو فى القفص كان دائما مبتسما.. إذا ترافع الدفاع ابتسم.. وإذا ترافع الادعاء ابتسم.. وإذا سأله القاضى ابتسم .

وشغلت ابتسامته الدائمة المستمرة فى كل الأحوال بال القاضى وظنّ أنه معتوه لا يقدر خطورة الموقف الذى هو فيه.. فعلى مدار الجلسات المتعاقبة لم يعبس أو يبكى أو يشكو أو يقسم أنه برىء كما يفعل أغلب المتهمين.. وفى آخر جلسة.. جلسة النطق بالحكم.. أراد القاضى أن يرتاح وأن يتخلص من الخاطر والسؤال الذى يلح عليه.. فسأله:

- إنت ليه يا رجل دايما مبتسم؟

فرد وهو يبتسم:

- أنا كده دايما يا بيه.. فى الخير وفى الشر أبتسم.. وما دام جاى أقف قدام قاضى عظيم زى سيادتك.. يبقى لازم ابتسم .

- إنت مش خايف أحكم عليك بالإعدام؟

فعاد يبتسم .. وقال:

- يبقى لازم ابتسم أكثر.. لأنى رايح أقابل رب كريم.

ولم يتمالك القاضى نفسه وابتسم.. وحكم له بالبراءة!

* * *

حسناء تل العقارب: إنها قصة كاملة تصلح لأفلام السينما المصرية ولا ينقصها سوى سيناريست.. والأمثلة كثيرة فى السينما والتليفزيون لمثل هذة القصة.. تل العقارب أفقر وأحقر وأحط أحياء السيدة زينب بل ربما أحياء القاهرة كلها.. ولم يكن ينازعه فى هذه الصفات من الأحياء القديمة سوى بولاق القديمة وعشش الترجمان التى أزيلت.. وتنازعه الآن الأحياء الجديدة التى ولدت سفاحا وبطريقة غير شرعية فى أطراف القاهرة نتيجة لأزمة المساكن مثل عزبة الصفيح وما جاورها.. تل العقارب هذا تل فعلا مرتفع عما يحيطه من أحياء.. به مساكن لا تزيد عن عشش الدجاج ولا تصلح حتى لسكنى البهائم.. وهو ملاذ سقط المتاع من الوافدين إلى القاهرة بغير سند من مال أو أهل.. فهو الحى الوحيد الذى مازال يتعامل بلافتة من الكرتون معلقة فى حبل تتأرجح فى الهواء تعلن (حجرة للإيجار) وإيجارها لا يتعدى ثلاث جنيهات.. كأننا ما زلنا فى الأربعينيات.. وهو ملجأ المشردين والهاربين من القانون والفارين من الجوع فى الصعيد إلى القاهرة فوق سطح قطار.. وبالوصف السريع أشبه بعزبة أو كفر صغير مستقل تماما ببصماته الخاصة من الفقر والقاذورات والقمامة ومخلفات المجارى فى الشوارع.. إذا جاز لنا أن نسمى هذه المدقات أو الممرات شوارع .

يتوسط هذا الحى المنعزل تماما وهو فى قلب القاهرة مقهى أو بوفيه فى ميدان أو متسع صغير يتميز بموقع فريد بحيث إذا دخلت التل أى قدم غريبة يتضح بسرعة سبب الزيارة.. ويتجر صاحب هذا المقهى فى المخدرات.. وله ابن شاب(يلعب بالفلوس لعب) وعنده موتوسيكل (هارلى) يصرخ به فى جنبات التل فتطل عليه البنات يتنهدن فى وجد وتمنٍ .

ترعرعت فى الحى ابنة ساعٍ فى إحدى الوزارات.. أشجان.. وهى بالفعل أشجان.. فقد حباها الله جمالا أخاذا فوق مستوى الجمال العام.. وكانت إذا ارتدت ثيابها الأنيقة التى تنتقيها بعناية وذكاء من مخلفات وكالة البلح ومشت فى شوارع وسط المدينة ظنها المارة من بنات الزمالك أو مصر الجديدة .

وعرفت أشجان بغريزتها وكثرة المدلهين فى حبها قدر جمالها فتعززت على كل شباب الحى.. وانتظرت العريس الذى سيتبعها أثناء تجوالاتها الكثيرة وتسكعاتها اليومية فى أحياء القاهرة الراقية.. ولكن ابن صاحب المقهى بإمكانياته وبوجود المقهى أمام بيتها مباشرة جعله يحظى بأكبر فرصة معها دون باقى شباب التل.. ونشأت قصة الحب من طرف واحد.. طرفه هو.. ومجرد وضعه فى الحسبان من طرفها .. فسمحت له بمكان فى آخر طابور أحلامها ومجرد إبتسامة فى ذهابها وإيابها.. وعاش الشاب الذى يعتبر نوارة التل وحلم كل بناته على أمل أن يهديها الله وتقبل الخروج معه فى نزهة على الموتوسيكل.. تمهيدا للخطبة والزواج .

وفجأة.. تردد على التل شاب وسيم بسيارة مرسيدس فاخرة.. ابن تاجر المخدرات (الجملة) الذى يورد بضاعته للمقهى.. يصعد بسيارته التى يساوى ثمنها ثمن التل بكل ما فيه من إمكانيات وبشر.. ويجلس فى المقهى على جانب منفرد ويضع ساقا على ساق فيهرع صاحب المقهى ويقدم له المشروبات المثلجة ويرش حوله الماء.. ولمح صاحبنا أشجان.. وترك البضاعة وثمنها وتبعها.. ولا نعرف متى وأين وكيف التقى بها.. ولكن أصبح واضحا لكل أهل التل عامة ولرواد المقهى خاصة.. أن هذا الشاب المليونير الوجيه يجلس أمام المقهى لا من أجل توريد المخدرات ولكن من أجل خاطر عيون أشجان.. وهى طوال وجوده تطل من النافذة فى الدور الأول التى تشبه نافذة عشة دجاج.. وتلقى له النظرة والابتسامة من حين لآخر.. وعندما تخرج من منزلها وتغادر التل.. يلملم حاجياته من فوق المنضدة.. المنديل الملون وسلسلة المفاتيح ذات الياقوتة الحمراء ومبسم السيجارة الذهب.. ويرفع يده بالتحية لصاحب المقهى ويتبعها .

وارتاح المعلم لهذ الوضع.. لأنه أصبح الزبون المفضل لدى الشاب.. يبيعه أجود الأصناف بأرخص الأسعار فضلا عن تسهيلات الدفع.. فعاد هذا الغرام على المعلم بالربح الوفير.. ولكن كان العكس مع ابنه.. ألهبت نار الغيرة قلب الشاب.. وقارن بين الموتوسيكل والمرسيدس ورأى أحلامه تنهار على يد الوافد الجديد.. ولم يجد فى إمكانياته ولا فى إمكانيات أبيه ولا فى إمكانيات التل كله ما ينافس به هذا الشاب الجميل المليونير وسيارته المرسيدس .

فى قمة حالات اليأس تتولد الجريمة.. جلس الشاب المليونير جلسته المعتادة عصرا على المقهى ورش المعلم المساحة التى حوله فى تبجيل وإجلال ووضع أمامه الشيشة مرحبا مسبحا بحمده.. وأسرع الابن يصب الشاى له على غير العادة.. فقد كان يختفى من المقهى بغله وحقده وحرجه طوال فترة وجوده.. صب له الشاى واختفى.. ولم تمض سوى دقائق وسقط الشاب من فوق كرسيه أمام عيون غادة الكاميليا.. ولم تفلح محاولات المعلم ومن فى المقهى فى إسعافه.. وقبل أن يفكروا فى نقله إلى أقرب مستشفى كان قد أصبح قتيلا .

وانكشفت التفاصيل أمام النيابة.. فاتهمت الابن بدس السم فى الشاى.. ورحل العاشقان.. أحدهما إلى القبر والآخر إلى السجن .

والشاب ينتظر بلهفة كل يوم على أمل أن تزوره فى السجن.. فقد قتل من أجلها.. ولكنها لم تفعل.. ربما بقيت فى شباكها تداعب بجمالها خيال شباب التل فى المقهى.. وتخرج من حين لآخر إلى جولاتها فى الأحياء الراقية.. على أمل أن تلتفت إليها سيارة مرسيدس أخرى وتتبعها إلى.. تل العقارب .

* * *

القتل ثلجا : كان فى الخمسين.. أسمر إلى حد ما.. ضخم جدا فى حجم فيل.. يطفح وجهه بالشراسة والغباء وله عيون كبيرة وجفون سوداء مسترخية كعيون وجفون الفيل.. وهو جزّار غنى ومشهور فى حى شعبى إرثا أبا عن جدّ.. له سطوة وعزوة ونفوذ وصبيان .

يوما اشترى منه أفندى بائس من سكان الحى كيلو لحما بالأجل لحين ميسرة.. ولم تأت هذه الميسرة أبدا.. فظل الأفندى يعبر الشارع على الرصيف البعيد متحاشيا أن يراه الجزار، مخفيا وجهه بالجريدة أثناء عبوره أمام المحل.. ويوما صاح المعلم فى أحد صبيانه:

- هو ده .. مخبّى وشه فى الجرنال لكن أنا عارفه من بدلته المزيتة اللى ما بيغيرهاش.. إلحَقْ قبل ما يزوغ وجرّه وهاته.

وجرّ صبى الجزار الأفندى من كرافتته التى تشبه رباط الحذاء كأنه يجر جاموسة إلى المذبح.. فوصل إلى المحل فى حالة هياج لكرامته.. وطالبه المعلم بثمن اللحم وقال له :

- قبل ما تدوّر على كرامتك إدفع حقوق الناس.

وزاد هياج الأفندى.. وصاح بلهجة متشنجة وبالعربية الفصحى:

- اللحم بتاعك يا معلم أنا ما أكلتوش لأنه كان منتن ولا يصلح للاستخدام الآدمى .. أنا رميته للقطة.. حقك مش عندى.. حقك عند القطة.

- بتتّريق يا روح أمك!.. يا أفندى نص كمّ .

وفتح المعلم الثلاجة الكبيرة ورفع الأفندى بين ذراعيه كما يرفع الذبيحة وقذف به فى الثلاجة وأغلق الباب.. وخرج فجلس على كرسيه الكبير الخاص أمام باب المحل ومدد ساقيه لماسح الأحذية.. وصبّ له الصبى القهوة ورصّ الشيشة.. ثم مرّ عليه أحد الأصدقاء فدعاه وصفّق طالبا له القهوة وانشغل معه فى حديث ذى شجون ونسى الأفندى المحبوس فى الثلاجة.. وعندما انصرف الضيف دخل المحل وتذكر.. فقال لكبير صبيانه:

- صعب على الأفندى.. هو غلبان صحيح بس لسانه طويل.

- معلهش.. سامحه بقى يا معلم .

وهنا صرخ المعلم:

- يا نهار إسود.. هو انت لسه ماخرجتوش؟!

- لأ يا معلم .

- الله يخرب بيتك.. أنا باهوّشه بس.. أنا أحبسه وانت تطلّعه من ورا ظهرى.. مش دايما بنعمل كده؟

- المفتاح معاك يا معلم .

- ده زمانه فطس الله يخرب بيتك.. إفتح له وخليه يغور فى داهية .

وفتح الصبى باب الثلاجة وصرخ.. فقد وجد الأفندى فعلا قد غار فى داهية .

وقلت له مهونا.. وأنا أضحك:

- إن شاء الله يا معلم ح تاخد حكم خفيف لأن ما فيش سبق إصرار أو ترصد.. انت ما قصدتنش تقتله.. إنت يا دوب نسيت .

صاح وأشاح بطول ذراعه فى وجهى كأنه يلوح لى بسكين:

- إنت بتقول إيه يا افندى.. فال الله ولا فالك.. حكم إيه انت كمان.. ده أنا يا دوب حطيته فى الثلاجة.. لكن ما مدتش إيدى عليه.. ماضربتوش حتى قلم .

- أيوه يا معلم.. بس لما حطيته فى الثلاجة مات.. تبقى قتلته.

- تانى يا افندى بتقول قتلته!

كظم غيظه وتريث.. ثم أمسك كفىّ وفردها بين كفيه الكبيرين.. وأخذ يعدد على أصابعى ويشرح لى بطريقة الواثق المتمكن عندما يشرح لساذج جاهل :

- شوف يا افندى يا جورنالجى أما أعلمك حاجة.. القانون فيه القتل بالسم والقتل بضرب الرصاص والقتل بالسكين.. لكن مافهش القتل بالثلاجة.

- يا معلم.. لو حتى قلت له كش ملك ومات.. تبقى قتلته.

- يا أفندى يا صحفى بلاش مقاوحة.. الأبوكاتو اللى أنا شديته كبير قوى وواخد فى وش عدوك خمسة باكو.. وفهّمنى إن فيه فى القانون القتل شنقاً وخنقاً.. لكن مافهش (ثلجاً) أنا يادوب حطيته فى الثلاجة ونسيته.. وهو مات موتة ربّه .. أجله انتهى.. إنت ح تعترض على إرادة ربنا!

* * *

عبـد الله الجـدى : نجم من نجوم السجون المصرية.. له فيها شهرة نجوم السينما بين فئات الشعب.. والحظ وحده جعلنى أراه وجها لوجه.. مع أن هذه الصدفة تندر كثيرا.. فهو كما قلت كنجـوم السينما وقد ينقضى العمـر كله دون أن تجمعنا صدفة بنجم معيّن نحبّـه .

وكان ذلك فى الاستقبال وأثناء ممارسة الديكتاتور برعى قسوته المعتادة فى استقبال النزلاء.. ولكنى لم أشر إلى هذه الواقعة فى حينها وفضلت أن أحكيـها هنا كعينة مستقلة ونموذج فريد للقتلة.. دخل إلينا ونحن فى قمة لحظات محنة الاستقبال العصيبة شاب تخطى الثلاثين وربما الخامسة والثلاثين وربما أشرف على الأربعين.. لم أستطع تقدير سنه بالضبط لأن له وجها مليحا وجسدا رياضيا قويا.. يرتدى (تريننج سوت أحمر) وحذاء قـماش أبيض.. وجلس على كـرسى برعى.. واصطف خلفه طابور طويل من الحراس.. التفوا حوله ولكن على البعد قليلا وبأدب جم.. وتوجه إليه الديكتاتور برعى وانحنى يقبله ويتملقه بزيف وهوان واضح.. ثم توافد عليه صولات وكتبة السجن من حجرات الإدارة المجاورة مصافحين مرحبين.. والكل يتملقه بكلمة أو جملة ترحيب يتلقاها بثقة وابتسامة بسيطة شاحبة .

ظننته أول الأمر أحد ضبـاط السجن يرتدى ملابس الرياضة ولكنى وجدت قدامى المساجين أصحاب السوابق يتطلعون إليه بانبهار وكأن على رؤوسهم الطير ويهمسون (عبد الله الجدى.. عبد الله الجدى) ولم تمر سوى دقائق ووقف ضابط بالباب وابتسم وناداه فقام إليه وتبعه طابور الحرس.. وعاد برعى ينفش ريشه ويزمجر فينا كما بدأ.. ولم يسمح الوقت العصيب لى بأى استفسار.. ولكن بعد أن استقر المقام بى فى السجن سمعت عنه كثيرا فى سمر الليالى.. وسمعت عنه أيضا أثناء تجوالى بالزنازين المختلفة.. وتأكد لى أنه نجم تتطلع إليه الأفئدة وتصبو إليه كل نفس طبعت على الإجرام.. وهو مثلهم الأعلى وقدوة يصعب أن تحتذى..

وخلاصة ما سمعته أن عبد الله الجدى هذا كان صبيًا لم يتعدَّ الثامنة عشرة من أسرة فقيرة فى حيّ شبرا عندما أثار الذعر بمشاجراته الكثيرة والجريئة جدا مع كل من

هبّ ودبّ.. ولما وصلت عدة شكاوى إلى مباحث الجهة تربصوا له.. لكنه كان أسرع منهم فهاجم ضابط القوة وذبحه أمام الناس.. وقبض عليه.. وأثناء المحاكمة أهانه ضابط آخر فأفرغ فيه سبع رصاصات أردته قتيلا.. وأودع السجن.. وعامله ضابط ثالث بقسوة باعتباره قاتلا لزميلين له ففاجأه بطبنجة تسرّبت إليه فى أوانى الطعام وأرداه قتيلا.. وهكذا أصبح شهيرا بقاتل الضباط.. وأصبح محلّ إبهار لكل محترفى الجرائم عموما ومحترفى القتل خصوصا لجرأته التى تصل إلى حد الجنون.. وتوخى أغلب الضباط الذين تعاملوا معه بعد ذلك الحذر.. فهم يعلمون أنه سوف يحكم عليه بالإعدام لا محالة .. ولم يعد هناك فارق فى العقوبة إن كان عدد الضباط الذين قتلهم ثلاثة أو خمسة أو حتى عشرة.. فليس بعد الإعدام عقوبة.. فعاملوه بلطف.. لا سيما وأنه قد برع فى طريقة حصوله على السلاح وهو محبوس .

ثم استطاع أن يهرب أثناء توجهه إلى المحكمة من حراسه.. ربما هرب فى غفلة منهم.. وربما هرب بعد تهديده لهم فآثروا عقوبة الإهمال على أن يذبحوا بيدى عبد الله الجدى.. هرب إلى إيطاليا.. وهناك كما يحكى كون عصابة من الشباب المصرى العاطل المتسكّع على أرصفة نابولى وهاجم بنكا واستولى على بعض الأموال ثم هرب إلى فرنسا وهناك كرر فعلته.. وأصبح مطلوبا للبوليس الدولى حيا أو ميتا.. وبعد سنوات عاد إلى مصر وارتكب حادثا آخر.. واستطاعوا أن يضيّقوا عليه الخناق وأن يقبضوا عليه.. ولكن بحذر واحترام مبالغ فيه.. يبتسمون فى وجهه وأعينهم على كفيه خشية أن يفاجئهم بسلاح .

وكثرت الحكايات ونسجت الروايات حول (البطل).. بعضها حقيقى وبعضها مبالغ فيه وبعضها كاذب.. وكل مجرم محترف فى سهر الليالى عندما يحكى مغامراته يدخل فيها عبد الله الجدى كشريك من باب التفاخر.. واكتشفت أثناء تجوالى بالزنازين أن له شقيقا يكبره محبوسا تحت ذمة قضية أموال عامة ولكن ليس له حظ من الشهرة سوى صلة القرابة التى تفيده كثيرا فى تعامله مع إدارة السجن والحراس والنزلاء .

ويحكى أن لعبد الله الجدى أربع نظراء آخرين فى أحياء القاهرة المختلفة ولكنه فى العموم أشدهم بأسا وأكثرهم ذكاء.. وهكذا قدر لى أن أرى أسطورة السجون المصرية الذى سمعت أيضا أنه عرض فى أحد برامج التليفزيون كمجرم وقاتل محترف شهير.. وتناولت المذيعة معه الحوار على الهواء عن الجريمة والقتل.. كخبير.. وكأسطورة ونار على علم .

وهكذا لم ألتق فى زنازين القتل بأى قاتل تدل ملامحه على الشر أو القتل.. بشعر مهوش وحواجب مرفوعة وفكين مضغوطين فى قسوة وإصرار وأنياب طويلة وعيون تطلق شررا وملامح جافة قاسية متحفزة.. كما يصوّرهم لنا مخرجو السينما المصرية .

* * *

بعد صلاة الظهر يجلس الإمام ويلقى الدرس على المصلين حتى صلاة العصر.. ولفت نظرى أن الإمام قد تغير.. كان الأول شابا له جسم رياضى ضخم ووجه استفزازى وملامح حادة.. تستطيع أن تكون رأيك فيه بسهولة وتقرر دون تردد أنه من النوع الذى لا تناقشه أو تخطئه مهما كان مخطئا وإلا فالويل لك.. وكان يرتدى بصفة مستمرة (ترييننج سوت أحمر) وكان عندما يخطب يخطئ فى اللغة العربية ويخلط بين الفصحى والعامية التى كان ينطقها متشدقا بها كالفصحى وينطق حرف القاف كافاً والعكس.. وأدركت أنه جاهل وأن معلوماته الدينية ليست عن دراسة ولكنه حفظها نتيجة تردده على المساجد بصفة مستمرة.. فكان يردد كالببغاء دون أن يدرك المعنى.. وكان منظره عموما وهو يخطب يذكرنى بالمطرب الذى يفرض نفسه على الجمهور ومن يحاول الإفلات يؤذيه.. وكنت أستمع إليه وأصحح له الأخطاء فى سرى وأكاد أضحك.

كان الإمام الجديد كهلا تخطى الأربعين.. وواضح من تمكنه من اللغة وعلوم الدين أن دراسته أزهرية.. لهذا فضلت أن أبقى بالمسجد بعد صلاة الظهر لأستمع إليه حتى يحين موعد صلاة العصر.. وفجأة.. تماما كما يباغتنا المطر فى الصيف.. هجم على المسجد أكثر من خمسين نزيلا يقودهم الإمام القديم.. وأداروا فى الجالسين التلطيش واللطم واللكم والتشليت.. وهجم الإمام القديم على الإمام الجديد ورفعه رفعا بعضلاته

القوية ونطح رأسه ثم قذف به على الأرض ليرفعه مرة أخرى ويكرر النطح والقذف.. واستطاع الإمام الجديد المسكين بعد عدة قذفات أن يفلت زاحفا على أربع زائغا من غريمه من بين السيقان فى المعركة التى شملت كل المسجد واحتدمت بين أنصار الإمام القديم وأنصار الإمام الجديد..

وصفّر الحراس وتجمعوا حول المسجد.. فاندفع كل الموجودين بالمسجد ضاربين ومضروبين إلى الهرب.. وتزاحموا على الباب كل منهم يحاول قبل الآخرين أن يفلت بجلده ولو تاركا شبشبه.. وحضر المأمور وحوله ضباطه ومن خلفهم الحراس حاملين السلاح فوجدوا المسجد خاليا وكلهم قد لاذوا بالفرار إلى الزنازين كالأرانب المذعورة عندما تختفى فى جحورها إذا لمحت ثعلبا.. ومن جحورنا أرهفنا السمع للميكروفون فى يد أحد الضباط .. فأسرعت إلى ورقى وقلمى أسجل:

(للأسف.. الحب والحنان والكرم والودّ اللى بينكم ضعيف.. مجرد قشرة بسيطة على السطح بتغطوا به حقيقتكم.. وبمجرد خلاف بسيط تعريتم وانكشف المستور.. كل اللى فى السجن بيدعى إنه برىء وجهْ هنا ظلم.. وآدى الحقيقة.. فى الشهر الكريم.. فى بيت الله.. شتائم وضرب ودم لوث أرض المسجد الطاهرة.. صدقونى يا إخوان إن ربك لبالمرصاد.. وبدل ما تطلبوا الفرج توبوا أولا).

وصدرت الأوامر بغلق الزنازين فى مواعيدها القديمة.. ومع الغروب أذن البغبغان هذه المرة وهو محبوس داخل زنزانته.. وتناولنا الفطور بعواطف جياشة وأعصاب منفلتة ونفوس جزعة مقهورة وتبرم مكشوف ودموع صريحة.. وتذكرنا بيوتنا وأولادنا .

فى السهرة عرفنا تفاصيل الحادث.. الإمام القديم صبى من صبيان أحد كبار تجار المخدرات.. ولما كثرت أخطاؤه اللغوية نحّاه المصلون وولوا الإمام الجديد.. وهو نزيل جديد خريج دار العلوم ويعمل مدرسا وتهمته تحرير شيك بدون رصيد.. وغضب الإمام المخلوع وشكا لتجار المخدرات واستفزّهم فاجتمعت زنازين المخدرات واستنكروا أن يطرد الإمام وهو منهم.. وانتهى الاجتماع بمظاهرة حملوا فيها الإمام المخلوع وتوجّهوا به إلى المسجد لتتويجه .

هناك مثل شعبى يقول (الميه ماتمشيش فى العالى) أى أن القانون لا يسرى إلا على الضعيف.. ونحن هنا ضعفاء ولا حول ولا قوة لنا.. نفذ الحراس من الأوامر الصادرة ما يكدرنا وما يريحهم.. فلم تفتح الزنازين إلا فى التاسعة.. رغم أنها أغلقت وستغلق فى الرابعة كسابق العهد.. والساعة التى اقتطعوها منا سرقها الحراس ليتسنى لهم الحضور صباحا من منازلهم متأخرين .

عمّ سعفان ظل يقاوم ويقاوم رغبتة الملحّة فى قضاء حاجته بعد الحشر الذى ملأ به بطنه فى الفطور والسحور وما بينهما من فاكهة وحلوى وسوائل.. ولكن فى التاسعة إلا ربعا وجد أنه (لا مناص) فأشار لزميلين فقاما إليه بالبطانية.. فاقتعد حافّة الحوض ووجه الكيس البلاستيك تحته.. ونشر الزميلان البطانية أمامه على طريقة (إتفرّج يا سلام) وسرعان ما وصلتنا الرائحة.. وصاح البعض يحولون لحظة المحنة إلى لحظة حظ لتخفيف الوطأة.. وهتفوا مردّدين:

– بُص شوف.. عم سعفان بيعمل إيه.

بعد فتح الزنازين وانطلاقنا كالكلاب إلى دورات المياه.. ثم أثناء ممارساتنا للأنشطة العادية اليومية لاحظت أن كل الحراس ممسكون بعصا.. وبدا واضحا أنها نتيجة أوامر صدرت إليهم.. كما علمنا أن الإمام القديم محبوس فى الحبس الانفرادى.. وصل زملاء الميرى وتم توزيعهم على الخدمات المكلفين بها.. ولكن مع استعمال الحراس للعصا هذه المرة.. فكان الحارس يضرب النزيل بالعصا على ظهره وهو يحمل برميلا مملوءا بالبول.. فإذا حاول النزيل الانحناء أو القفز بعيدا ليتفادى العصا وسقط من الجردل بعض البول لاحقه الجندى بعدة ضربات.. وكلما ضربه ارتبك وكلما ارتبك سقط البول.. وكلما سقط البول عاد يضربه.. وهكذا بدا واضحا من سلوك الحراس أنها سياسة موجهة صدرت إليهم لإرهابنا عقب حادث المسجد.. عملا بالمثل الذى يقول (إضرب المربوط يخاف السائب) من وجهة نظر الإدارة.. أما من وجهة نظر النزلاء فكنا نهمس: (اللى مايقدرش على الحمار يتشطر على البردعة.. مساكين.. كل الفرق بيننا وبينهم

أنهم عجزوا عن دفع الرشوة للديكتاتور برعى.. محرومين من اللبس والأكل والراحة.. الدولة تصرف لهم طعام مناسب ولكن لا يصلهم منه سوى العيش الحاف والجبن نادرا ولا يرون الخضر واللحم إلا عند زيارة شخصية هامة للسجن.. حتى أجورهم عن الخدمات لا يصلهم منها سوى الربع والباقى للنوبتجية والحراس كأنهم أسرى وأعداء حرب من دولة أجنبية).

الإرهاب الذى نعانيه اليوم سببه معركة المسجد.. أى سببه تجار المخدرات.. فأصبح الشعور العام للنزلاء معبأ ضدهم ولكن دون التعرض لهم.. فهم الأغلبية.. وأغلب الحراس ينحازون لهم فى أى مشكلة لأن رشاويهم سخية.. ولفض البالونة المنتفخة بالغضب فى صدر كل منا ضدهم.. تفتق ذهن أحد النزلاء الأذكياء فأطلق إشاعة تقول إن قانون المخدرات الذى صدر فى عهد وزير الداخلية الأسبق قد صدر من مجلس الشعب الذى صدر حكم ببطلان تكوينه.. وبهذا يعتبر قانونا باطلا.. وهذا الخبر ليس جديدا وسبق أن قرأناه فى الصحف وتجار المخدرات ينتظرون تطبيقه بفارغ الصبر.. ولكن الجديد أن الذى أطلق الإشاعة أكد أنه صدرت تعليمات وزير الداخلية الجديد بالإفراج اليوم فورا عنهم.. فزاطوا ورقصوا فى الفناء والزنازين وارتدوا ملابس الخروج وربطوا أمتعتهم ووزعوا السجائر والأطعمة والأدوات التى معهم على الآخرين.. وتجمعوا فى الفناء فى انتظار وصول الضباط.. وظلوا ينعمون بهذه الفرحة حوالى ساعتين.. وكانت الطبلية لم تصل بعد وبالتالى لم تصل الصحف.. وعند وصول أول جريدة تزاحموا عليها وتخاطفوها كأنها نتيجة الثانوية العامة.. وهنا أطلق صاحبنا هذا المغتاظ المجهول النصف الثانى من الإشاعة .. (إنها كذبة أبريل).. وسرى الخبر فى أبهاء السجن.. فعلا اليوم أول أبريل.. وهكذا رددنا اللطمة لهم.. وبقدر ما ضحكوا منا أبكيناهم.. وبقدر ما أبكونا ضحكنا منهم.

صلينا الظهر وحضرنا الدرس ثم صلينا العصر.. ولكن بقيادة إمام جديد عينته إدارة السجن منعا للعصبيات وتكرار ما حدث.. وظننا أن الإدارة اكتفت بهذا الحل وصرفت النظر عن استمرار العقوبة بغلق الزنازين قبل أذان المغرب.. ولكن بعد صلاة العصر ساقنا الحراس بالعصىّ إلى الزنازين فدخلناها كارهين حانقين مزمجرين .

تناولنا إفطارنا وما زلنا فى حنق .. وفى السهرة كان لابد من إفراغ الغلّ والحقد والغيظ الذى ملأ النفوس.. فكان الضجيج والصخب الصادر من الزنازين أكثر ارتفاعا.. وفى زنزانتنا انطلقت الحناجر بالغناء والتصفيق إلى آخر مدى.. كنا نريد أن تصل أصواتنا عبرالأسوار والبوابات الحديدية المتعددة إلى المسئولين فى الإدارة نتحداهم ونقول لهم.. ها هى عقوبتكم حولناها إلى فرح.. ونردّ على كيدهم بالكيد ونقول لهم (موتوا بغيظكم) وفى الحقيقة كنا نحن الذين نموت بغيظنا .

* * *

تندر هنا النكتة.. إلا لو جاءت نتيجة مفارقة ومرارة.. لأن النكتة بنت لحظة الحظ ومناخ السعادة وصفاء الذهن وراحة البال.. وكل هذا غير موجود هنا.. أما الغناء فهو الترديد.. هو العويل.. هو العواء.. هو المناحة.. وما المطرب إلا صدى وتعبير عن الروح المقهورة.. نسمعه ولو كان له صوت الحمار ما دام قادرا على النهيق والتعبير عن روح القطيع المحبوس فى الحظيرة.. والنكتة لا يستملحها ولا يستجيب لها المحزون المهموم.. ولكنه بسرعة يستجيب للموسيقى والغناء . وصرخ المطرب.. والسميعة:

يا مختلسين ... هيه

يا مزيفين ... هيه

يا مزورين ... هيه

يا مرتشين ... هيه

يا مدلسين ... هيه

يا محتالين ... هيه

يا نصابين ... هيه

ودهشت لهذه الطاقة المحبوسة فى الإنسان المحبوس.. وكنت أظن أن الدماء جفّت فى العروق وأن الحبس قتل كل المشاعر.. وأخرجت البلوك نوت والقلم أسجل اللحظة .

واستمر الصخب حتى الفجر.. حتى تخلصنا من حقدنا وغضبنا المكبوت بالإعلان والتباهى صراحة بتهمنا وتغنينا بها.. وشعرنا مع انتصاف الليل أننا استطعنا فعلا أن نخرج ألسنتنا لهم.. ثم تساقطنا كالصرعى لننام .

ولكن الإدارة لم تكن موجودة لتدرك ما نحن فيه ولترى ألسنتنا.. فهى فى ذاك الوقت كانت قد أصبحت كعقد انفرط وانتشرت حباته فى أنحاء القاهرة.. كل مسئول ذهب إلى بيته وخلع ملابس المسئولية وارتدى ملابس الاسترخاء والراحة ونعم بأذان المغرب والإفطار وشاهد الفوازير وصلى التراويح ونام.. ونحن هنا نأكل بعضنا فى حراسة حفنة من الحراس محبوسين معنا.. ربما كان حالنا أفضل من حالهم .

* * *

زنازين المخدرات الاثنتا عشرة التى تمثل نصف السجن نظيفة كأنها بيوت خاصة.. والبطاطين جديدة وغالية والحقائب المعلقة كلها من المستورد الفاخر وصور نجمات السينما تزين الجدران.. بل عرفت أن طلاء الجدران تسمح به إدارة السجن إذا كان تبرعا من أحد النزلاء.. وهم متربعون بأجسامهم الكبيرة المسترخية فى جلابيب بيضاء.. وبين أصابعهم المسابح .. وأوضح صفاتهم الجهل والتدين.. فهم يؤمنون إيمانا راسخا (أنهم تجار شرفاء يتجرون فى سلعة رابحة يطلبها الشعب ولكن الحكومة تتحدى رغبة الشعب وتحاربهم فى رزقهم وأنه ليس فى تجارتهم ما يتعارض مع الدين.. وحجتهم فى ذلك أن القرآن الكريم حرم الخمر والميسر ولم يشر إلى المخدرات ضمن التحريم.. وأنهم يتجرون فى (المزاج العالى) الذى يسعد الرجال ويعود بالسعادة على النساء أيضا.. فيكثر النسل وتزداد الذرية فى (أمة محمد) فتكبر وتزداد عددا وبأسا.. وعلى الأفرشة علب السجائر المستوردة والسيجار وقطع الحشيش فى حجم قطع الشيكولاتة مبعثرة فى زهد وشبع .

ومن مجمل الحواديت والحكايات وتحرّياتى فى زنازين المخدرات عرفت أن أغلب قضايا المخدرات يحكم فيها بالبراءة رغم أن المتهم يكون قد مارس التجارة فعلا.. وذلك لأن تاجر المخدرات بحكم مكاسبه الكبيرة يستطيع توكيل محام كبير.. بل أكثر من

محام.. يعكفون على دراسة القضية وعيونهم تبحث عن (ثغرة).. وغالبا يجدون غلطة فى سيناريو إجراءات الضبط تكون هى مفتاح البراءة.. وتجار المخدرات يعرفون هذه الثغرات التى يقع فيها دائما ضباط المباحث رغم علمهم هم أيضا بها ولكن ملابسات الضبط تورطهم فى ذلك.. وهذه الثغرات تكمن فى طريقة الضبط والمكان والكمية والتحليل المعملى للمادة المضبوطة.. وضباط المباحث بعد فترة من عملهم فى الحى يصبحون على بينة وبصيرة كاملة بكل من يتجر بالمخدرات.. ولكن عتاة التجار لهم دراية أيضا بالإجراءات بحيث لا يسهل ضبطهم.. فهم غالبا يستعملون غيرهم فى عملية النقل والتسليم والبيع ويظلون هم بعيدا مكتفين بمجرد المتابعة والإشراف.. وكلما تمكنت المباحث من ضبط صبى دفع المعلم بغيره وظل هو فى مأمن .

وفى حالة شهادة تاجر ضد تاجر آخر أو الإرشاد عنه يراعى التخفيف فى الحكم عليه أو اعتباره شاهدا وبذلك تكسب المباحث قضية جديدة.. فأحيانا بعد ضبط أحد الصبيان متلبسا تتفق معه المباحث وتفرج عنه وتتنازل عن القضية مقابل مساعدتهم للإيقاع بالتاجر الكبير أو العصابة التى تموّله.. ومن مظاهر عجز المباحث أن التجار يوظفون المخبرين وضباط الصف برواتب ثابتة شهرية سخية ومكافآت كبيرة مقابل إبلاغهم بتحركات حملات الضبط ولو قبل موعد قيامها بدقائق.. ومن مظاهر الإنسانية عند ضبّاط المباحث أنهم عند ضبط تاجر مخدرات لا يسجلون فى المحضر المبلغ المضبوط بالتمام.. بل يترك جزء منه لأسرة التاجر للإعاشة.. فإذا ضبطوا فى حوزته عشرة آلاف جنيه مثلا.. حرروا المحضر بتسعة آلاف وتركوا الألف لأسرته .

استقبلونى بنشيدهم :

(قرّب قرّب قرّب

قرب يا خرمان قرب

قرب على الهبو قرب

آخر مزاج وتعالى جرب

لا ويسكى ينفع ولا بيرة
قرّب وخُدْ لك تعميرة
الغرزة تحب اللمة الكبيرة
والجوزة بتكركر زىّ الأميرة
ننسى همومنا ونفضها سيرة
بس خلى بالك من أبو نجمة
يكون متخفى فى شنب عيره)
وطفت أسمع الحكايات والقضايا فى دنيا المخدرات..

* * *

أنا غبى أنا حمـار : صباحا تعطلت سيارة ضابط المباحث وهو فى طريقه إلى عمله فدفعها بعيدا إلى منطقة رملية وأغلقها وعاد فوقف على الطريق يشير للسيارات المتجهة إلى القاهرة.. على أمل أن يصل إلى هناك ويرسل ميكانيكيا لإصلاحها وإحضارها.. أشار لسيارة نقل بترول كبيرة قادمة من السويس فتوقفت.. فاستسمح السائق أن يركب معه فرحب به.. وتداول الحديث بينهما موضوعات كثيرة مما يروى عادة بين المسافرين لقتل الوقت وأنس كل منهما للآخر.. وقبل دخول القاهرة بخمسة كيلو مترات جنح السائق بالسيارة ودخل من بين أطلال وبقايا معسكرات قديمة وأبنية متهدمة من زمن الحرب.. ثم توقف بين هذه الخرائب وقال لضيفه:

– أنا متعود آخذ الاصطباحة هنا قبل ما ادخل البلد.. وانت ضيفى .

وفى فراغ واسع بين هذه الأطلال كانت تقف عدة سيارات نقل حول (عشّـة) من الخشب والصاج وبقايا سـيارات.. نزلا ودخلا.. وكانت (غرزة حشيش) تجمّـع بها بعض السائقين .

ونشط صاحب الغرزة فى تجهيز الجوزة والفحم.. وانتحى السائق جانبا بضيفه وأخرج لفافة من ورق السوليفان فضّ طياتها وأخرج منها قطعة حشيش وأخذ ينسِل من أطرافها

بأسنانه ويضع فوق الدخان.. ودسّ ماسورة الجوزة في فم الضابط الذى كان يرتدى ملابس مدنية عادية ورفع كفه إلى رأسه مصليا على النبى.. حالفا برأس أبيه أن يشاركه.. وسايره الضابط إلى أن انتهى من الاصطباحة.. وقاما واستقلا السيارة وواصلا الرحلة .

وفى القاهرة عرض عليه الضابط نقودا فرفض بشهامة أولاد البلد.. فصافحه شاكرا وانصرف.. وتوجه السائق إلى أحد الأحياء فأفرغ فنطاس السيارة ثم توجه إلى منزله بعض الوقت.. ومع العصر غادر القاهرة مرة أخرى عائدا إلى الطريق الصحراوى وعرج يساراً إلى الغرزة فوصلها قبل الغروب .

وفى نفس الفترة.. كان الضابط قد وصل إلى عمله سعيدا بالصدفة التى أتت إليه بصيد ثمين.. فاستصدر أمرا من النيابة وجهّز القوة وركبوا شاحنات بترول فارغة بسائقيها استأجروها خصيصا لهذا الغرض.. وعند الغروب دخلت السيارات يسار الطريق وأحاطوا بالعشة ونزل رئيس المباحث ورجاله متنكرين فى ملابس سائقين وداهموها.. وكان ضمن الموجودين سائق الصباح.. وقف مدهوشا وماسورة الجوزة فى فمه.. وجرّه أحد رجال المباحث فلما مر أمام رئيس المباحث تشبث بالأرض ونظر إليه يذكره مستعطفا.. فتجاهله .

وهو هنا فى الزنزانة يضرب كفا بكف ويقول:

– أنا غبى.. أنا حمار.. أنا اللى عرفته مكان الغرزة.. أنا اللى ودّيته بنفسى.. شاب باين عليه ابن ناس ما هانش على أسيبه فى الطريق.. واتكلمنا لقيته جدع زوق قلت أقوم معاه بواجب.. أخذته وتحيته وقدمت له الاصطباحة حشيش هبو أصلى.. كانت اصطباحة هباب.. المصيبة إنى اتكلمت معاه فى كل شىء وفاتنى أسأله بتشتغل إيه.. لو كنت عرفت إنه رئيس مباحث كنت حطيته تحت العربية.. خيرا تعمل شرا تلقى.. صحّ المثلْ .. إن كان صباعك عسكرى اقطعه.. أنا غبى.. أنا حمار .

* * *

صحوت على قطرات المطر تداعب قضبان نافذة الزنزانة ولم تظهر الشمس بعد.. ومن مكانى وأنا راقد على ظهرى ارتاحت نفسى لزرقة السماء الجميلة والجليلة فى نفس الوقت.. والفروع الخضراء الدقيقة العلوية لرأس شجرة فى فناء السجن والعصافير تتقافز عليها هربا من مداعبات قطرات المطر.. وزقزقاتها مع نسمة برد أنعشت فؤادى وشرحت صدرى وجعلتنى أبتسم.. ونهضت جالسا مستبشرا فسقطت عينى على النزلاء ومازالوا جميعـا نياماً..

.. وجوه مذعورة..

.. وجوه مدهوشة..

.. وجوه واجمة..

.. وجوه محبطة..

.. أجساد مفرودة مسترخية مستسلمة..

.. وأخرى منكمشة متقوقعة خائفة..

.. رؤوس فى صدور.. ورؤوس فى أقدام..

نائم يتكلم ويضرب بذراعه فى الهواء ويحرك إصبعه ويشرح قضيته.. وسألت نفسى.. ما هو شكلى وأنا نائم.. وتمنيت لو استطعت تسريب كاميرا إلى داخل السجن لأصور هذه المناظر الفريدة وأصور نفسى.. وأضيف إلى رؤية القلم رؤية الكاميرا .

وصلتنى طبلية ورسالة.. فرحت بالطعام وسعدت بالرسالة.. والطعام هنا يرفع رأس النزيل أمام زملائه ويعلى من شأنه ويوحى بقيمته فى المجتمع وشخصيته فى الحياة العامة.. فضلا عن سحر الطعـام عندما يصبـح هو الغريـزة الوحيدة والمتعة الوحيدة المتاحة والمباحة.

حدثت اليوم تطورات كبيرة فى السجن وفى الزنزانة.. بالنسبة للسجن كان قد تم توزيع عم جرجس المشلول صاحب قضية الفيديو إلى إحدى زنازين الأموال العامة ولكنه هناك لم يجد نفس العناية والرعاية التى كان يلقاها من الشابين اللذين توليا أمره فى

زنزانة الإيراد واللذين رحلا إلى زنازين أخرى حسب تصنيف تهمهم.. وضاق نزلاء الزنزانة الجديدة به.. فهو كثير الطلبات ودائم التبول ولا يحلو له التبرز إلا بعد موعد الإغلاق.. وأبلغ عنه نوبتجى الزنزانة الإدارة فنقل إلى المستشفى الملحق بالسجن.. وهناك بقى أسبوعا لم يلق العناية والرعاية والخدمة الواجبة.. وأمس سقط من فوق سريره أثناء نومه ولم يجد من يعاونه للصعود مرة أخرى فظل منكفئا على وجهه على البلاط حتى الصباح .. وكان الطقس باردا فمات.. ورغم أننى لم أعاشره سوى ثلاث ليال فى زنزانة الإيراد.. ولم أره بعد ذلك إلا مرة واحدة عندما حمله الشابان إلى دورة المياه ليحمياه.. إلا أنى تكدّرت كثيرا وبكيت لوفاته.. أو بمعنى أصح.. لوفاة الضمير .

* * *

فى زنزانتى.. أفرج اليوم عن خمسة.. فبعد رجوعهم من المحكمة ودعونا وحملوا أمتعتهم وغادرونا.. وأضيف إلى الزنزانة رجل واحد تخطى الخمسين أصلع سمين بكرش كبير احتل به المساحة التى خلت بخروج الخمسة وهو حسب أقواله صاحب مصنع صابون بنى عمارة وعرضها للإيجار واستولى من الأهالى على مقدمات إيجار أثناء البناء وبعد إتمامه باع الشقق تمليكا ولم يرد للمستأجرين ما دفعوه فحبس بتهمة النصب والاحتيال وهى من التهم التى تحتاج إلى ذكاء ولباقة وبديهة حاضرة وكياسة وحسن مظهر.. وكل هذا غير متوفّر فيه.. بل إن منظره لا يحمل سوى الغباء والجهل، وربما هذا قد ساعد على حسن ظن الناس به.. وكما يقول المثل (يوضع سرّه فى أضعف خلقه).

وأعاد النوبتجى حساباته وصدرت تعليماته بالمساحة الجديدة المسموح بها فشرعنا فى التنفيذ.. وتحسنت أقدميتى وبالتالى تزحزح موقعى بعيدا عن حوض البول حوالى نصف متر.

نظرا لحالة البرد بقى أغلب النزلاء فى الزنازين طوال اليوم.. والبعض نام ظهرا.. وبدا الفناء خاليا موحشا.. ولهذا امتدت السهرة بحيوية حتى السحور وإن شابها شىء من الضيق عندما أغمى على زميلين.. أحدهما قبل الإفطار مباشرة والثانى سجد مع

الساجدين فى صلاة التراويح ولم يقم وأخذ يبكى وهو منكفئ وكل جسده ينتفض بشدة.. وهرعنا إليه وبقينا حوله حتى استعاد توازنه وابتعد عن التفكير فى مصيره ومصير أسرته.. إنها حالة شرود تداهم السجين حتى وهو بين يدى الله.

* * *

بزيارتى للزنازين زادت حصيلتى من النماذج البشرية والسلوك الإنسانى.. إنها رحلات إلى قاع المدينة.. فهذا السجن هو عكارة المجتمع.. هو التفالة المرة المكروهة .. هو الحقيقة بعد أن انكشف عنها زيفها.. هو الخبرة والتجربة والنجاح والفشل والخير والشر.. هو الغابة كما خلقها الله والمجتمع كما طوره الإنسان والحياة فى برشامة.

زنازين الآداب عادية.. نفس المساحة والنوافذ الأربع والحقائب المعلقة والبطاطين على الأرض.. وحوض البول وبرميل الماء والسخان الوحيد وصور الفنانات على الجدران.. وإذا أردت أن تدرك قيمة المرأة فى حياة الرجل فادخل السجن.

لم أجد فرقا إلا فى زنازين المخدرات والأموال العامة.. فى المخدرات مستوى المعيشة أفضل .. وفى الأموال العامة مستوى الإنسان أفضل.

سرت العدوى.. وأصبحت زيارتى منافسة بين الزنازين.. كأنى مسئول كبير فى جولة تفقدية على فرق رياضية متنافسة.. كل فريق حريص على أن يحظى فى النهاية بأعلى درجة ويفوز بالكأس.. وفوجئت بمجرد دخولى من باب الزنزانة بالكل فى استقبالى.. وبادرونى بالنشيد:

(ده رجل وله بيت.. ويبص لحريم تانى
إتجوّز وشبع .. ورجع للحرام تانى
يستحق الأدب.. ما فيش كلام تانى
ده اللى يعرف النسا.. ما يعاشر حريم تانى
دول حلوين بس فى الشعر والأغانى
ياويله اللى يهرب.. ويرجع للعذاب تانى

تاخد حريم غيرك ليه يا وحش يا أناني
ده فعل فاضح .. وتصرف مش إنساني
ما دام كفرت بالحب .. ليه ترجع للعذاب تاني
واللي يعمل كده رجل بصباص.. وللاشيء تاني)

* * *

صاحبة العمارة : تاجر وصاحب بازار لبيع التحف للسياح.. شاب ضخم رياضى يتمتع بصحة جيدة.. ترددت عليه بنت مالكة العقار أكثر من مرة تطالبه بزيادة الإيجار لأنه ميسور وأرباحه كثيرة ويتجر فى الدولار.. وأثارت شوشرة ومشاكل وسبته أمام المحل أكثر من مرة.. ودأبت على اختيار الوقت الذى يكون فيه مشغولا مع وفد من السياح فتحضر وتصرخ وتسبه وتلم الناس حوله فيهرب السياح.. ثم تنصرف وهى تعده أن (من ده بكره) إن لم يضاعف الإيجار.. وزاد لها الإيجار أكثر من مرة ولكنها لا تهدأ بعدها إلا شهورا وتعاود طلب الزيادة.. ولما ضاق بها تربص لها.. وحضرت.. وقبل أن تصرخ كعادتها ليتجمهر الناس هجم عليها وألقى بها على الأرض فى وسط الشارع وهى شابة جميلة وجردها من ملابسها تماما وأصبحت عارية كما ولدتها أمها.. ودس إصبعه فى فرجها.. ثم ألقى لها ملابسها فلملمتها ودخلت جريا إلى أقرب محل فارتدتها وهى فى ذهول ثم ولت هاربة فى صمت.. ورغم أن جيرانه كانوا قد ضجروا من مشاكلها ومشاجراتها التى تؤثر على أرزاقهم أيضا.. إلا أن بعضهم استقبح واستبشع ما فعله زميلهم.. فشهد بعضهم ضده أمام النيابة.. وهو هنا فى انتظار المحاكمة .

* * *

الشيطان شاطر : تخطى الأربعين.. أى تخطى سنّ الطيش والنزوة.. ورغم هذا فتهمته أنه اعتدى على شقيقة زوجته.. وهى طفلة عمرها سبع سنوات.. حكى لى قصته وهو يجفف عرقه وخجله ويقول (الطفلة تكذب.. والله تكذب) وأعمق نظرتى لعينيه لأستشف الحقيقة فيهرب بهما فيزداد شكى فيه.. ثم أستعيذ بالله من الشيطان الرجيم وأقول إن العلم علمنا أن المتهم برىء حتى تثبت إدانته وأن الارتباك والخجل

والحرج ليس دليل إدانة وأن الشك يفسر لصالح المتهم.. وكم فى الحبس من مظاليم.. وعلى حد قوله.. هذه أقوال طفلة.. ثم يهاجمنى خاطر يقول (الشيطان شاطر) فأنكب على الورق أسجل وأبتلع افتراءاتى وافتراضاتى وما يدور فى ذهنى.. وأتذكر المقولة المشهورة هنا التى يرددها أغلب النزلاء.. (ربما يكون بريئا فعلا.. ولكن هذه المحنة تكفير عن ذنب آخر اقترفه وأفلت من العقاب.. والله يمهل ولا يهمل.. وكله تخليص ذنوب) .

* * *

تجار أعراض.. محلى ومستورد ومستعدون للتوريد والتصدير وتوصيل الخدمة للمنازل.. جلس بينهم شاب (حليوه) يباهى بأنه قبض خمسين ألف جنيه مقابل القيام ببطولة فيلم ڤيديو.. قام فيه بدور العروسة فى فراشها ليلة زفافها .

* * *

عشرة عمر : متزوج من أربع.. يؤجرهنّ كلهنّ.. فلما تخطت كبراهن سن اليأس وأصبحت خطرا على سمعته وسمعة بضاعته طلقها وتزوج رابعة جميلة تعيد الانتعاش والسمعة الطيبة لتجارته لدى زبائنه.. فوشت القديمة به لبوليس الآداب.. والشىء الغريب أنها الوحيدة التى تواظب على زيارته فى السجن.. وهى التى تحضر له الطبلية كل يوم . عشرة عمر .

* * *

بعد فوات الأوان : أدرك أن العمر ولى وهو يجتهد ويناضل وينافق ويصعد المنصب تلو المنصب.. ولم ينتبه لشبابه الذى تسرب منه دون أن يدرى ونشل منه فى زحمة الصراع والصعود والتطلع.. وندم وعرف أنه كان مغفلا وأن الزمن غافله ونشله وأن الكراسى ضحكت عليه.. وقرر أن يعوض ما فات فاستغل منصبه وسلطته وحاجة الناس إلى توقيعه فى التعويض وملاحقة ما فات .

وقفت أمامه سيدة جميلة لها حاجة إلى توقيعه بخصوص صرف حصة مواد بناء لإكمال بناء عمارتها.. وحليت فى نظره واحتلب لها ريقه ورأى فيها شبابه الضائع

فطلب.. ساومها بصراحة أن توقيعه مقابل ليلة حمراء وهكذا يفعل الغشيم.. ولسوء حظه كانت سيدة فاضلة وجامعية ومثقّفة ولها أقارب فى السلطة.. فأمهلته الردّ فى الزيارة القادمة ، وذهبت فدبرت الأمر مع المباحث.. وعادت له واتفقت على الموعد.. وأخرج ورقة ليكتب لها عنوان شقته الخاصة فدفعت هى إليه بعنوانها واشترطت أن يتمّ اللقاء عندها.. وقبل الموعد المحدد كانت أجهزة المباحث بالكاميرات صوت وصورة فى مخابئ بالشقة.. وجاء العريس وشرب.. وخلع ثيابه وارتدى الروب دى شامبر الأحمر، ورقص والكأس فى يده وهى تصفّق له وتدير وجهه ناحية الكاميرا والأجهزة ترصد وتسجّل .

إنه يتحرك فى الزنزانة جيئة وذهابا بنفس البيچامة والروب الذى ضبط به وعيونه شاخصة دائما فى ذهول.. (ماذا حدث..؟ كيف حدث؟ .. لماذا حدث؟ وماذا بعد؟) لم تزره زوجته.. فهى من أسرة كبيرة عريقة من أصل تركى.. ولم تغفر له هذه الإهانة المسجّلة رسمياً صوتا وصورة.. وكذا لم يزره أولاده لحساسية مناصبهم فأغلبهم فى السلك الدبلوماسى.. أصابعه لا تفارق ذقنه ويقول:

- أنا مش خايف من المحاكمة ولا زعلان على مركزى.. أنا خايف من لقاء زوجتى وأولادى.. أنا شايف إن وجودى هنا فى السجن أفضل وأرحم من نظرات الناس.. على الأقل كل اللى هنا من عينتى.. واللى بيته من قزاز ما بيحدفش الناس بالطوب.

* * *

وصلتنى رسالة من ابنى يشرح لى فيها أحوال البيت والمطبعة وما تم تنفيذه وما عجز عنه من توصياتى لهم أثناء الزيارة وفى الرسائل.. ثم شرح لى دور كل واحد من إخوته فى إدارة دفة العمل فى المطبعة والبيت.. وشعرت بالرضا فى نهاية الرسالة.. وأدركت أن ابنى الذى اقترب على العشرين أصبح رجلا.. وتحمست فكتبت له الرد:

(ولدى.. قبل الحبس كانت تأتينى أفكار عن الموت المفاجئ.. الموت الذى يأتى قبل أن يكمل العائل رسالته نحو عياله.. قبل أن ينتهوا من دراستهم ويزوج البنات ويطمئن

عليهنّ.. وكان القلق ينتابنى كلما تصديت بالتفكير فى هذا الاحتمال.. فأنتم ما زلتم صغارا وواجبى لم يكتمل بالنسبة لكم بعد.. ولكنى الآن وأنا أعيش هذه التجربة أشعر بالراحة والاطمئنان.. إن الحبس الذى أعانيه الآن أفادنى من نواحٍ عدّة.. منها خوض (بروفة الموت).. فهذا الحبس الذى عزلنى عن بيتى وعملى وكل حياتى بمثابة الموت.. أو بروفة موت اضطرتكم أن تمارسوا أعباء العيش بدونى.. وغيابى وظف كُلاً منكم فى الدور الذى يستطيع أن يؤديه فى مسيرة الأسرة والعمل.. حقا هى تجربة قاسية ولكنها مفيدة.. طمأنتنى أنى لو مت فجأة سواء الآن أو بعد خروجى من السجن ستستطيع أنت ووالدتك وإخوتك أن تديروا العمل وتديروا إعاشتكم وسيتحمل كل منكم جزءا من المسئولية التى كنت أقوم بحملها وحدى.. وعلى ضوء هذه التجربة سأستطيع وستستطيعون معى أن نقيم التجربة بعد خروجى ونقيم الدور الذى أداه كل منكم.. فنقره أو نعدل فيه بما يعود بالتحسين والإجادة فيما لو تكررت هذه التجربة أو حدث قضاء الله ومت قبل أن أكمل واجبى نحوكم.. ولقد فكرت كثيرا يا ولدى أن أنفذ هذه التجربة قبل السجن بأن أسافر وأترككم تتصدون للحياة وحدكم.. ولكنى ترددت وأشفقت عليكم.. لأنى لو كنت فعلت هذا ما كنتم ستأخذون الأمر بالجد لأنكم ستعتبرونها أيام سفر بعدها يعود الثور ليدير الساقية.. ولكن صدق هذه التجربة فى محنتها التى بعثت فى قلوبكم الإخلاص والتفانى والتعاون والتآزر للوصول بالسفينة إلى بر الأمان.. لكل هذا يا ولدى أنا سعيد بالتجربة ونتائجها.. وأتمنى أن يقوم رب كل أسرة (بتجربة للموت) فيترك أولاده بحجة السفر مثلا ويوكل إليهم القيام بكل الأعباء.. وحتى لو عاد ووجد للتجربة خسائر فلا بأس.. لو قام كل عائل بهذه التجربة ما انهارت الأسر بعد وفاة عائلها.. ولا خربت بيوت ولا كسدت تجارة ولا أغلق مصنع أو ورشة.. هكذا تجد يا ولدى أن تجربة غيابى كانت المصل الواقى للمستقبل.. فكما أن المصل الواقى من أى مرض عبارة عن جرعة بنسبة ضئيلة من نفسْ المرض فكذلك غيابى هذا المؤقت هو جرعة بنسبة ضئيلة من غياب الموت الأبدى).

* * *

زنـزانة الأجانب : بعـد أن انتهيت من الرسـالة وأعـدت الأوانى وارتحـت لم أجـد ما يشغلنى فشددت الرحال إلى زنزانة الأجانب.. لا تختلف عن باقى الزنازين سوى أنها أكثر قذارة وفوضى والحقائب على الأرض وبدون شعارات أو نشيد وأغلبهم من إفريقيا وليس لهم من يزورهم لهذا كثر تسولهم فى رمضان.. ولاختلاف جنسياتهم فكل منهم له طبع ومزاج وعادات خاصة.. بعضهم فضل أن ينام على بلاط الزنزانة مباشرة وبعضهم يسهر الليل وينام النهار فى الفناء.. كلهم سود عدا واحد أبيض هو الفرنسى.. وتهمهم (جلب هيروين ومخدرات) عدا شاب نيجيرى كان طالبا فى الأزهر ويقيم فى مدينة الطلبة الوافدين.. دأب على سرقة ملابس زملائه وبيعها فى سوق الكانتو بالموسكى.. ورتبت له شرطة الجامعة كمينا وضبط متلبسا.. أما الباقون فأغلبهم جهلة وأميون وقصصهم تقريبا واحدة.. يهربون من بلادهم جوعا إلى بلاد تصدير المخدرات لتهريبها إلى بلاد استيراده.. وأغلبهم من المكسيك وباكستان ولبنان.. وبعضهم تتبرأ منهم سفاراتهم فيعيشون فى السجن على التسوّل أو غسل الثياب ونشره للنزلاء.. فكل صباح يربط المرتزق حبلا فى قضبان نافذة سفلية ويمده بعرض الفناء ويثبته بمسمار فى السور المقابل.. ويجلس تحته فى انتظار النزلاء عندما يغسلون ملابسهم ويستأجرون منه الحبل.. ولا يجرؤ أى نزيل مصرى على منافستهم فى هذه (المهنة) فهى قاصرة عليهم ويتعاركون من أجلها بعنف ووحشية .

* * *

الفـرنسى الفيلسـوف : لم يلفت نظرى فى زيارتى لزنزانة الأجانب سوى الفرنسى.. وتحاورت معه فعرفت أن تهمته تزوير شيكات سياحية.. فهو يتتبع جهات إصدارها والأشخاص الصادرة لصالحهم ويسافر من دولة إلى دولة جريا وراء شيك معين حتى يظفر به ويهرب.. وظل البوليس الدولى يطارده حتى تمكن من القبض عليه فى مصر صرفت له إدارة السجن ثلاث بطاطين رديئة مهلهلة من بطاطين نزلاء الميرى.. وهو لا يحمل حقيبة ملابس.. وشكا لى أن إدارة السجن أخذت منه الكاميرا.. وأدهشنى أن كل مشاكله فى السجن تتلخص فى رغبته فى استرداد الكاميرا .

وتكلمت معه فى جريمته فضحك وقال (لماذا تصرّون على أن تسموها جريمة.. أنا فنان.. رسام.. أنا لا أزوّر.. أنا أبدع.. فعندما أقلد توقيعاً أو ختما وتعجز دولة بكاملها عن إدراك التقليد أشعر كم كان إبداعى رائعا.. وبهذا أحقّق ذاتى ووجودى.. وهذه هى فلسفة الحرية.. هذه هى روح الحضارة.. فى بلادنا الآن نساء مثقفات وفى مراكز اجتماعية كبيرة تمنحن أجسادهن للرجال بدون زواج وبدون مقابل وليس بغرض تحقيق المتعة.. ولكن لمجرد ممارسة الحرية الشخصية.. إن قمة الحضارة هى الحرية.. لقد تنازل الإنسان القديم عن جزء من حريته للدولة لتكون هى الحرّ المطلق الذى يحمى له الكمّ الباقى من حريته. وبهذا استقر الإنسان وحقق الإنجازات العلمية الرائعة التى أوصلته إلى الحضارة التى أعادت إليه الحرية.. صدّقنى أنا لا أزوّر.. أنا أمارس حريتى وأعيش الحضارة.. كفاكم تخلفا وأطلقوا سراحى ودعونى أذهب إلى بلاد أخرى تفهم وتقدر قيمة الحرية وقيمة الإنسان لأمارس فيها حقى) .

* * *

تهـــديد : جاءنى النوبتجى فى الفناء مهرولا ومعه بعض نزلاء زنزانتنا وطلبوا منى علبة سجائر فقلت لهم (خذوا ما يلزمكم من حقيبتى) فشرح أحدهم السبب.. قال إن محامى الأستاذ ويليام كان قد طلب مرارا مائة جنيه من حساب الأتعاب وعجزت الأسرة.. ولأن جلسته بعد باكر حضرت زوجته اليوم باكية تقول إن المحامى هدد بعدم حضور الجلسة إن لم يصله المبلغ.. فقرر الزملاء جمعه من بعضهم.. فلما عرفت السبب أوصيتهم بأخذ خمس علب .

وعندما عدت إلى الزنزانة عرفت أنه قد تمّ جمع المبلغ واستبدلت السجائر بنقود من الباعة.. وبكى الأستاذ ويليام عندما فوجئ بالمبلغ جاهزا .

* * *

نشطت المحاكم فى شهر الصوم بعكس ما كنت أتوقع.. فهذا الشهر فى مصالح الحكومة استرخاء وتزويغ وجرى فى الجمعيات الاستهلاكية.. عاد العرض وكان العدد اليوم كبيرا.. عم حسين بواب عمارة التأمين الذى كان يؤجر الشقق مفروشة دون علم

الهيئة حكم عليه بسنة وتسديد كل ما اختلسه.. والفلسطينيان اللذان كانا يزيفان الجنيه المصرى كل منهما ثلاث سنوات.. وثلاثة موظفين كانوا يتقاضون رشاوى أفرج عنهم بكفالة ثلاثمائة جنيه لكل منهم.. والحنيطى خادم الزنزانة الذى يفد من الميرى تأجلت قضيته شهرين مع استمرار حبسه.. والأستاذ أبو زيد استطاع أن يحصل على واسطة تنقله إلى مستشفى السجن.. ولما استفسرت شرح لى الزملاء أن النقل إلى المستشفى أفضل كثيرا.. فهناك عنابر نظيفة وأسِرّة ودورة مياه.. وكلها ميزات للسليم.. أما المريض فداخلها مفقود لأنه ليس بها طب أو علاج أو تمريض.. مجرد مكان أفضل لأصحاب الواسطة الأصحّاء..

* * *

حرامى المعزة : وجاءنا نزلاء جدد أغلبهم شبان حديثو التخرج والتوظف منهم ثلاثة يعملون فى جمعية استهلاكية كانوا يبيعون السلع فى السوق السوداء ويستولون على فرق السعر.. واثنان من مفتشى التموين بتهمة أخذ رشوة من صاحب مخبز.. والمضحك أنه قد تم ضبطهما متلبسين وهما يتسلمان الرشوة وسجلت المباحث الواقعة بالصوت والصورة بالڤيديو من فوق شجرة فى كازينو على النيل.. ورغم هذا يضربان كفا بكف ويقولان (لقد قابلناه هناك صدفة وأعطى كلا منا علبة سجائر على سبيل التحية) ولما سألت مندهشا (هل سجنتما من أجل علبة سجائر؟) ردا باستهانة وتهوين (كان فى كل علبة مائة جنيه بس) فضحكت.. وتذكرت (حرامى المعزة) الذى دافع عن نفسه فأقسم للقاضى أنه لم يسرق.. فقط كان ماشيا فوجد قطعة حبل طولها متر ملقاة على الأرض فأخذها.. فلما سأله القاضى (وماذا كان فى الحبل؟) أشاح بيده مهونا ومط شفتيه فى استخفاف وقال (حتة معزة) .

وهكذا اختلط الأمر فى السهرة هذه الليلة.. المرحلون لتنفيذ الأحكام والذين حكم باستمرار حبسهم أسلموا أنفسهم لليأس والإحباط وجاءهم النوم مبكرا بعد قلق الليلة البارحة.. والوافدون الجدد بدأوا يتدبرون أمر أماكنهم وفرش بطاطينهم والبحث عن أماكن لحقائبهم فى الحبال المدلاة من قضبان النافذة.. وكثرت أسئلتهم واستفساراتهم كما

فعلنا من قبل.. وأعلن النوبتجى المساحة الجديدة المسموح بها لكل نزيل فهرعنا للتنفيذ فتزحزح موقعى مرة أخرى بعيدا عن الحوض .

ثم التففنا حول المطرب.. وانطلقت الحناجر تردد خلفه بحماس لتهش عن نفسها ألم الهواجس والتفكير.. كالجنود عندما ينشدون وعيونهم زائغة وأعصابهم مشدودة قبل إلقائهم من الطائرات إلى ساحة المعركة ليلقوا بعد دقائق قليلة مصيرا محتوما مجهولا.. فتنطلق حناجرهم بالأناشيد كأنهم أوعية مفرغة هربت منها المشاعر.

وعندما تزداد حدة المشاعر يزداد التدخين والتبول والتبرز لهذا زادت حالات التكييس عن معدلها فهرع الزميلان بالبطانية أكثر من خمس مرات.. ويصعب على أى كاتب أن يسجل مناخ الزنزانة مهما أوتى من براعة ولو كان خبيرا موفدا من مصلحة المجارى.. حتى الحشرات تفر من هنا ولا أثر لها فى الزنازين.. فمنذ حادث الصرصار الذى تجمهر الصعايدة لقتله لم أر حشرة.. وإن كنت أسمع أنه فى الصيف يملأ الذباب الزنازين فيسهر النزلاء وبيد كل منهم ورقة من الكرتون يروحون بها لطرد الحر والذباب وقد خلعوا ملابسهم وبقوا بالملابس الداخلية فقط.. ويظلون هكذا حتى الصباح.. ويكتفون بالنوم بعض ساعات النهار عندما يكون باب الزنزانة مفتوحا .

* * *

بمجرد فتح الزنزانة هرعت حاملا بطانيتى إلى الفناء.. فاليوم جمعة والإدارة فى إجازة ولا يوجد ضباط.. وتنقطع العلاقة بين طرفى السجن (الإدارة والعنبر) أو بين السجانين والمسجونين.. فلا عرض ولا زيارة.. الطبلية فقط.. وتنشط الحركة الداخلية.. ترقيع الثياب والخياط والمكوجى والحلاق وماسح الأحذية وتبادل الزيارات والكنتين.. وتنشط حركة التجارة عموما ويزداد ضجيج وصراخ الباعة ويصبح الفناء كسوق الموسكى.. كل ينادى على بضاعته.

أما فى داخل الزنازين فتباع خدمات وسلع أخرى.. فلقد رأيت فى إحدى الزنازين شخصا احترف (الرّقى) يمر على الزنازين.. ويناديه الزبون فيجلس قبالته ويأخذ رأسه فى صدره ويحيطها بكفيه ويضع فمه فوقها ويظل يرتل الأدعية حتى تنتاب الزبون حالة

استرخاء ورغبة فى النوم فيظن أن (مولانا) استطاع أن يطرد من رأسه الشياطين فينقده علبة سجائر ويستسلم للأحلام .

أذن المؤذن لصلاة الجمعة وامتلأت ساحة المسجد وافترشت خارجه البطاطين وسجاجيد الصلاة وبدأ الإمام الخطبة بالطريقة المعروفة إلى أن وصل إلى فقرة الدعاء فتحمست الحناجر تردّد خلفه بصوت عالٍ آملة أن يصل رجاؤها والتماسها إلى السماء:

(اللهم سامحنـــا ... ... آمين

اللهـــم اغفـــر لنـــا ... ... آمين

اللهـــم تـــب علينـــا ... ... آمين

اللهـــم نـــوّر بصيرتنا ... ... آمين

اللهـــم سـلك طريقنا ... ... آمين

اللهـــم فـــرّج كربتنا ... ... آمين

اللهـــم فُـــك أسـرنا ... ... آمين

اللهم أخرجنا من حبسنا .. ... آمين

اللهـم أعـدنا إلى بيوتنـا . ... آمين

اللهم صبّرنا على سجننا . ... آمين

اللهم ألهم القاضى الرأفة بنا... آمين

اللهم حنن قلب حكامنا ... آمين

اللهـم اسـتر أولادنـا .. ... آمين

اللهـم صُـنْ بيـوتنـا ... ... آمين

والحالة فى المسجد تذكرنى بالطلبة أيام الامتحانات عندما يكثر ترددهم على المساجد وتقربهم إلى الله وبعد الامتحانات لا ترى لهم أثرا .. فـهنا أيضا أكثر المترددين هم المذنبون المتوقعون أن يكون امتحانهم أمام المحكمة صعبا ويتوقعون الإدانة.. وكان معنا

نزيل مواظب على الصلاة فى مواعيدها وكان يجلس لساعات يقرأ القرآن ويدعو الله بصوت عال.. فلما حكمت المحكمة باستمرار حبسه توقف عن الصلاة والدعاء.. وسيظل متوقفا إلى أن يقترب موعد الجلسة القادمة فيعاود التردد على المسجد .

* * *

أصبحت فوجدت حالة التهاب حلقى قد زادت.. ويبدو أنها حالة عامة لأن نوبتجى الزنزانة وهنت حركته واستسلم لفراشه أمس واليوم ولم نسمع صوته وهو يجأر بالتعليمات والتوصيات.. وزاره أغلب النزلاء وقاموا على خدمته ونصحوه بعدم الصوم وجهزوا له عصير ليمون.. وناوله عم سعفان سفة جنزبيل وهو يقسم له أن الجنزبيل يطرد ألف مرض.. وزرته أنا أيضا ونصحته بالتوجه إلى المستشفى فابتسم يطمئننى وقال (حالتى أنا عارفها.. والعلاج دايما معاى) ثم أسمعنى شيئا من الشعر.

* * *

فى كل مكان رأيت الحرامى يعامل بازدراء ويهان.. فالقاتل مثلا يترك فى نفسك الشعور بالعنف والقسوة والجبروت.. أما الحرامى فدائما يترك فى نفسك الشعور بالخسة والاحتقار.. وحتى زنازينهم قذرة جدرانا وفراشا وملبسا وطعامهم فقير.. فالقاتل قد يكون ابن ناس ومن أسرة طيبة أو صاحب شأن.. والمختلس أو المرتشى قد يكون متعلما.. ومجرم الآداب تشكيلة مخلوطة من المجتمع.. ولكن اللصّ بالذات غالبا وليد أسرة فقيرة وتربية متخلفة وبيئة منحطة.

غصبت نفسى ودخلت زنازين السرقة وأنا لا أتوقع شيئا مدهشا.. ولكن ثبت لى أن الجريمة، أية جريمة، تحتاج دائما إلى نذر ولو يسير من الحنكة والجرأة والبأس والذكاء .

واستقبلونى بنشيدهم:

احنا ولاد سنة ألفين

احنا اللى سرقنا الكحل من العين

الحلوة اتكحّلت وقالت هات

فكان لازم نِحرت من غير مِحرات
أصل الحلوة غالية
طلبها أمر وتلميحها تعليمات
لو طلبت نسرق القمر
ضرورة والأعمال بالنيات
ماهى زكاوة وشطارة وفهلوة
ناخد اللى نحتاجه من غير ما نقول هات
أصل السرقة خفْة يد
لكن السؤال مذلة وإهانات
يا بخته اللى يفتح خزنة
من غير شبهة ولا تحقيقات
والشاطر يعملها ويهرب
من غير أثر ولا بصمات.

عرّفنى النوبتجى بهم.. يشير إلى كل منهم وهو جالس على فراشه ويذكر اسمه (النُّصّ.. الفَصّ.. أبو شلاضيم.. سكسكة.. أرأر.. سمسم.. سعدية) تصوروا حرامى اسمه سعدية.. وكل اسم يقدمه يعرفنى بوظيفته وتخصصه فى عالم اللصوصية (مرشد. طفاشة. بلاطة. مناول. ملقاط. مِقص. مداوى. متاوى. سلاكة. مفتاح. منشار. قشاش) دارت رأسى وأنا أسمع هذه الأسماء وهذه الاصطلاحات.. وأدرك النوبتجى أننى لم أفهم فشرح لى..

المرشـــد : فى العادة خادمة أو سفرجى أو طباخ يعمل فى البيت.. يحدد المكان المراد سرقته وكيفية دخوله ومكان الأشياء الثمينة وموعد غياب أصحابه.

طفاشـة : هو الذى يسرق الأشياء التى تحتاج إلى عنف ككسر أقفال الخزن الحديدية والأبواب المصفحة .

بلاطـة : هو الذى يسرق كل ما يفرش على البلاط ابتداء من السجادة وما فوقها.. ويستعمل فى سرقاته وضح النهار وسيارة نقل يحمل فيها موبيليا وتحفا وثلاجة وبوتاجاز وتليفزيون.. بمعنى أنه يترك الشقة أو الڤيلا بعد السرقة (على البلاطة).

منـاول: هو الذى يناول المسروقات من نافذة أو من ڤراندة لزميله المنتظر أسفل فى حديقة أو منور العمارة ثم ينزل هو بالطريق العادى.. (السلم أو المصعد).

ملقـاط : زميله الذى يلتقط المسروقات ويعرف كيف يزوغ بها من أعين رجال الشرطة فى رحلة الرجوع .

مقـصّ : هو الذى يسـرق من المحلات العـامة والمعـارض.. يدخل محل جواهـرجى أو ساعاتى أو بوتيك ويظل يطلب من هذا وذاك ومن هنا ومن هناك حتى يتوه الموظف الذى يتعامل معه.. فيغافله ويخفى بعض المعروضات ثم يعتذر عن الشراء وينصرف.. وبمجرد خروجه يطلق ساقيه للريح أو يقفز فى أقرب أوتوبيس قبل أن يعيد البائع معروضاته المبعثرة إلى أماكنها ويكتشف السرقة.. وهو عادة (يقص) ما غلى ثمنه وخف حمله.. خاتم. ساعة. ولاعة ذهب. عقد. حلق .

مـداوى : هو الذى يتلقى المسـروقات من اللصوص ويقوم بترويجها وبيعها.. أى يداوى الجريمة .

متـاوى : هو الذى يخفى المسروقات تحت ذمة سارقيها لحين الاتفاق مع (مداوى) لترويجها.. أى أنه صاحب مخزن لحفظ المسروقات بالأجر .

سـلاكة : هو الذى يقوم بتسليك الطريق وتجهيزه وتمهيده لقيام باقى أفراد العصابة بمهامهم.. ويشترط فيه أن يكون ذكيا لبقا.. بمعنى أن يصحب الخادمة إلى السينما فى رحلة غرام حتى يقوم الباقون بمهامهم أو يرسل بواب العمارة فى مأمورية ببقشيش سخى أو يصحبه للتفرج على شقق مفروشة للإيجار.. وهكذا.. فهو مؤلف حكايات وصانع مواقف لإخلاء الطريق.

مفتـاح : هو لص چنتلمان يدخل من الباب ويستعمل مجموعة من المفاتيح دون اللجوء للمواسير أو المناور أو كسر شراعة أو شباك.

منشــار : هو حرامى الأشياء الثمينة.. ما خف حمله وثقل ثمنه.. وهذه الأشياء تحفظ عادة فى خزائن فيستعمل المنشار وأدوات أخرى فى فتحها .

قشــاش : هو الحرامى الخائب الذى يسرق السهل الرخيص.. دجاجة من أمام منزل .. غسيل منشور فى دور أرضى.. سجادة على حافة ڤراندة.. قدرة فول فارغة على الرصيف أمام مطعم.. شيكارة أرز من بضاعة سوبر ماركت أمام المحل.. وأى أشياء تقابله بطريق الصدفة السهلة.. وعادة كل نشاطه فى الشارع ارتجالا دون متابعة أو تحر أو تخطيط مسبق.. وهو محل استخفاف واحتقار من الفئات الأخرى من اللصوص.. فقد قدم لى أحدهم نفسه على أنه (منشار) .. ولكن زميلا آخر غمز لى بعينه ومط شفتيه وهمس لى فى استهانة (كذاب.. ده حتة قشاش لا هنا ولا هناك) وأحيانا يجمع اللص الواحد بين عدة تخصصات .

* * *

حـرامى الجـزم : سمعته فى الفناء أكثر من مرة يشكو للنزلاء فى غدوه ورواحه بانزعاج وهوس .. وعندما لا يجد من يستمع إليه يكلم نفسه (يا ناس يا هوه أنا حرامى جزم مش تاجر مخدرات) فلما دخلت زنزانته اندفع إلىّ وقال:

– أنا كنت عاوز آجى لك يا أسـتاذ علشان تكتب عنى فى الجرايد.. أنا حرامى جزم مش تاجر مخدرات .

وابتسمت له وربت كتفه وجلسنا على فرشته وحكى لى قصته.. قال إنه (قشاش) ومتخصص فى سرقة الأحذية.. يشترى أحذية قديمة جدا من باعة الروبابيكيا ويدخل المساجد.. فينتقى حذاء جديدا يستبدله ويخرج.. وبهذا الفرق بين مستوى الحذاءين وبعد زيارته لعدة مساجد كل يوم يحصل على رزقه اليومى.. وكانت له مهارات وخبرات فى تخصصه هذا.. فهو بمجرد أن يلتقط حذاء جديدا يفتش فيه بسرعة عن علامة مميزة بحيث لو لحه صاحب الحذاء وأمسك بخناقه وتجمهر الناس ادعى وأقسم على ملكيته للحذاء واستشهد بهذه العلامة المميزة كوجود بقعة أو فتق أو جرح أو كرمشة فى البطانة أو قطع فى الرباط.. وهذه الأشياء البسيطة فى الغالب لا تلفت نظر صاحب الحذاء

ولكنها تكون قرينة تفيد اللص فى إثبات ملكيته للحذاء والتخلص من المشكلة.. ويوما استبدل حذاء ولكن صاحبه تربص له على باب المسجد وأمسك به واشتد الخلاف بينهما.. وعجز المتدخلون عن فضّ الاشتباك وعجز هو عن الاستشهاد بعلامة مميزة فى الحذاء.. وكان المسجد بجوار قسم الشرطة فاقتادهما المصلون إلى هناك.. وفى الطريق فى غفلة من الناس والحذاء تحت إبطه لسعه بنار سيجارته.. ولما وصلا إلى الشرطة سأل الصول النوبتجى كلا منهما عن دليله لملكيته للحذاء.. وهنا جاءه الفرج فذكر للصول لسعة السيجارة وحدد مكانها فرجحت كفته.. فنظر الصول إلى صاحب الحذاء الأصلى بغيظ وقال :

– لو ماكنتش رجل كبير فى السن كنت عملت لك محضر سرقة.. لكن حرام أسجنك وانت فى السن دى علشان جزمة يا حرامى حقير .

وتحمل الرجل الشتم وغادر القسم حافيا.. ورفع الصول الحذاء من على طرف مكتبه من الرباط فى تأفف وقذف به إلى اللص فى قرف فانتثرت من تحت البطانة لفافة من ورق السوليفان لفتت نظر الصول فأمر الجندى الواقف أن يأتيه بها.. وفضها فوجد بها قطعة من الحشيش.. ففتح المحضر .

هوّنت عليه الأمر وتركته وأنا أكاد أضحك.. وظل يلاحقنى حتى الباب (يا أستاذ.. والله أنا حرامى جزم مش تاجر مخدرات).

* * *

براڤـو برهـومة : جريمة مدروسة اشترك فيها أكثر من لص فى أكثر من تخصص.. راقبوا الضحية وداروا حوَل الشقة مرارا وعرفوا متى تضاء ومتى تظلم ومتى يغادرها أصحابها ومتى يعودون.. وعلى ضوء نتائج التحريات تقرر القيام بالعملية واختير لها العناصر المتخصصة اللازمة لنجاح التنفيذ.. واجتمعت هذه العناصر أكثر من مرة ووضعت الخطة.. وبهذا المفهوم أستطيع أن أقول إن الجرائم التى يخطط لها بذكاء وخبرة تدهشنا وتبهرنا وتهزنا عندما نقرأ عنها فى الصحف ليست وليدة تفكير سريع مرتجل بل دراسة وخبرة واحتراف.. وعندما تصلنا أخبارها ومدى ما فيها من ذكاء نظنه

ذكاء فرد بطريقة مباشرة تلقائية هو فى الغالب عصارة تفكير وخبرة أكثر من فرد.. وليس ذكاء خارقا لفرد واحد.. ولا يستحق ما يعترينا من دهشة وانبهار.

نزل الزوج إلى عمله ثم نزل الأولاد إلى المدارس.. فتسلل أحد أفراد العصابة إلى منور العمارة وقطع سلك التليفون.. وبعد ساعة من نزول الزوج صعد إلى الشقة رجلان يحملان قطعة موبيليا (كنبة استوديو) مما يباع عادة فى محلات المزادات من مخلفات القصور.. وطرق أحدهما الباب ففتحت الزوجة.. فنظر اللصّ فى ورقة فى يده ثم سألها:

- دى شقة إبراهيم بك عبد الجواد؟

- أيوه.

- لو سمحتى.. عاوزين نقابل إقبال هانم.

- أنا.

- إبراهيم بك باعت الكنبة دى.

ترددت الزوجة.. وسألته:

- كنبة إيه؟.. ما قالش على حاجة قبل ماينزل.

- حاول يتصل بحضرتك من المحل عندنا لكن التليفون مابيردش.

- فعلا الحرارة مقطوعة.. لكن ليه مابعتش معاكم ورقة؟

وهنا رد زميله بسرعة ونرفزة:

- ياهانم أنا واقف على السلم وشايل.. ح تستلميها وللا نرجع بيها والمشال محسوب عليكم؟

وتراجعت الزوجة قليلا.. خشيت أن تسبب مشكلة.. وعادت تسأل من باب جس النبض:

- أوصاكم على حاجة؟

- قال سلموها للهانم.. وخليها تجينى دالوقت فى المحلّ بنفسها ومعاها مائة جنيه.. والعنوان أهه مكتوب فى الكارت .

أخذت العنوان.. وعادت تفكر (لا توجد مشكلة.. إنهم يعطون ولا يأخذون.. والثمن سأذهب به بنفسى.. والأمارة صحيحة فحرارة التليفون فعلا مقطوعة.. تحفة نادرة وبسعر رخيص علشان كده لقطها وهو ذاهب إلى عمله).

تخلّت عن دلفة الباب فدخلا ووضعاها فى الصالة.. ودارت حولها تتفحّصها بفرحة.. ومدّت يدها لتفتح باب الصندوق فوجدته مغلقا.. فقال أحدهما:

- المفتاح مع إبراهيم بك.. إدينا البقشيش يا هانم خلّينا نمشى.

غادرتهما لحظة.. وعادت بالبقشيش..

- شكرا يا هانم.. ما تتأخريش على البيه.. ده قاعد على كرسى قدام المحل ومستعجل عاوز يروح شغله.

ونزلا.. ودارت الزوجة حول قطعة الموبيليا فى انبهار ونظرت فى الكارت الذى به عنوان المحل.. (صالة خريستو للمزادات).

- فعلاً فى طريق شغله.. يجازيك يا ابراهيم.. تسيب شغلك ساعة صبحية وتدخل صالة مزادات.. لكن بصراحة تحفة وبسعر مدهش.. برافو برهومة.

وقف الرجلان بعيدا على ناصية الشارع يراقبان باب العمارة حتى نزلت الزوجة فعادا وصعدا إلى الشقة وطرقا الباب فاستجاب الثالث المختبئ فى صندوق الكنبة ودفع الدلفة وخرج من مخبئه وفتح لهما.. ودار الثلاثة فى الشقة فجردوها من كل ثمين.

أما كيف تم ضبطهم فهذه قصة أخرى فاق فيها ذكاء المباحث ذكاء اللصوص.. ولكن لم يسعفنى الوقت لسماعها.

* * *

فى السهرة كان الجو كئيبا هذه الليلة.. فرغم أنه صدر قرار بالإفراج عن نصاب البنوك الذى يزور الشيكات إلا أن هذه الحالة لم تؤثر بشكل فعال على الجو العام للزنزانة فقد عاد عم سعفان من المحكمة وقد تأجلت قضيته شهرين مع استمرار حبسه.. وكله يهون أمام مصيبة الأستاذ ويليام.. فقد فوجئ بزوجته فى المحكمة وهو فى القفص تبلغه

أنها سلمت المبلغ للمحامى مساء الخميس وجاء وكيله الآن ليبلغها أن الأستاذ رغم حصوله على المبلغ قد نفّذ تهديده ولن يحضر جلسة اليوم .. فلما سألته لماذا؟ قال: لأنه مات .

وهكذا لم تنفع سجائرنا الأستاذ ويليام وقضت المحكمة بالتأجيل مع استمرار حبسه.

واستسلم ويليام وسعفان لنوم مبكر محبط.. وخيم على جو الزنزانة الاكتئاب وشملها الصمت.. واستحى المطرب أن يمد يده إلى الجردل.

قمت بتكرار الزيارة للنوبتجي.. وقال لي إنه يشعر بتحسن عن الأمس.. وظل ساعة يلقى أبياتا من الشعر من إبداعه وإبداع الآخرين.. ثم أخذ يصف لى زوجته وأولاده ويحكى خصال كل منهم.. ثم أغمض عينيه وابتسم فى رضا عن نفسه لأنه استطاع بفعلته أن يؤمن لهم المستقبل.. وكرر كعادته (ثلاث سنوات سجن أفضل من السفر إلى أى دولة عربية.. وللا انت إيه رأيك يا أستاذ؟.. انت زى والدى وأنا أحب استشيرك) وداعب النوم جفونه فتركته لأحلامه السعيدة.. وفى الصباح عرفت أن (سفّة) عم سعفان أفلحت فى سقف حلقى ولم تفلح فى سقف حلق النوبتجى فناوله سفة أخرى وبذلك يكون قد أفطر لليوم الثالث .

* * *

للغناء أثره البالغ فى النفس.. شعرت بقيمته عندما حرمنا أمس من نهيق حمار الزنزانة الشجى.. فعدم وجود سهرة بالأمس جعلنى أشعر بطول الوقت.. وفكرت أن أعود إلى (ندوتى) وأفرش بطانيتى فى الفناء ولكنى فى النهاية آثرت السلامة فلم يعد باقيا لى هنا سوى ليلتين.. ولما تذكرت أنه لم يبق لى إلا ساعات تنفست الصعداء.

تنكرت للمناخ العام هنا.. وبدأت نفسى تتلهف على الحرية.. وسيطرت على مشاعرى حياتى الخارجية وأعمالى وأهلى وكل ناسى.. وأدركت أن هؤلاء الذين حولى ليسوا ناسا وهذه ليست حياة.. هؤلاء مساجين وهذا سجن.. عبقرى هذا الذى اكتشف أن الحرية أغلى وأعز وأهم شىء فى الحياة.. وأدرك أن أشد عقوبة توقع على الإنسان

هى الحرمان من الحرية فاخترع الحبس.. يسقط السجن.. وتسقط الحياة فى السجون ولو امتد العمر إلى ألف عام.. وتحيا الحرية ولو انقضى العمر بعد ساعة .

* * *

انتهزت فرصة وجود المؤلف فى زيارة ودخلت المخزن.. هو كما قلت حجرة صغيرة تتوسط كل صفٍّ من صفّى الزنازين بالدور الثانى.. وعلى ما يبدو أنها فعلا كانت مخزنا ولكن أزمة الإسكان التى شملت مصر شملت أيضا المدارس والمستشفيات والسجون وكل المرافق فاستعملت زنزانة للصفوة أصحاب التوصيات.. بها نافذة واحدة غير معلق بها شىء.. والجدران نظيفة وكل فراش بجواره حقائبه.، عموما شىء واحد مهم يميز زنزانتى (المخزن) هو أن برميل البول غير مثقوب.. والحوض الأسمنتى الذى تدور فيه دلفة الباب يستعمل للمخلفات الورقية وعلب الأطعمة الفارغة فقط.. رحبوا بى وفى عيونهم رغبة لسماع وجهة نظرى فى القضية بعدما سمعوا الوجه الآخر من المؤلف.. فجلست فى حديث ودى لطيف مع المساجين الأربعة أحكى قصتى ويحكون قصصهم .

* * *

دارت الأيام : رئيس مجلس إدارة شركة صناعية كبرى للبطاطين قطاع عام أوشك على سنّ المعاش.. لاحظت الأجهزة المسئولة فى الدولة أن الشركة تنتج على قدم وساق ومع هذا تخسر كل عام.. وبتحرّى الأمر سرا وشى بعض الموظفين بالحقيقة.. وهى أن رئيس مجلس الإدارة يوصى بآلاف البطاطين كل عام تبرعا للملاجئ والمستشفيات والأعمال الخيرية بحجة أن هذا من قبيل الدعاية للشركة.. وهذه البطاطين المتبرع بها تسجل فى دفاتر الشركة على أنها من أرقى الأنواع التى تنتجها الشركة وتسجل بأعدادها الحقيقية ويوقع عليها من رؤساء الجهات التى تهدى إليها.. ولكن الهدايا فى واقع الأمر تكون من النوع الردىء الشعبى ومن الدرجة الثانية المتخلفة عن عملية الفرز للتصدير.. أما الأصناف الممتازة محل التبرع فتباع بواسطة وسطاء إلى محلات القطاع الخاص والعائد من فرق السعر يقسّم على كل من ساهم فى هذه السرقة كلٌ بحجمه..

وبالطبع يحظى السيد رئيس مجلس الإدارة بنصيب الأسد.. وبحكم الخبرة يمسك بطاطين زملائه المساجين ويجسّها ويفركها بأصابع خبير ويقول.. هذه من صوف كذا ومخلوط بكذا بنسبة كذا وتباع بكذا أو تصدّر إلى دولة كذا.. ولاحظت أنه من باب التبرؤ من التهمة ينام على ثلاث بطاطين من أردأ الأنواع فقلت له فى سرى.. ودارت الأيام .

* * *

حاميها حراميها : عقيد شرطة فى الأربعين.. وسيم ويتمتع بجسم رياضى جميل.. ينسى دائما أو يتناسىٰ أنه هنا متهم محبوس فيمشى بثقة ضباط الشرطة وغرور صديقنا المؤلف.. استقال ـ على حد قوله ـ أو ربما أجبر على الاستقالة لسوء سلوكه.. وتهمته سرقة السيارات.. اشترى سيارة رافعة (ونش) واستأجر بعض البلطجية وألبسهم جنود شرطة.. وكان يقف بزيه الرسمى ورتبته فى أى ميدان عام ويأمر جنوده برفع سيارة مخالفة للمرور (شرط أن تكون جديدة) ويرحل بها إلى ورشة خاصة به فيغير لون طلائها وأرقامها.. ثم يعرضها فى معرض خاص به فى مصر الجديدة.. هكذا ببساطة (عينى عينك) وظل أمره مستورا ثلاث سنوات إلى أن وقع المحظور.. اختلف معه أحد معاونيه فى سهرة حمراء على امرأة ليل.. فوشى به .

* * *

العريس : طول بعرض فى الخمسين.. لواء طيار.. زوج لسيدة من عائلة كبيرة بعض أفرادها على كراسى السلطة.. كبرت أولاده وتخرجوا فشعر بشىء من الحرية.. وأراد أن يستعيد شبابه فعزم على الزواج مرة أخرى.. وبلغ الخبر زوجته فهددته وكررت التهديد.. فلما وجدته موغلا فى تحقيق هدفه دون مبالاة بتهديدها دبرت الأمر مع البعض من أسرتها من ذوى النفوذ .

أتوا بقنبلتين ووضعوهما فى دولاب ملابسه ثم أبلغ مجهول جهات الأمن أن السيد اللواء طيار فلان يحرز أسلحة ومفرقعات تمهيدا لعمل انقلاب عسكرى .

وهاجمت المباحث المنزل وضبطت القنبلتين واقتيد العريس أو مشروع العريس إلى السجن.. وإن كنت لا أفهم ولم يسعفنى الوقت بعد ذلك لتحرّى الأمر.. لماذا اقتيد إلى سجن الاحتياط ولم يسجن فى السجن السياسى.. ثم بدأت المساومة بين العريس وعائلة زوجته.. إن فى مقدورهم تبرئته من هذا الاتهام بأن يعترف شقيق الزوجة الذى أتى بالقنبلتين وهو لواء بالجيش بأنها ضمن عهدته أتى بها للمنزل لسبب أو لآخر.. وسيقتصر الأمر على مجرد مخالفة إدارية ويمكن التجاوز عنها.. والخلاصة أن العريس سيظل فى السجن لحين التعهد بعدم الرجوع مرة أخرى لمحاولة الزواج.. وهو فى (حسبة برما) مع نفسه.. هل الحبس فى (المخزن) أفضل أم الحبس مع (القَرَشانة) زوجته؟.

* * *

فى المساء واصلنا العويل أو الغناء.. فكل نزيل يشعر به ويحسه حسب حالته النفسية .. وأغلبها أغان شهيرة مع تعديل كلمة أو كلمتين ارتجالا لنجنح بالمعنى إلى حالاتنا وهمومنا وحبسنا.. ثم نادانى النوبتجى فقمت إليه.. وبعد سؤالى عن صحته وكلمات قليلة فاجأنى بسؤال (إنت عارف أنا ليه اختلست المليون جنيه؟).. فأنصت إليه :

– وأنا صغير عمرى ما أخذت مصروف أو طلعت رحلة مع المدرسة أو اشتريت حاجة من الكنتين.. وكنت آخر تلميذ يدفع المصاريف.. وفى الجامعة كنت أروح وأرجع ماشى واستلف الكتب وأسهر الليالى أنسخها بيدى.. وعمرى ما مشيت مع بنت.. ولا قدرت أخرج ولو مرة واحدة مع أول زميلة حبيتها.. كنت أتكلم معاها فى المكتبة ولما أخرج ألمحها واقفة على باب الكلية على أمل أن نلتقى كصدفة وأدعوها للكافتيريا فكنت أتحسس جيبى وأزوغ من الباب الخلفى.. وأنا مش عاوز أولادى يمروا بنفس الظروف) .

وشعرت أن عنده الكثير ليقوله لكنه يتردد ويفرز ماذا يقول وماذا يخفى فجاءت اعترافاته متقطعة.. وغادرته وقد زاد همّ نفسى.. وولد السؤال فى رأسى أكثر من سؤال.. لماذا اصطفانى بالاعتراف؟. ولماذا الآن بالذات وهو مريض؟. ولماذا تعثر وأخفى أشياء؟. وهل أخفاها خوفا وحذرا أم تحرّجا واستحياء؟

* * *

هـروب الأمـن المركـزى : تفكيرى وحيرتى فى أمر النوبتجى أطار من عينى النوم.. فسحبت الأچندة والقلم وجلست أدوّن ما جمعته اليوم عن حالات الهروب فى تاريخ السجن .. فى ثورة قوات الأمن المركزى الشهيرة اقتحمت مجموعة منهم السجن وضربوا الحراس وفتحوا الزنازين وأطلقوا سراح السجناء.. وإن رفض البعض الهروب وخافوا العاقبة.. وخوفا من بطش القوات الثائرة وانتقام المساجين ارتدى ضباط السجن ملابس سجناء الميرى واندسوا بينهم وفروا معهم.. وعندما وصل الفارون إلى الكورنيش استولوا على الأوتوبيسات العابرة وأفرغوها من ركابها وركبوها وأمروا السائقين بالتوجّه بهم إلى ميدان التحرير أو ميدان رمسيس.. ومن هناك هربوا إلى بيوتهم أو استقلوا القطارات إلى بلادهم.. ومازال هاربا حوالى خمسين رغم مرور هذه السنوات .

أثناء الهجوم قام أحد المساجين ممن رفضوا الهروب بدور وطنى كبير.. فجمع السجلات والأوراق الخاصّة بالسّجن فى جوال وهرّبه عند محلّ فول وطعمية أمام السجن.. وقال وقتها للمهاجمين والفارّين إنه سيبيع هذا الورق للمطعم لينتفع بثمنه فى شراء تذكرة السفر إلى بلده.. وكان هذا الجوال هو الدليل الوحيد لإعادة القبض على الهاربين .

* * *

عصـير فـواكه : دأب عدة مساجين لمدة أسبوع على النداء على الحراس بعد منتصف الليل ومناولتهم علب عصائر فواكه (مفتوحة) فيتناولونها ويشكرون.. وفى الليلة الموعودة والحراس تتلمظ شفاههم ويرهفون أسماعهم نادوهم كالعادة وناولوهم علب العصير.. ولكنها كانت هذه الليلة تختلف فشربوها وناموا.. وأخرج السجناء (أجنة وعتلة ومنشارا) كانت قد تسربت إليهم فى الأيام السابقة فى الزيارات وفى أوانى الطعام ومع العائدين من العرض.. نشروا لسان (الكالون) وفتحوا الباب.. ثم استولوا على مفتاح باب العنبر من الحارس النائم واستبدلوا ملابسهم بملابس الحراس وعبروا باقى البوابات.. وكانت تنتظرهم بالخارج قوة تابعة لهم فى سيارة فأطلقت النار على الحراس الواقفين

على البـاب الرئيسى وفوق الأسـوار من باب التهـويش.. وانـدفع الهاربون فاسـتقلوا السـيارة وهـربوا .

* * *

السـيدة الأنيـقة : سيارة مرسيدس فاخرة.. وسائق فى يونيفورم فاخر.. وسيدة فى منتصف العمر بملابس محتشمة فى غاية الأناقة والثراء.. وطلب سائقها من الحراس السماح لها بمقابلة المسئولين فوافقوا.. ودخلت إلى فناء الإدارة وخلفها السائق يحمل علب حلوى فاخرة بكميات كبيرة وقدمت نفسها على أنها حرم السيد الوزير فلان وشقيقة المسجون فلان وقالت إن سيادة الوزير رفض أن يتدخل وتبرأ من فعلته.. وأنها حضرت لزيارته ولتقديم هذه الهدايا للإدارة والمسئولين.. فشكروها وقدموا لها كرسيا فى مكان مناسب بالفناء وأحضـروا لهـا السجين.. ودار سائقـهـا يوزع علب الحلوى على الحراس.. وقامت بنفسها بخفة وعظمة وأرستقراطية رفيعة ووزعت فى المكاتب .

وغفا حارس.. فحارس.. وكل حارس يغفو يفسح لها الطريق إلى الشارع.. وباتت على وشك الإفلات بالسجين بعد لحظات لولا أن تنبه أحد الحراس كان لم يتناول الشيكولاتة.. وأطلق صفّارته فاستعمل سائقـها والسجين العنف فى باقى مراحل الخـروج.. وشـهر السـائق طبنجـة فى وجه كل من صـادفه حتى خرجوا واستقلوا السـيارة وهـربوا .

* * *

الاسـتبدال : ومن أساليب الهروب استبدال سجين بشخص آخر مأجور.. ويتم ذلك أثناء الزيارة أو العرض على إحدى الجهات الرسمية.. وبرشوة سخية للحارس وتنتشر هذه الظاهرة بين تجار المخدرات بالذات فيستبدل المعلم بأحد صبيانه .

* * *

البيضـة : عندما يحضر الأهالى لزيارة سجين يقوم حراس باب السجن بوضع بصمة ختم السجن على بطن كف الرجال الزائرين قبل دخولهم إلى صالة الزيارة تمييزا لهم عند الخروج حتى لا يتسرب أحد السجناء هاربا متسترا بأهله.. لا سيما أننا نرتدى

ملابسنا العادية ولا يميزنا عن الزوار شيء.. وعلى ما يبدو أن سجينا سبق أن هرب بهذه الطريقة فتفتّق ذهن الإدارة عن فكرة استعمال الختم لتمييز الزوار عن المساجين.. وعند مغادرة الزوار الرجال بوابة السجن يراعى التفتيش عن بصمة الختم فى كفّ كل منهم.

ولكن سجينا ذكيا نقل الختم من بطن كف شقيقه إلى بطن كفه بطريقة (البيضة المسلوقة الساخنة) الشهيرة التى يستعملها المزورون.. واستطاع الاثنان أن يغادرا السجن واحدا بعد الآخر بسهولة .

* * *

يلوذ من الرمضاء بالنار : ومن أعجب الحالات التى صادفتنى.. صاحب مقهى سلم نفسه لقضاء حكم غيابى بالحبس سنتين.. وكان فى إمكانه الاستئناف وطلب إعادة الإجراءات ولكنه لم يفعل.. والشيء الغريب فى القصة أنه هنا فى السجن والمباحث تبذل قصارى جهدها فى البحث عنه والقبض عليه ولكن أهله وجيرانه يخفون أنه فى السجن.. وله فى تفسير ذلك عملية حسابية مؤداها دون أن أتدخل فى التفاصيل.. أن عدم عثور المباحث عليه الآن تفوّت على العدالة حبسه فى حكم آخر أكبر صادر ضده سيسقط بمضىّ المدة.. والمساجين هنا دائما خائفون متشككون لا يحكون كل التفاصيل بصراحة.. وكان هذا هو السجين الوحيد الذى صادفنى يختبئ من الشرطة فى عقر دارها .

* * *

صحوت على صرخة مدوية تلتها صرخات.. وكانت الصرخة الأولى لعم سعفان الذى نام مبكرا بعد الحكم باستمرار حبسه فقلق مع الفجر وجلس يقرأ فى المصحف.. وفتحت عينى على مجموعة منكبة ومتكورة على شيء بجوارى لم أتبينه.. نهضت جالسا وقبل أن أسأل كان أغلب النزلاء قد تنبهوا مثلى.. وهب البعض يدقون باب الزنزانة بعنف بأكفهم وركلا بالأقدام ويصرخون.. النوبتجى مات.

استمر الصراخ والعويل وضرب الأكف وطرق الباب.. وتبلدت مشاعرى فلم أبكِ ولم أصرخ ولم أضرب كفًا بكفّ وتاهت رأسى فى المفاجأة وفى حوار المرحوم معى منذ

ساعات.. وهو آخر ما تكلمه. وبقينا حول الجثة أكثر من ساعة لا نكفّ عن الصراخ.. ولم يُفتَح الباب إلا فى موعده رغم تنبه الحراس للحادث.. وبلغ الخبر الإدارة فحضر الضابط النوبتجى وحوله بعض الجنود ثم غادرنا وظلت الجثة تحت الحراسة حوالى ساعة أخرى ثم عاد الحراس ولفّوه فى إحدى بطاطينه.. ولمحت وجهه وهم يحملونه إلى خارج الزنزانة.. مصفراً قليلا ولكن ليس به ما يدل على الموت .

فى لحظات اختفى من بيننا محمد عبد الراضى الذى كان ملء الزنزانة والأسماع والأبصار وكأنه خطف من بيننا غدرا.. بقى أغلبنا فى الزنزانة إلا من اضطر إلى التوجه إلى دورة المياه.. ننظر إلى بعضنا فى ذهول غير مصدقين ولا نجد كلاما نقوله.. ولم أتبين مشاعرى فى هذه اللحظات.. نعم هناك حزن لكنه ما زال يلوّح لى من بعيد ولم أشعر بعد بألمه.. وعاد الحراس وحملوا من الزنزانة أمتعته وحقائبه وكل ما يخصه.. وسألناهم فعرفنا أن الجثة نقلت إلى مستشفى السجن فى انتظار الطبيب الشرعى وإبلاغ أهله والجهات المسئولة .

ودرت فى الزنزانة أسمع من هنا ومن هناك وأكون القصة.. كان المرحوم ابنا خامسا لأسرة فقيرة تسبقه شقيقتان وشقيقان.. سقط أبوه مريضا ونقل إلى المستشفى فاكتشف الأطباء أنه مريض بالقلب.. وعولج وشفى وخرج ولكنه خرج عليلا غير قادر على مجهود العمل فزادت الأسرة فقرا.. ولم يعش بعد ذلك كثيرا ومات بعد شهور.. فلم يكمل شقيقاه تعليمهما وتركا الجامعة وتوظفا بالثانوية العامة.. ولم يكن هو فى سن تسمح له بالتوظف أو الحصول على رزقه فأبقى فى المدرسة على مضض من الأسرة التى تعانى الفاقة.. ومع السنين استطاعت الأسرة أن تتمالك زمامها ويتحسن معاشها فاستمر فى التعليم إلى أن حصل على بكالوريوس التجارة.

توظف وتزوج وأنجب طفلين.. وفجأة مرض ونقل إلى المستشفى فاكتشف أنه ورث مرض القلب عن أبيه.. وعولج وشفى وخرج وقد تملكه القلق والفزع من أن يحدث لأولاده ما حدث له ولإخوته بعد وفاة أبيه.. وعاش بقلقه وفزعه شهورا يتملكه الحقد على حظه وعلى الحياة والناس.. إلى أن واتته فكرة الاختلاس فدبر مع زوجته الجريمة..

درس وخطط ووضع النقاط فوق الحروف وحسبها بالورقة والقلم والقانون ووضع فى حساباته كافة الظروف والاحتمالات.. إلا احتمالا واحدا لم يخطر له على بال.. احتمال المـوت.. رغـم أن احتمال الموت كان بدءاً هو السبب المبـاشر لتفكيره فى الجريمة والدافع لها ..

ظللنا فى الزنزانة بقية اليوم تتوافد علينا الوفود من كافة الزنازين للعزاء.. وتطوع زميل من زنزانة أخرى لتلاوة القرآن الكريم.. ولولا الصيام لمررنا على المعزين بالقهوة .

وصدرت الأوامر بأن يغلق باب العنبر وتظل أبواب الزنازين مفتوحة إلى ما بعد صلاة المغرب بساعة تخفيفا على الشعور العام.. فتلقينا الخبر بارتياح وحمدنا الله وشكرنا للمأمور لفتته الكريمة وكنا فعلا فى أشد الحاجة إلى هذه الخطوة التى تنبه لها ذكاء المأمور فى موعدها.. وفرشت حصر المسجد البلاستيك الخضراء فى الفناء الداخلى بالدور الأرضى انتظارا لصلاة المغرب وتربع عليها النزلاء فى ثيابهم وطواقيهم البيضاء ومسابحهم.. وافترشت البطاطين فى الممرات أمام أبواب الزنازين ورصت عليها أوانى الطعام.. وفى داخل الزنازين اصطف الطابور أمام السخان والسكينة ونشط تبادل الخدمات والأطعمة والتسول.. ولكن فى حزن وانكسار وصمت .

وأذن المؤذن وأمَّ الإمام المصلين ودعا للزميل الغائب بالرحمة ولآله بالصبر وردد المصلون وكل المساجين وهم جلوس أمام الطعام الدعاء خلفه.. ثم قرأ الجميع الفاتحة.. وبالتفاتة صدفة إلى الأستاذ ويليام وجدته يشاركنا الدعاء .

بعد الغروب بساعة أغلقت الزنازين ودار الحوار فى السهرة بين الجماعات عن المرحوم .. وفى صلاة العشاء قرأنا له الفاتحة ودعونا له بالرحمة وبكينا جميعا.. أخذت دموع كل نزيل تشد الدموع من عيون الآخرين حتى أصبحنا كلنا كأننا رجل واحد يبكى أو كورس فى فرقة موسيقية كبيرة تذرف أو تعزف سيمفونية الدموع .

قبل النوم عرفت من عم سعفان التفاصيل الدقيقة عن اللحظات الأخيرة للمرحوم.. قال إنه شعر به يزحف على بطنه من مكان فرشته إلى مكان فرشتى أنا عبر الأجساد المتراصة.. وظل يعانى ويكافح وهو يزحف وعم سعفان يرقبه بعين حذرة مندهشا لماذا

يزحف وإلى أين.. وصبر ليرى ما يسفر عنه الأمر ففوجئ بالمرحوم وجسده على بعد نصف متر من جسدى يمدّ ذراعه محاولا إيقاظى.. وظلت ذراعه ممدودة مكافحة ورأسه مرفوعة متلهّفة على انتباهى.. ثم سقطت الذراع مرة واحدة على بعد شبر واحد منى وسقطت بعدها الرأس.. فقام إليه محاولا مساعدته فتبين أنه قد فارق الحياة .

نام عم سعفان ونامت كل الزنزانة بعد السحور محزونة مقهورة.. وتركونى وحدى أجترّ آلامى وذكرياتى مع المرحوم.. لماذا كان يصطفينى دون الآخرين بالاستشارة فى كل ما يخصّ أمور الزنزانة والنزلاء قبل البتّ فيها وإصدار التعليمات.. ولماذا اصطفانى أنا بالذات واعترف صراحة بالاختلاس ولم يخف منى رغم أن الحكم لم يصدر عليه بعد؟.. هل كان يخجل منى لأنى كنت أنظر إليه باحترام كشاعر فأراد أن يتخلص من حرجه أمامى بالاعتراف والتبرير؟. ثم لماذا كرر اعترافه وتبريراته بعد ذلك فى وقت غير مناسب وهو مريض.. هل كان يستشعر الموت ويستذكر معى ما سيقوله لملائكة الحساب يوم الحساب.. أم أنه اعترف وبرر لأكتب قصته بعد وفاته؟.. وما الذى تردد فى أن يعترف به وتعثر على لسانه ثم عانى من كتمانه طوال الليل فلما شعر بدنوّ الأجل جاهد ليصل إلى فراشى ليوقظنى ويعترف به؟.. هل لمس فىّ الوفاء والبرّ بالوعد فزحف إلى فراشى ليحمّلنى وصية لزوجته وأولاده وربما ليفصح لى عن المكان الذى أخفى فيه نصف المليون لأبلغ زوجته أو من يهمه الأمر من أهله؟

لماذا يا محمد تركتنى فى هذه الحيرة وفى ألف سؤال.. وماذا أفدت من فعلتك.. وبماذا أفادك التخطيط والحساب للمستقبل.. ولماذا لم يرد الموت فى حساباتك.. أمْ أنه ورد وكان ضمن تخطيطك وحساباتك واحتمالاتك فرأيت أن الأفضل أن تختلس وتترك أولادك مستورين آمنين وتموت أنت فى السجن.. ترى هل أنت ظالم ومخطئ فى حق نفسك وأولادك والدولة والقانون.. أم أنك جندى ضحّى بنفسه من أجل الآخرين؟.. (ألفُ لماذا) تركتنى دون الإجابة عليها ولا أستطيع أنا وحدى فى غيابك أن أجيب.. تركت لى قصتك جوفاء كحروف بلا نقاط.. صامتة مبهمة لا تنطق ولا تفصح عن معنى.. فإن كنت قد زحفت إلىّ لتحكى وتعترف فأنا الآن عند حسن ظنك.. سأكتب

عنك الحروف ولكنّى فى حاجة إليك لتضع النقاط.. رحمك الله يا شاعراً أخطأ الحساب.. ككل الشعراء دوما رومانسيون خياليون حالمون لا يعرفون الأرقـام .

صحوت وفى رأسى سؤال.. ما هو واجبى نحو محمد عبد الراضى.. لن أستطيع عمل شىء الآن وأنا حبيس ولكن ما هو واجبى بعد خروجى.. هل أذهب لمقابلة زوجته وأهله وأبحث عن دور لى يشبع إلحاحا داخل نفسى بأنه كان يقصدنى فى خدمة وتوقف قلبه قبل أن تلمسنى يده بشبر.. آه لو أعرف ماذا كنت تريد.. ليتك لم تزحف إلىّ يا محمد وتتركنى الآن للندم على شىء مبهم لم أتسبب أنا فيه.. أو ليتك تجيئنى فى المنام وتقول لىْ ما لم يسعفك الوقت لتقوله .

لم أطق البقاء فى الزنزانة فحملت منشفتى وصابونتى وتوجهت إلى دورة المياه.. وعدت فأخذت قلمى وورقى وخرجت وعزمت على ألا أعود إلى جو الزنزانة الكئيب إلا مجبرا ساعة الإغلاق .

مهرجان يا محمد يا عبد الراضى.. كنت أصدق أنك ستنظم مهرجان وداعى كما وعدتنى.. فهذا آخر يوم لى هنا.. ولكنك خلفت وعدك وخنتنا جميعا.. خنتنى فسبقتنى.. وخنت أسرتك فأخطأت الحساب.. وخنت الحكومة فرحلت قبل أن تسدد من العقوبة سوى سبعة عشر شهرا فقط.. كان يجب أن أدرك أن الذى يختلس ويخون المال يخون أى شىء آخر.. خنتنى وتركت لى جرحا كنت أتمنى أن أخرج من السجن بدونه.. ولو كنت عرفت خيانتك أو خمنت لها ما أحببتك.. سامحك الله .

اليوم من أوله أسود.. كأن كل العناصر والعوامل تتضافر على إرغامى على ترك السجن وأنا ساخط غاضب كاره.. رغم أنى عشت فيه شهرا لم أكره المساجين ولا السجانين ولا المكان ولا الزمان.. فالمياه اليوم مقطوعة والجو حار والشمس فى الفناء لا تحتمل.. واختبأ أغلب السجناء فى الزنازين وقام خدم الميرى بنصف المهمة فقط.. فبعد أن نزحوا المخلفات إلى دورة المياه لم يجدوا الماء لتطهير المكان فانتشر الذباب وساعدت درجة الحرارة على تفاقم قسوة الرائحة .

* * *

حملت بدلتى إلى المكوجى ودخلت إلى الحلاق.. وكانتا حجرتين صغيرتين متداخلتين.. الخارجية للحلاق والداخلية للمكوجى.. وأجلسنى على الكرسى وثبت الفوطة حول رقبتى وجعل وجهى للحائط رغم عدم وجود (مرآة) ولكن بحكم العادة والمهنة.. واستفسرت منه هل هو يستأجر هذا المكان من إدارة السجن وكذا المكوجى.. فعرفت أنهما مسجونان وهذه مهنهم الأصلية قبل الحبس (والعدة) ملكهما ويحصلان على نصف الأجر والباقى يذهب إلى جيوب الحراس.. ثم ذهبت بحذائى إلى ماسح الأحذية.. ورغم أنه يحتل مكانا بجوار الحائط فى الفناء إلا أنه يدفع النصف أيضا .

فى السهرة اقتصرنا على الشطرنج والكوتشينة والصلاة وكتابة الرسائل وعمل الشاى.. والقرآن وقانون الإجراءات.. وتوقف نشاط المطرب وجوقته.. وعفت نفسى القراءة والكتابة وظل وجه المرحوم يطاردنى كلما بدت منى التفاتة عفوية إلى مكانه الذى احتله عم سعفان النوبتجى الجديد الذى يليه فى الأقدمية.. وقضيت السهرة أتنقل إلى فراش كل نزيل بالترتيب.. أعطيه عنوانى وأسجل عنوانه وأعرض خدماتى له ولأسرته بمجرد الإفراج عنى.. فأنا النزيل الوحيد الذى سيذهب إلى طابور عرض باكر وهو يعرف مقدما مصيره.. وكنت قد عرفت قبل الجلسة السابقة التى حكم فيها بالكفالة أن السجين إذا عجز عن دفع الكفالة فإنه يحظى بتخفيض إجبارى يصل إلى خمسين بالمائة بقوة القانون فى الجلسة التالية.. أى أن كفالتى بكفالة القانون ستصبح ألفين وخمسمائة جنيه.. هذا فضلا عن أن للقاضى الحق فى تخفيضها أكثر من ذلك بل له الحق فى إلغائها تماما والاكتفاء بالضمان الشخصى والبطاقة ومحل السكن .

ولهذا لا يعترينى الشعور الذى يعترى المساجين دائما ليلة العرض.. كحالات الإكثار من الصلاة والابتهال والدعاء والإغماء والقىء و(التكييس) وتوتّر الأعصاب والنرفزة وانفلات الأمعاء بالأصوات القبيحة طوال الليل.. وانتظرت بلهفة ولآخر مرة نداء البغبغان.. وأنصتُّ عندما نادى اسمى ودعا (يارب تروحوا ما ترجعوا).. وكتبت رقم تليفونى بخط كبير على حائط الزنزانة وأبلغت الجميع أن تليفونى تحت أمرهم.. وكل من له مصلحة يحتاج إلى قضائها ، أنا فى خدمته.. ثم تمدّدت على فراشى.. وتمنيت أن أنام.

# الإفـــــراج

تطلعت إلى النافذة فوجدت الشمس قد ذهّبتْ رأس الشجرة.. وأغصانها العليا تتقافز فوقها العصافير فرحة بطلوع النهار.. فانسابت الفرحة إلى نفسى وانسالت فى صدرى نسائم الحرية فأنعشَتْ فؤادى وملأتنى بسعادة غامرة.. فبعد ساعات سأكون فى بيتى وبين أولادى.. ما هى إلا دقائق أمام القاضى وأدفع الكفالة المخفضة وأخرج.. وسأدفعها حتى لو لم تخفض ولن أعود إلى هنا بأى حال .

وأنا فى أحلامى واستبشارى بالسماء والشمس والعصافير لم أكن أدرى أن هذا اليوم سيكون ثالث الأيام السـود.. فالأول كان يوم استقبال الكلب برعى لنا.. والثانى يوم وفاة محمد عبد الراضى.. ولم أكن أتوقع أنه باقٍ لى عدة أيام أخر أشد سوادا .

فتح الباب فانطلقت إلى دورة المياه.. ثم إلى حجرة ضابط العنبر فاستلمت كارت الحركة.. وتطلعت إلى صورتى يوم دخولى السجن وسألت نفسى.. ترى ما هو شكلى الآن.. فأنا لم أرَ شكلى منذ شهر.. انتظرت مع المنتظرين فى الفناء قرب الباب الحديدى الذى يفصل العنبر عن الإدارة.. أجلسونا القرفصاء وأحصونا.. ولم يأت العد مطابقا للكشف فأعادوا العد وكرروا.. وكل مرة يعدون ويخطئون ويسبون آباءنا كأننا المسئولون عن آبائهم الذين لم يدخلوهم مدارس ولم يعلموهم الحساب.. ثم تحرك الطابور إلى فناء الإدارة وتوالت الإجرءات.. وكان شريكى هو المؤلف.. ومد الحارس يده بالقيد فمددت ذراعى الأيسر.. ثم اقتادونا إلى السيارات.. واصطفانا الصول دون الآخرين بفك القيد فاصطفيناه.. وتحركت السيارة فتشبثت بنافذتها فرأيت النيل مازال يجرى والسفن مازالت تسير والأشجار مازالت تورق والأهرامات مازالت صامدة وأبا الهول مازال صامتا فارتحت نفسا.. وتذكرت أولادى.. فلم تبق إلا ساعات قليلة وأكون بينهم.. هكذا توهمت.

وقفت السيارة على كورنيش النيل بعيدا عن المحكمة.. نزلت أنا والمؤلف ومعنا حارس وتوجهت السيارة إلى بقية الجهات.. قادنا الحارس إلى المحكمة.. وحفظنا الأسلوب ولم ننتظر فأنقدناه علبتى السجائر ثم تشابكت ذراعانا كصديقين حميمين.. وابتسمنا ونحن نجتاز باب المحكمة .

واستقبلنا حارس الحجز بترحاب.. فنحن عملاء قدامى وزبائن المحل.. فدخلنا بدلال أهل الدار.. فانطلق وعاد بالشاى وقبض.. ثم لم يمضِ وقت كثير وعاد إلينا حارسنا فقيّدنا واقتادنا إلى قاعة الجلسة.. وفى القفص فكّ قيدنا حارس القفص وهرش قفاه فهرشنا جيوبنا.. يسلموننا لبعضهم.. يجاملون بعضهم.. ويحفظ كلٌ منهم لزميله رزقه.. يقيدنا الحارس لمسافة خمسة أمتار من باب الحجز حتى القفص حتى يتيح لزميله حارس القفص أن يجاملنا ويفكّ قيدنا ويقبض .

* * *

انتهى القاضى من الثمانين قضية فى ساعة.. ودخل هو ورئيس النيابة إلى حجرة المداولة لشرب القهوة.. وتجمع حولنا الأهل.. وانطلقت الصيحات.. يارب.. ثم نادى الحاجب فاقتادونا إلى حجرة المداولة.. وجدنا القاضى جالسا على مكتبه وقد خلع جاكتته وعلقها على ظهر الكرسى وفتح صدر القميص من شدة الحرارة.. وبجواره جلس رئيس النيابة.. وترافع محامى المؤلف حوالى ساعة.. وأنهى مرافعته بالإلحاح على ضرورة الإفراج عن موكله.. واستأذن المؤلف من القاضى أن يسمح له بالكلام فوافق.. فقال :

– يا سيادة القاضى.. أنا عملت زىّ كل الفلاسفة والعلماء ما عملوا.. بدأت بالشك لأصل إلى اليقين.. طه حسين عمل كده.. ومصطفى محمود كان كتابه الأول هو الشك والآن هو من أشدّ المؤمنين بالله.. وأنا كتابى الأول هو الشك والآن أقوم بطبع الكتاب الثانى عن الإيمان واليقين .

كان المؤلف يشرح بطريقة شعرت منها أنه يكذب.. وأنها حيلة تفتق ذهنه أو ذهن محاميه عنها يحاول أن يضحك بها على المحكمة.. وأعتقد أن شعورى هذا كان هو أيضا

شعور القاضى لأنه ابتسم بذكاء وسأله وهو يتفرسه:

– وبتطبعه فين؟

فارتبك المؤلف.. وبان عليه الانزعاج.. وتمهل ثم قال:

– فى مطبعة.

– أى مطبعة؟ عند الرجل ده برضه!

وسكت المؤلف وزاد ارتباكه فزادت ابتسامة القاضى.. وقال:

– يبقى نأجّـل الحكم لغاية ما تطبع كتابك الثانى ونضم الكتابين على بعض ونديك فيهم حكم واحد.. بدل ما انت ممرمط الرجل ده وراك فى كل حته .

وأشار القاضى إلىّ.. فأحنيت رأسى امتنانا.. ورقص قلبى.. وجاء دورى وتلفتّ حولى فأدركت أن المحامى الخاصّ بى لم يصل بعد.. وسألنى القاضى وهو شاب فوق الثلاثين مريح الوجه:

– إيه يا فتحى.. مادفعتش الكفالة ليه؟

(بيقول يا فتحى.. مع إنى قدّ أبوه.. معلهش.. هو قاضى وأنا محبوس.. وأقل عسكرى سبّ آبائى فى الأيام البارحة) وعاد لى غيظى من فداحة الكفالة.. ولكنى لوّنت وجهى وتحليت بالصبر وقلت:

– يا سيادة القاضى.. الملفّ اللى قدام سيادتك ده بيعطينى أكثر من حجمى.. بيقول إنى صاحب مطبعة وأقدر أدفع خمسة آلاف جنيه زىّ الحاج محمد مدبولى.. وفى الحقيقة مطبعتى مجرّد مشروع صغير.. وأنا موظف حكومة.. ولو عندى خمسة آلاف جنيه مش ح أدفعهم للحكومة.. ح أساعد بهم بنتى فى جوازها واتحمّل أنا الحبس.

وطمأننى صبر القاضى ـ الصائم على ما يبدو ـ عندما ابتسم وقال:

– نخليهم ثلاثة آلاف.

– تبقى سعادتك بترجّعنى السجن تانى.

- نخليهم ألفين.

قلت متوسلا.. ومتوسما الفرج:

- صدقنى سعادتك.. يوم ما قبضتم علىّ كان فى بيتى سبعين جنيه.

- طيب نخليهم ألف.

قلت مندفعا.. وبحماس.. وفرحة:

- فكّهم.. يفكّها على سعادتك ربنا .

وضحك القاضى ورئيس النيابة.. فدمعت عيناى بالفرحة.. وهمس القاضى:

- آخر الجلسة .

واقتادونا إلى الحجز.. ولم يطل انتظارنا وعاد أهلى بالبشرى.. كفالة ألف جنيه مع استمرار حبس المتهم الأول.. فحمدت الله أن المحامى الخاصّ بى لم يحضر.. فلو حضر ما سنحت لى الفرصة بهذا الحوار الودود الرحيم بينى وبين القاضى.. وقلت (وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم) .

* * *

ازدحم حولى وحول أهلى الحراس من كافة أنحاء المحكمة ومن كل الأدوار الأربعة يطلبون الحلاوة.. كأنى قروى جاء يوزع نذرا أمام ضريح.. وتخاطفوا النقود فى غير أدب أو رحمة من أهلى.. وفقدنا فى دقائق حوالى مائة جنيه.. تماما كأنها طارت فى الهواء .. وأمام باب الحجز خيرنا الحارس بين الانتظار فى الحجز حتى الغروب لحين عودة السيارة من جولتها أو العودة فى تاكسى على حسابنا.. فاخترنا الحل الثانى طبعا .. وكان المؤلف فى حالة انهيار تام بعد أن انهارت أحلامه فى أن يقضى بقية رمضان مع أولاده.. وأن يجد الصحافة والجماهير فى انتظاره ومتابعة قضيته وكتابه والهتاف له.. سرنا على الأقدام وذراعانا متشابكان ولكن هذه المرة أكاد أحمله وهو يتعثر فى خطواته بعد أن تكشفت له الأبعاد الحقيقية لموقفه واسودت الدنيا فى وجهه.. وعرض علىّ الحارس أن نعود فى سيارته الخاصة التى تتبعنا بها ابنته على أن يذهب لمدة خمس دقائق إلى بيته

ليرى أطفاله الذين لم يزوروه لأنه أخفى عنهم أصلا أنه محبوس .

وعلى الكورنيش وقف المؤلف مساوما.. وطالت المساومة.. وظل الجندى يلوى عنقه يمينا مرة ويسارا مرة ويقول فى كل مرة (يفتح الله) حتى وصل العرض إلى خمسين جنيها فدفعتها ابنته فدسها الجندى فى جيبه ثم مد يده إلىَّ طالبا !

* * *

بعد أن ارتفعت معنوياتى بحوارى مع القاضى وتخفيض الكفالة وقرار الإفراج وقرب إطلاق سراحى وخلاصى من هذا الجندى وكل أمثاله.. عادت لى ثقتى بنفسى.. وواتتنى فكرة شيطانيَة فقررت أن أمتحن قدراتى بعد أن أتى علىّ حين ظننت فيه أنى فقدت القدرة على الإحساس وتبلدت مشاعرى وجفّت عواطفى وانطفأ ذكائى.. هززت رأسى فى استخفاف وابتسمت وقلت للحارس:

– (أنا حقى فى الخمسين جنيه دول النصف.. وإلا فلن أسمح لك بهذه الزيارة ولن أصعد معكم إلى شقة المؤلف.. فإن شئت اتركنى هنا واذهب معه وسوف أهرب.. وإن شئت ابْقَ معى ودعه يذهب ليرى أولاده وسوف يهرب.. ولن تنفعك فى الحالتين الخمسون جنيها).

ووقع الجندى فى (حيص بيص) وتعذرت عليه (حسبة برما) وتحسس الخمسين جنيها فى جيبه وطال تفكيره وشروده وطفحت عيناه بالغباء ونضح جبينه بالعرق.. ثم قال بسذاجة فى انكسار:

– طيب خليها عليك شوية.. حَ اعطيك عشرة جنيه.

ولويت عنقى بعيدا كما كان يفعل.. وقلت له كما كان يقول:

– يفتح الله.

– نخليهم خمستاشر.

أدرت عنقى للجهة الأخرى وأشحت بيدى وقلت:

– يفتح الله.

- أنا عندى أولاد وداخل على عيد.
- وأنا عندى أولاد وداخل على عيد ودافع كفالة ألف جنيه.
- نخليهم عشرين.
- يفتح الله.

وتفصّد العرق من كل جبينه وهو يفرز المبلغ ويناولنى نصفه.. ووقف الثلاثة فى انتظار قرارى ينظرون إلىّ كأنى أملك عليهم الحكم بالإعدام.. فقلت ووجهى للحارس وكلامى للمؤلف وابنته التى هاجمتنى من قبل:

- رغم أن هذا الرجل عدوّى .. ظلمنى وحبسنى شهر.. لكن كل واحد يعمل بأصله.. خليه يشوف أولاده.. أنا برضه عندى أولاد ح أشوفهم بعد ساعات واحنا فى رمضان وكله بثوابه.. خللى فلوسك.. إنت صدّقت إنى آخذ حاجة من واحد غلبان زيك.. دول عيدية أولادك من المؤلف.. الجلسة الجاية قبل العيد بيوم.. ادعى له ربنا يفكّ أزمته ويعيّد مع أولاده.. أما حقى عنده فحسابه بعد ما تنفكّ محنته .

وبكى المؤلف وبكت ابنته.. ومشينا إلى قرب بيته ثم وقفت وقلت للحارس:

- خد الأستاذ واطلع معاه الشقة يشوف أولاده وأنا ح استناك هنا.

وارتعب الحارس ونظر إلى متوسلا:

- سعادتك وعدت تطلع معانا.
- لأ.. أنا وعدت إنه يطلع يشوف أولاده.. لكن أنا ما اقدرش أطلع شقة خصمى.. أنا ح انتظرك هنا.

وتشبث الحارس بالأرض وقال:

- يا بيه دول خمس دقائق وننزل.. ربنا يسترها معاك.
- يشوف أولاده أيوه.. أطلع شقته لأ .. يابنى آدم افهم.. هو واخد استمرار حبس ولو طلع وحده ممكن يهرب.. لكن أنا أفرج عنى ودفعت الكفالة ح أهرب ليه..

دى كلها ساعتين وأكون فى بيتنا وأفطر مع أولادى.. أودّى نفسى فى داهية علشان ساعتين!

وبان على الحارس الاقتناع ولكنه لم يستطع اتخاذ القرار ووقف واجما كتمثال.. فأشفقت عليه وقلت:

– برضه علشان خاطر أولادك أنا ح أريحك.. أنا ح أقعد فى عربية المؤلف وحط الحديد فى إيدى واشبك السلسلة فى أكرة العربية من جوّه.. وكده لا ح اقدر أفك الحديد ولا ح أقدر أهرب .

وهتفت الفتاة بامتنان وعاد لوجهها الأمان:

– ربنا يخليك لأولادك يا أستاذ فتحى.

– علشان خاطر إخواتك بس.. لكن أبوكى ظلمنى.. وانتى هاجمتينى.

فأحنت رأسها فى خجل .

ولم يستغرق مفعول الخمسين جنيها سوى ربع ساعة.. منهم خمس دقائق ذهابا وإيابا.. وعشر دقائق عانق أولاده وجلس مع المريض الجريح منذ حادث قليوب.. وأفهمهم أنه كان مسافرا وسيسافر فى الحال مرة أخرى ووعدهم بالعودة قريبا.. وعاد والدموع تبلل كل وجهه لا يخفيها ولا يخجل منها.. وركب ثلاثتنا سيارته وقادتها ابنته عائدين إلى السجن وقد شملنا الصمت والوجوم .

* * *

كما قلت.. الدخول يستغرق دقائق.. دخلت الزنزانة فالتفوا حولى وعرفوا قيمة الكفالة فهللوا وكبروا.. ونظرت إلى فراشى وقلت لعم سعفان:

– أنا ما رجعتش علشان آخد فرشتى.. أنا رجعت علشان أسلم عليكم بس.. ما يلزمنيش من هنا غير أوراقى.. أما الحقيبة والأطعمة فوزعها بمعرفتك وما تنساس حرس الليل.. والفرشة خليها (وقف) فى الزنزانة وعهدة طرف النوبتجى إنت أو غيرك بعد ربنا ما يفكّ سجنك.. يستعملها اللى يحتاجها .

وعانقونى بقوة.. واعتصرونى بلوعة.. وامتزجت دموعنا.. وعندما جاء دور عم سعفان عانقنى وهو يبكى فتذكرت كلامه عن ابنه.

- مع السلامة يا أستاذ.. وجميلك مش ح انساه.

- العفـو يا عم سعفان.. أنا باهديكم شىء مستغنى عنه.. لكن فى يوم إنت أهدتنى شىء كنت انت محتاجه.

فأبعدنى عن حضنه ونظر إلىّ مستفسرا:

- فاكر يا عم سعفان.. من شهر واحد شحتّ منك رغيف وانتِ راجع من الزيارة؟

وفغر الرجل فاه ونظر إلىّ مدهوشا...!

- هو أنا يا عم سعفان.. رغيفك أنقذ حياتى.

وضمّنى مرة أخرى ثم قال:

- أنا محتاج منك هدية ثانية..

- خير.. آأمر يا عم سعفان..

- الأمر لله يا أستاذ... أنا محتاج مصحفك..

وناولته المصحف فقبله .. وعاد يقبلنى وزادت دموعه.

* * *

رفعت يدى إليهم جميعا مودعا والدموع تكاد تخنقنى وتخفى وجوههم عنى.. وغادرت الزنزانة مسرعا ونزلت السلم قفزا.. هربا من قسوة اللحظة.

تجمعنا فى فناء الإدارة.. فوجدت رجلا فى حوالى الأربعين نحيفا يبدو على ملامحه الهزال.. مرتديا بيچامة نظيفة وجالسا على كرسى بجوار الحائط قرب باب حجرة المأمور.. وشغلت به.. إن كان ضابطا فى النوبتجية فعيب أن يجلس هكذا بالبيچامة.. وإن كان صف ضابط فلا أعتقد أنه يستطيع أن يجلس بهذه الجرأة وبعض الضباط ما زالوا فى مكاتبهم.. وإن كان محبوسا.. لا.. ليس من المعقول أن يكون محبوسا.. فليس هذا مكانا للمحبوسين.. كما أنه لو كان محبوسا لن يجرؤ أن يجلس على كرسى وأمام مكتب المـأمـور .

وسألت.. وفزعت عند سماع الإجابة.. معقول .. هل هذا معقول.. رئيس المحكمة محبوس.. ورئيس محكمتى أنا بالذات الذى يرأس القاضى الذى يحاكمنى.. متهم بأخذ رشوة عشرة آلاف جنيه.. ومحبوس!.. ومن باب التكريم لمركزه وبواسطة زملائه طبعا.. يجلس هنا نهارا على كرسى وليلا يفرش بطانية فى أرضية أحد المكاتب.. قدر غريب أن يكون رئيس محكمتى أنا بالذات.

واقتربت منه فبدا لى من ملامحه أنه يعيش فى عذاب.. وأن الوقت هنا يقتله يوما بعد يوم.. ومن يدرى.. ربما تسفر الحقيقة فى النهاية.. أنه برىء.

* * *

دخلنا إلى مكتب ضابط المباحث واحدا بعد الآخر فسألنا شفاهة عن الاسم والمهنة والتهمة.. ثم تمت بعض الإجراءات فى مكاتب الإدارة.. وكان أهمها تسليم (كارت الحركة) الذى كنا نتحرك به طوال مدة الحبس.. وسألت الجندى الذى كان يستلمه ويمزقه:

– ممكن أحتفظ بالصورة؟

ودهش الجندى.. ونزع الصورة من الكارت وأطل فيها ونظر إلىّ مستنكرا كأنه يقول لى.. (ماذا يعجبك فيها.. صورة سيئة وعلى صدرك لوح به اسمك ورقمك فى السجن.. صورة تذكرك بذنبك وحبسك وعارك.. تذكرك بأيام سوداء أى سجين يحرص على نسيانها وإخفائها عن الناس).

– ليه عاوز تحتفظ بها.. ذكرى للأيام السعيدة..!

– أيوه يا حضرة الصول.. لو سمحت.

وعاد ينظر إلىّ كأننى أبله.. ولكن لم يكن لديه وقت ليطيل الحديث فى هذا الطلب الغريب والأول من نوعه فمط شفتيه وناولنى الصورة.. فوقفت أمامه مرتبكا أود أن أسأله (بكام) ولكنى وجدته قد أهملنى وانتبه لغيرى.. فغادرت الطابور وأنا مندهش.

هذه الصورة منذ رأيتها فى الكارت وأنا أتمنى أن أحصل عليها بأى ثمن.. والآن تمنح لى هكذا بلا تسعيرة.. وكانت هذه هى الخدمة الوحيدة التى أسديت لى طوال الرحلة بدون رشوة.. ولقد تنازعتنى عقب خروجى من الحجرة عدة مشاعر متضاربة.. أقول لنفسى (ربما أعطانى الصورة بدون مقابل لظنه أنها ليست خدمة لأنى لو لم أطلبها كان سيلقيها فى سلة المخلفات).. ثم عدت أقول لنفسى (لا.. هو يعرف أنها خدمة لأنى طلبتها وكررت وكان فى إمكانه طلب الثمن.. لماذا لا أعود وأعطيه علبة سجائر..) كأنى قد أدمنت دفع الرشوة ويصعب على نفسى أن أحصل على خدمة بدون مقابل.. ثم ترددت وفضلت أن يظل هذا التصرف من الجندى نبيلا نظيفا أختم به وداعى هنا.. ثم عدت أراجع نفسى وبى شعور بالامتنان لهذا الجندى.. (الصورة التى كنت على استعداد لدفع أى مبلغ فيها أعطاها لى بدون مقابل فلماذا لا أعطيه أنا أيضا علبة سجائر دون مقابل.. أى على سبيل الهدية والمكافأة.. ولن يلوث ذلك تصرفه النبيل ما دام هو لم يطلبها ولم ينتظرها..) ولا أعرف ما الذى جعلنى أتراخى وأتقاعس ولا أعود إليه.. وندمت على موقفى هذا بعد خروجى من السجن.. إذا كنا نلوم الذى يطلب فلماذا لا نكافئ الذى لا يطلب.. ولو صادفنى هذا الجندى الآن فى أيام حريتى لكافأته بسخاء.. ولكن للأسف لا أتذكر شكله ولا أعرف اسمه .

* * *

حضرة الصول الهمام كرم الله أصله.. الصول المكلف بخروجنا.. صول فعلا ويرتدى بدلة الصول ومعه أربعة حراس بدون رتب كالعادة.. تابعته وهو يتحرك من مكتب لمكتب ويجمع أوراقنا والتوقيعات المطلوبة لخروجنا ويحث الحراس على سرعة التشهيل من هنا ومن هناك.. فأعجبت بهمته وشكرته فى نفسى وتوقعت أن يخلى سبيلنا بهمة هذا الصول قبل مدفع الإفطار .. وقلت.. هذا يوم جميل.. بداية بالقاضى ووداع الزنزانة ثم الجندى النزيه ثم هذا الصول الهمام الحريص على خروجنا من هذا السجن الكئيب قبل مدفع الإفطار.. ربما يخدم نفسه أولا ويريد أن يلحق بأولاده على الإفطار.. ولكنه أيضا يخدمنا .

دهشت عندما وضعوا الحديد فى أيدينا مرة أخرى واقتادونا إلى السيارة.. فكلنا مفرج عنا.. فأطللت من النافذة وبصقت على السجن.. ولو حلَّلَت المعاملُ الترابَ الذى يحيط بالسجن لوجدته مشبعا ببصاق آلاف المساجين .

قطعت السيارة شوارع القاهرة الخالية تقريبا قبيل مدفع الإفطار بسرعة فائقة ثم استقرّت بجوار سور مديرية الأمن بميدان باب الخلق من الخلف.. أى من جهة درب سعادة.. ولم يبق على انطلاق المدفع سوى نصف ساعة .

كانت السيارة من الحجم الكبير.. وصندوقها أو قفصها أو زنزانتها عرضها متران وطولها أربعة.. أى أن مساحتها ثمانية أمتار مربعة.. ولو احتسبنا لكل راكب ومعه أمتعته نصف متر مربع.. وهو أقل حق إنسانى وآدمى فالسيارة تسع بصعوبة لستة عشر راكبا.. ولكن كان العدد فيها بدون مبالغة ثمانية وثلاثين.. أى أن نصيب كل سجين ومعه حقائبه وبطاطينه مساحة بلاطة صغيرة.. شىء مخيف وخطير لا يمكن تصوره ولا حتى فى سيرك.. لهذا كنت فعلا أتبادل الوقوف على قدمى ولا أجد مكانا للقدم الأخرى.. أو بمعنى أدق كنت أضع قدما فوق أخرى وأبدلهما.

صار كل نزيل يتنفس فى وجه جاره أو قفاه دون اعتراض.. يضع أنفه فى لحم قفا الذى أمامه ويتنفس.. عند خروجنا من السجن لم نشعر بحرارة الجوّ من فرحة الخروج ولأن السيارة كانت منطلقة بسرعة على الكورنيش والهواء يتسرب إلينا من النوافذ الصغيرة عبر القضبان والشبك السلك الذى يشبه خيوط الغربال.. ولكن عندما توقفت بجوار حائط المديرية وسد الحائط نافذتى أحد الجانبين تصببنا عرقا حتى ابتلت ملابسنا واختنقت أنفاسنا.. وتصارعنا على الاقتراب من النافذتين المطلتين على الطريق لندس أنوفنا فى سلكها نلتقط شيئا من الهواء الخارجى كدجاج مكدس فى قفص كل دجاجة تجاهد لتهرب من الوسط إلى الفتحات.. وطرقنا الباب بشدة نلتمس من الحراس التفضل علينا بفتح الباب أو الابتعاد بالسيارة عن الحائط ليتحرك الهواء.. ولكن حضرة الصول الهمام كرم الله أصله وحراسه الأربعة تركوا السيارة وتجمعوا هناك بعيدا على الرصيف المقابل فى الظل .

تركونا نطرق الباب ونطل من النوافذ وننادى عليهم ونتوسل بلا مجيب حتى توترت أعصابنا.. وكلما مرت دقيقة زاد اختناقنا وشعرنا فعلا بخطر الموت وتوقعنا لحظة انتهاء الأجل وأنها لحظات ونصبح لحما مكدسا لا يصلح إلا للدفن .

وكان هذا هو التخطيط المحكم المبنى على الخبرة السابقة لحضرة الصول الهمام كرم الله أصله.. كان يستعجل خروجنا خشية أن ينطلق مدفع الإفطار ونحن فى السجن فنفطر هناك ونحضر إلى هنا فى المساء.. فبعد غروب الشمس وانكسار الحرارة.. وفى ساعة الصفر حسب الخطة.. قبل مدفع الإفطار بخمسة دقائق بالضبط.. ونحن على مشارف الموت.. وقد كفّ نداؤنا وتراخت أجسادنا.. ونملت أهدابنا ونفدت مقاومتنا.. واستشعرنا لحظة النهاية.. عاد إلينا أحد الحراس وقال إن هذا الحال سيستمر حوالى ثلاث ساعات إلى ما بعد صلاة العشاء حين يعود موظفو المديرية إلى مكاتبهم.. ثم شفع هذا التهديد والإرهاب بسؤالنا.. من منا يريد أن يتناول إفطاره على المقهى؟.. فدبّت فى نفوسنا الرغبة فى الحياة مرة أخرى.. وتسابقنا كالكلاب الضالة فى سيارة البلدية نطل من النوافذ ونعلن رغبتنا.. وهل فى ذلك شكّ.. إنه جندى ساذج لأنه يسأل هذا السؤال.. ولكن اتضح أننا السذج.. فقد ذهب الحارس إلى حضرة الصول كرم الله وجهه وعاد بالتسعيرة.. (عشرة جنيهات).. وذهب وعاد.. وذهب وعاد.. ولم يتنازل الصول أبدا عن السعر.. وقال الحارس فى آخر مرة مازحا ونحن فى هذا الموقف الرهيب العصيب الذى لم يصادفنى مثله.. لا قبله ولا بعده فى كل حياتى :

- أصل حضرة الصول ما بيحبش الفكة ولا الفصال .

ووافق عشرة أشخاص.. منهم ثمانية من تجار المخدرات.. وفتح الباب فهب علينا الهواء فالتقطناه أنفاسا عميقة نختزنها فى صدورنا إلى ما بعد غلق الباب .

أصبح المكان يسمح بالحركة إلى حد ما فكافحت حتى استطعت أن أصل إلى النافذة.. فرأيت العشرة المحظوظين على المقهى يضمّون منضدتين ويلتفون حولهما ويرسلون حارسين لشراء لوازم الإفطار.. وبالطبع سيكون ضيف شرف هذا الحفل حضرة الصول كرم الله أصله وجنوده الكرام .

انطلق مدفع الإفطار وأذن المؤذن لصلاة المغرب.. وكان منظرا أو موقفا يندى له جبين الإنسانية وتخجل منه أحط شعوب الأرض.. المحظوظون يتجرعون زجاجات الكازوزة وشـراب العرقسـوس ويتجشـأون ويتبادلون الأنخاب.. وفى السيارة بعد أن خفّ الزحام نوعا ما.. لم يكن بها أى طعام أو شراب سوى (ترموس) مررنا أمام صاحبه واحدا بعد الآخر كالأسرى.. يبلل شفاهنا دون أن يسمح بتسرب أى نقطة إلى أفواهنا.. رحمة بنفسه خشية أن يطول به هذا الموقف العصيب ويحتاج الماء مستقبلا فلا يجده ويندم على فعل الخير.. ثم مرّ علينا آخر وناول كُلاً منا تمرة واحدة .

عدت أطلّ من النافذة.. وشاهدت إخواننا المحظوظين وهم يلوكون الطعام وأنا ألوك الندم لأنى لم أحتفظ بعشرة جنيهات لهذا الموقف العصيب.. وشاهدت أصحاب محلات تحت الربع وقد افترشـوا الحصر أمام محلاتهم وتجمع كل معلم مع صبيانه حول الطعام.. سكنت الحركة تماما فى الميدان والأفواه تطحن الطعام ونحن هنا تطحن أقدامنا بعضها فى الصراع على الوصول إلى النوافذ.. وسقطت دموعى من قسوة الموقف وبشاعة الصورة التى لم تَـرِدْ لى أبدا فى أى حساب.. وبكيت على جهل الإنسان عندما يذبح الإنسـانية باسْـم العـدل .

آلمنى العرق وهو يتصبّب من كل جسدى ويتجمّع فى البنطلون كأنى بُلْتُ على نفسى.. وآلمنى أكثر وأكثر الإهانة للإنسان بيد الإنسان بين أهله وشعبه هنا فى قلب القاهرة عاصمة الحضارة والتاريخ.. فهناك على البعد الأهرامات.. وأمامى على امتداد شارع بور سعيد مسجد السيدة زينب وخلفى على امتداد شارع الأزهر مسجد الحسين والأزهر منارة الدين والعلم والأخلاق عبر العصور.. فأشهدتهم وأشهدت القاهرة كلها التى انطلق فيـها اسم الله من لحظات من فوق ألف مئذنة فى هذا الشهر الكريم.. أشهدتهم جميعا أننى هنا الآن متهم بطبع كتاب ينكر وجود الله.. وتهمتى الترويج لهدم السلام الاجتماعى للدولة وازدراء الأديان.. وسألتُهُمْ.. هل أنا الذى ينكر الله ويهدم السلام الاجتماعى.. أم هذا الكمّ الرهيب من الظلم والظالمين؟ .

بعد الإفطار الذى تناولناه تمرة وبـلّة شفـاه.. نشطت الحركة فى الشـارع.. وتمدد أصحابنا المحظوظون وتمطأوا على الكراسى وطلبوا الشيشة والمشروبات الساخنة.. وتشبث البعض منا فى نوافذ الزنزانة ينادون على المارة.. (سيجارة يا حاج) فيدفع بها صاحبها من خلال السلك و (رغيف ياحاجة) فتهرع وتشترى الخبز وتقطعه فتاتا وتدسها لنا من خلال السلك فتتسابق عليها كالدجاج عندما تنثر له الحبوب.. فكنت ألتقط فتات الخبز وألوكها وأنا أبكى على نفسى وعلى الإنسان.. كل الإنسان .

استمرّ هذا الوضع الرهيب إلى ما بعد صلاة العشاء ثم فتح باب الزنزانة ودفعوا بنا إلى باب المديرية.. ودخلنا إلى صالة واسعة يحيط بها شبابيك يجلس خلفها موظفون.. تشبه صالة قطع التذاكر فى محطة مصر .

أجلسونا القرفصاء وحولنا حراس كثيرون شاهرى السلاح كأننا أسرى حرب عادوا بنا توا من ساحة القتال ويخشون انقضاضنا عليهم مرة أخرى.. مع أننا كنا فى حالة إعياء شديد ولو أطلقوا سراحنا وقالوا لنا اجروا إلى بيوتكم لعجزنا .

شـرب السـادة الموظفون الشاى والقـهوة فى شبـابيكهم ونحن جلوس القـرفصـاء.. وحاول أحدنا أن يجلس على الأرض فاندفع الحراس حوله من كافة الجهات فى سرعة مباغتة كأنه شهر فى وجوههم سلاحا.. وضربوه بمؤخرة البنادق وأجلسوه القرفصاء وهو يترنح من قسوة الضرب.. ثم بدأ الجندى الواقف بجوار كل شباك ينادى اسم سجين فيقوم إليه ويقف أمام الشباك ويجيب على أسئلة الموظف.. فيدون البيانات ويحرك الكارت إلى الشباك الذى يليه فيتحرك معه السجين بتوجيه الحارس.. إلى أن ينتهى من الدورة أمام كل الشبابيك فيعود إلى مكانه القرفصاء فى ساحة الأسر.. وعرفت بعد ذلك أن هذا المكان هو الشهير فى عالم الجريمة باسم (الصينية).

استغرقت إجراءات تسجيل ثمانية وثلاثين نزيلا حوالى ثلاث ساعات مع القرفصاء والملـل والإرهـاق ولكن على أى حال كان الموقف هنـا أرحـم ألف مرّة من الحبس فى السـيارة .

* * *

وبعد منتصف الليل عادت السيارة تجوب شوارع القاهرة.. فأودعت المرحلين إلى المحافظات الأخرى حجز الخليفة الشهير والذى ينفرد دون بقية أماكن الحجز فى القاهرة كلها باسم (التخشيبة).. وظلت السيارة تطوف القاهرة وتقف أمام أقسام الشرطة فينزل عدد ويخفّ الزحام وتتخلخل المسافات بيننا وتتسع.. ومع انتصاف الليل أو بعده اعتدل الجو فتلطف المناخ داخل الزنزانة.. واستطعنا أثناء وقوف السيارة أمام الأقسام أن ننادى على المارة ونشترى ساندويتشات.. وزادت فرصتى فى البقاء أمام النافذة أتطلع إلى جمال وسحر القاهرة فى الليل.. وحركة الأهالى قبل السحور.. والمآذن المزينة بالمصابيح الملونة.. كأننا فى كرنفال شعبى كبير.. وكان الصول بعد أن سلم دفعة التخشيبة قد تسرب عائدا إلى بيته تاركا بقية المهمة للحراس الذين تسربوا أيضا واحدا بعد الآخر.. تاركين تسليم باقى السجناء فى أقسام الشرطة للجندى السائق .

كالعادة لم تستغرق إجراءات الإيداع سوى دقائق.. سلمنى الجندى للصول النوبتجى فوقع له بالاستلام وقام بتكاسل وسحب المفتاح المعلق على مسمار بالحائط ونزل بى إلى الحجز وفتح ودفع بى دون أن يكلف خاطره عناء النظر إلى وجهى وعاد إلى مكتبه.. تماما كما تدفع ربة البيت بدجاجة إلى العشة .

* * *

دخلت الحجز هذه المرة بشعور طالب السنة الثانية فى العام الدراسى الجديد عندما يزور الفصل الذى كان فيه العام الماضى وهو فى السنة الأولى.. لم يزعجنى أو يدهشنى أو يحـرّك مشاعرى أى شىء.. أولا لأنى سبق أن عشت فيه.. ثانيا لأن هذا المكان أصبح فى نظرى شيئا (تافها) بالنسبة لما كنت فيه.. فالعبد لله بكل فخر عائد من طره .

كانت الساعة قد جاوزت الثالثة صباحا وكل النزلاء نيام على بطاطين قديمة رثة.. تكوم كل اثنين أو ثلاثة على واحدة بدون مسند للرأس.. فهـذا هو الحال فى حجز الأقسام.. باعتبار الحجز دائما لأيام قليلة مؤقتة.. ولا يبدأ السجين الاستعداد والاهتمام بالفراش إلا عندما يصدر حكم بترحيله إلى السجن .

* * *

رغم ما كانت عليه درجة الحرارة اليوم فالجو فى الزنزانة رطب لأنها تحت الأرض.. وملمس الحوائط والأرض الأسمنتية يلسع بالبرودة.. فظللت واقفا أجوب الزنزانة ذهابا وإيابا أكثر من ساعة ربما عوضا عن الساعات التى عشتها فى زنزانة السيارة على قدم واحدة.. ولما عجزت عن الاستمرار فى الوقوف جلست على الأرض متحملا لسعة البلاط.. ولم ألبث أن تمددت ثم نمت.. وليس صحيحا المثل الذى يقول إن الخائف والجائع لا ينامان.. والحقيقة أنه إذا أجبر الإنسان على الحرمان من النوم والراحة فترة طويلة ثم سمح له فسيستطيع أن ينام ولو فوق الأمواج فى وسط البحر.. أو فى بالوعة مجارى .

أيقظونا فى التاسعة وفتحوا أولا زنزانة الحريم وكان بها سيدة واحدة وصبية لا تتجاوز الخامسة عشرة خرساء.. فلما انتهيتا من دورة المياه فتحوا زنزانتى الرجال.. وفوجئت بصديقى عبده النشال ينطلق من باب الزنزانة المقابلة ويعانقنى.. وفرحت به جدا وسألته فعرفت أنه أفرج عنه قبلى بيوم وبكفالة مائة جنيه.. تركونا حوالى نصف ساعة أمام دورة المياه ثم نادوا الأسماء ومن لم يسمع اسمه أعيد إلى الزنازين.. واصطففنا طابورا وجلسنا القرفصاء .. كل اثنين متجاوران .. وكان زميلى صديقى النشال.. وجاء الجندى إلينا بالقيد فأسرع عبده يقدّم له يُمناَه ليترك لى القيد الشمال.. ونادى الحارس (حق البنزين يا حضرات) وتحسست جيبى رغم علمى أنى لا أحمل نقودا ولكن بحكم العادة أو الحيرة.. وأعفانى صديقى من الإهانة والإحراج وناول الجندى جنيهين مشيرا إلىّ وإلى نفسه.. فلم أستطع أن أرفض وشكرته ووعدته برد الجنيه بمجرد زيارة ابنى لى.. فمال على أذنى وهمس:

- مستورة والحمد لله.

ونظرت إليه بتفحص ولوم:

- نشلت تانى يا عبده.. إنت مش وعدتنى؟

ردّ بحماس:

- فَشَر.. أنا وعدتك.. بس انت كمان وعدتنى بوظيفة .

ومدّ يده إلى بطنه وانتزع من تحت الحزام لفافة من الأوراق المالية، وقال :

- سبعمائة جنيه.. مكسب حلال من التجارة فى السجن.
- كنت بتبيع إيه؟
- برشام.. البرشامة الصليبة كانت تجينى باتنين جنيه أبيعها بأربعة.
- وإزاى كانت بتوصل لك؟
- مع المخزنجى .
- مش فاهم.. مين هو المخزنجى؟
- فيه حراس بتخـزّن.. يعنى تحطّ المخدرات فى بالونة وتلبسها لغاية ما تمرّ من بوابات السجن.. والعسـكرى اللى بيلبس بيبقى معروف فى السجن ويسموه المخزنجى.. وله على كل تخزينة عشرين جنيه .
- كل تخزينة بعشرين جنيه!.. يعنى لو كل يوم تخزينة يبقى دخله ستمائة جنيه فى الشـهر!.. أنا سجلت كل المهن اللى بيرتزق منها الحـراس والمسـاجين اللى بينادوا على بضائعهم وخدماتهم علنى لكن المهنة دى لم تصادفنى .
- ما هو مش معقول ح ينادى. هو يادوب يمر وسط المساجين يوريهم نفسه. والقُدَام عارفينه والجديد يسأل واللى محتاجه يناديه .

وتهت فى خيبتى.. لقد ظننت أنى سجلت كل شىء عن السجن ولكن تكشف لى الآن أنى لم أسجل سوى الظاهر وما خفى كان أعظم .

- عارف الشاويش عوكل.. مخزنجى.

وصرخت مرددا:

- الشاويش عوكل!.. اللى جسمه قدّ الفيل وشنبه يقف عليه صقر.. ده أنا كنت باخاف أقرب منه.. لو كنت أعرف إنه كده كنت ضحّيت بعشرين جنيه وخليته يخزّن لى مرة ولو شوية زلط علشان أكسر عينه .

وعرض علىّ عبده نقودا وألحّ فقبلت وشكرته..

ثم صرخ الحارس فى شاب كان يجلس فى آخر الطابور وأمره أن يدخل الزنزانة ويحمل المريض الراقد بها على كتفه.. فذهب ثم عاد حاملا شابا فى حوالى العشرين عاريا تماما كما ولدته أمه.. وتحرّك الطابور .

* * *

كانت السيارة من النوع الصغير.. زنزانتها عرضها حوالى متر وربع وطولها حوالى مترين.. بها دكتان من الخشب وفى أرضيتها (عجلة كاوتش) احتياطى للسيارة.. وكنا سبعة عشر.. احتل العشرة المتقدمون فى الطابور الدكتين ووقف السبعة فى الوسط فوق العجلة الكاوتش مع الانحناء والوجه للأرض لأن ارتفاع سقف الصندوق حوالى متر وربع .. وامتدت الأذرع المتشابكة المتقاطعة عبر الأجساد المنكسة.. ورغم هذا هجم علينا الحراس يدفعوننا إلى عمق الصندوق بأطراف البنادق والعصى بحيث جلس أو وقع كل الواقفين على الجالسين.. ثم دفعوا إلينا بالشاب العارى ومددوه على الأرض.. فرفع رأسه ودار بها علينا ينظر يمينه ويساره فى بلاهة.. فتبينت أنه متخلف أو عبيط أو مجنون وأخرس أيضا .

أغلقوا باب الصندوق المصفّح.. وجلسَتْ على مصطبة الباب المرأة والصبية.. ووقف على السلم جنديان.

كنت أظن أنه ليس هناك فى العالم أسوأ من رائحة البول والبراز مختلطا برائحة الدخان فى الزنزانة فاكتشفت أن رائحة البراز المتعفن مختلطا بالعرق فوق بطن وبين فخذى وساقى العبيط الممدد بيننا أشد ضراوة وأسوأ ألف مرة وشىء لا يتصوره العقل.. وتحركت السيارة والكل يتنفس رائحته وهو ممدد ينظر إلينا فى بلاهة ولا يدرك شيئا من كل ما يدور حوله.. وسألت عبده فقال إنه متخلف عقليا أبلغ عنه الأهالى القسم فقبضوا عليه ولا يعرف له اسم ولا أهل.. وكلما ألبسوه شيئا هاج ومزقه فى الحال.. وهو يتبرز ويتمرغ فى برازه.. وإذا جاع أكل منه.

توجهت السيارة إلى السجن ثم النيابة ثم المحكمة ثم مكتب الصحة.. وكانت وجهتى هى المحكمة للحصول على ما يسمى (صحة إفراج).. وتعجبت لهذا الإجراء!

أمس حكمت المحكمة بالإفراج ودفع أهلى الكفالة وتصدّق على الأوراق بما يفيد ذلك وختمت بخاتم الدولة وحصلت على إيصال بقيمة الكفالة.. ثم عدت إلى السجن ثم إلى المديرية ثم إلى القسم ساعة السحور.. وبعدها بساعات يعيدوننى إلى نفس المحكمة للتأكد من (صحة الإفراج) كيف!.. لا أدرى.. أنا سجين ويداى مقيدتان بالحديد وأتحرك بأوامر وتحت سلطة الحكومة من هنا إلى هنا إلى هناك ولا أملك من أمر نفسى شيئا والأوراق التى يحملها الحارس لا تصل يدى إليها.. فما معنى أن يعيدونى بعدها بساعات للتأكد والسؤال (والنبى.. وحياة رأس أبوكم.. إنتم صحيح وبجدّ أفرجتم عنه؟) ما معنى تعطيل المفرج عنه.. إجراء روتينى سخيف لم أجد أى مبرر له.. وبفرض أن العسكرى الأول الذى حمل الأوراق من المحكمة أخذ رشوة من السجين وزوّر الأوراق بما يفيد الإفراج.. أليس الجندى الثانى الذى يصحبه فى اليوم التالى قابلا أيضا للرشوة والتزوير.. ما الفرق بين حارس أمس وحارس اليوم؟!

بعد ما تأكدت مباحث القسم من المحكمة أن أنا هو أنا والأوراق هى الأوراق والحكم هو الحكم والختم هو الختم والإفراج جاد جدا وليس على سبيل الهذر.. اصطحبنى الجندى مرة أخرى إلى السيارة وتوجهنا إلى آخر رحلة الذهاب.. وكانت إلى مكتب الصحة.. وصلنا ولم يكن الطبيب قد حضر بعد.. وانتظرت السيارة فى الشمس.. وفى الشمس بالذات مع أن الشارع يسمح أن تقف فى الظل حتى أصرخ فتبدأ المساومة .. وفى الصندوق كنت جالسا على الدكة والعبيط ممدد تحت قدمى على الأرض.. جسد عارٍ وعينان واسعتان تحدقان بى فى بلاهة .. والبراز المتعفن يغطى أغلب جسده ويهرش ويداه ملطختان بمخلفاته.. ومرّ عابر طريق وعندما اقترب من السيارة فزع مبتعدا وصرخ:

– أعوذ بالله.. إيه الريحة دى.. العربية دى فيها حمار ميت .

* * *

وقف الحراس على الرصيف فى الظل فى انتظار صراخى واستنجادى بهم ولكن لم يطل الوقت ووصل الطبيب ففتح الحراس الباب وأمرنى أحدهم أن أحمل العبيط وأنزل به فصرخت مهددا:

- مستحيل.. أى شيء ممكن إلا كده.. لو شنقتونى مش ح اشيله واللى تقدروا تعملوه اعملوه وأنا لما أرجع ح أطلب مقابلة المأمور .

وبان الإصرار فى عينى وفى صوتى فتراجعوا.. ومد حارسان أيديهما بتأفف وسحبا الشاب من قدميه.. وظلا يسحبانه حتى سقط جسده من باب الصندوق وانزلق على درج السلم ثم انزلق إلى الأرض.. فواصلا سحله.. ظهر العبيط يحتك بأسفلت الشارع ورأسه تهتز وتضطرب مع كل ما يصادفها من مخلفات من حصى وزلط تجمع تحت قفاه.. وبان الذعر والفزع ومنتهى الألم فى وجهه تماما كحيوان يعذب عاجز عن النطق.. وظلا يسحلانه وهو يتمتم بشفة مضطربة عاجزة اللهم إلا عن صراخ ضعيف يشبه صراخ الأطفال .

صعدا به دَرَج مكتب الصحة بنفس الطريقة.. وقد ترك مسار جسده من باب السيارة إلى باب المكتب خطا ملطخا ببقع متقطعة من الدماء.

لم يطل غيابهم وعادوا به سحلا مثلما ذهبوا.. وسألتهم وهم يعيدونه إلى السيارة فقالوا إن مكتب الصحة رفض استلامه لعدم الاختصاص .

واصلت السيارة رحلتها والدماء تسيل من جرح فى ظهره ورأسه ورائحته تضغط على أنفاسى وأعصابى.. حتى توقفت أمام مديرية الأمن مرة أخرى فى انتظار عودة الزملاء الذين نزلوا فى أول الرحلة.. وأيضا تعمدوا أن يقفوا بالسيارة فى الشمس.. والجو حار داخل وخارج الصندوق والرائحة تهاجم كل خلية من جسدى فخبطت باب الزنزانة وحضر العسكرى فتوسلت إليه أن يخرجنى من جهنم وأن يجلسنى على المقهى لحين عودة بقية الزملاء فذهب وتشاور مع زملائه وعاد وأبلغنى التسعيرة.. خمسة جنيهات وكل الطلبات من شاى وشيشة على حسابى.. فوافقت.. فأخرجونى وأغلقوا على العبيط واصطحبونى جميعا إلى المقهى .

* * *

كان المقهى عبارة عن (قبْو) فى ربع قديم.. سقفه بالعروق الخشب وكراسيه من خشب الجميز والألياف المجدولة.. وتحلقنا حول منضدة وطلبنا الشاى والشيشة وتصادف أن كان أمام عينى لوحة من ورق الكرتون خاصة بنتيجة قديمة معلقة على الحائط مكتوب عليها أسعار الطلبات بخط ركيك فأخذت أتسلى بقراءتها.. ولفت نظرى أن كلمة (مقهى) المكتوبة فى رأس القائمة مكتوبة (مقهر) فتعجبت لهذا القدر الذى يرسم الصُّدف ويخططها ويرتب الأحداث.. مقهر مُشتقّة من قَهَر.. وهو ما أشعر به وأعيشه بكل وجدانى.. كأنى فى كابوس قاس مفزع مخيف.

وفجأة.. دخل رجلان يرتديان البنطلون والفانلة البسيطة.. وصرخ أحدهما.. الباشا رئيس المباحث.. وسكنَت الحركة فى المقهى على وَجَل.. واضطرب قلبى وشعرت أن جوّ الرعب يلاحقنى حتى هنا فى المقهى.. فى ميدان باب الخلق ووسط الناس.. (المباحث إيه اللى جابها هنا!.. أهرب منها فى القسم.. تيجى وراى هنا.. رحمتك يارب).

ودخل شاب فى بنطلون وبلوفر.. واضح أن مستواه أفضل من سابقيه.. وبهدوء توجه إلى أحد الرواد وأشار له فوقف.. فأخذ يتحسس جيوبه.. ثم استدار إلى آخر وتحسس جيوبه.. ثم إلى ثالث وكان يضع أمامه على المنضدة علبة سجائر وعلبة كبريت.. ففتح علبة السجائر ورفعها إلى أنفه يشمها لعلها تكون سجائر محشوة بالمخدرات.. ثم فتح علبة الكبريت وأطل فيها ربما كان بها قطعة أفيون.. كل هذا وأنا منتظر دورى.. فأنا الوحيد الذى يحيط بى الحراس ولابد أن يسأل ويحاسب ويعاقب.. ولكنه ألقى علبة الكبريت على المنضدة واستدار خارجا.. ربما لم يلفت نظره أننى سجين فليس بيدى قيد وأمامى شيشة ضللته.. وربما ظن أن الحراس بعض جنود المديرية فى نوبة الراحة.. الله أعلم.. المهم أنه ظل يفتش ويبحث عن غلطة ولو فى علبة الكبريت.. وأنا غلطة كبيرة كانت أمامه.. مسجون يجلس على المقهى بلا قيد ويدخن شيشة.. ولكنه تخطانى وخرج.. فقلت (مالكش فيها نصيب.. تبقى فى يدك وتقسم لغيرك).

* * *

بدأت السيارة رحلة العودة بعد أن جمعت كل ما طرحت فاكتظت.. وجلسنا فوق بعضنا كما جئنـا.. وتحملنـا العذاب إلى أن وصلنـا إلى القسم.. وما أسرع ما قذفـوا بنا إلى الحجـز .

فى الحجز أدخلوا المرأة والفتاة إلى زنزانة النساء وأدخلوا العبيط فى زنزانة فرفض أن يدخلها أحد.. وتجمّع كل المساجين فى الزنزانة الثانية مفضلين الزحام .

قبل الإفطار بساعة فتحوا باب زنزانة الرجال فانطلقنا إلى الشبكة.. وتوافد الأهل ليكلمونا من خلال قضبان باب الحجز.. ومع أذان المغرب امتلأ الحجز بشتى أنواع الطعام.. وحضر ابنى ومعه طعام وأبلغنى دهشة الأسرة لعدم إطلاق سراحى حتى الآن فطمأنته وعرفته أن المسألة ليست كما كنت وكانوا يتصورون وأنه مازال أمامى بعض الإجراءات والتحريات فى عدة جهات وسيستمر حبسى عدة أيام وطلبت منه بطاطين وملابس.. فذهب وعاد بها .

فرشت بطاطينى فى أحد الأركان وجاء صديقى النشـال ففرش بجوارى.. وفى السهرة سرعان ما عمرت فرشتى بالزوار دون أن أدعو أحدا.. وتعرفت عليهم.. لم أتعرف عليهم كلهم فى الليلة الأولى بالطبع.. بل فى ثلاث ليال.. فتهمتى التى تسبقنى فى كل مكان دائما محل تساؤل ولفت نظر وإبهار.. ففى الجهات التى مررت بها أطلقت علىّ مجموعة من الأسماء (المطبعجى ـ المألفاتى ـ الجورنالجى ـ الصحفى ـ الأستاذ) .

بعد صلاة العشاء والتراويح.. أى قرب منتصف الليل.. فتحت الزنزانة ونادوا على طابور عرض المباحث.. وحمدت الله أنى وآخرين لم نكن ضمن المطلوبين.. وغاب الطابور ساعة وعاد.. أفرج عن البعض.. أو بمعنى أصح أطلق سراح البعض لأن الإفراج يأتى بحكم المحكمة أو قرار النيابة .

* * *

بتـاع المراجيـح : وهو شيخ تخطى الستين يضع مرجيحة أطفال فى ميدان عام وهذا مخالف بالطبع للنظام.. وسـأله الزملاء ضاحكين وهو يلملم فرشته.. فأجاب بأنه مُصرّ أن تبقى المرجيحة فى وسط الميدان.. فليالى رمضان كلها رزق والأولاد تسهر حتى

السحور.. والعيد على الأبواب.. ولا يمكن أن ينصاع لأوامر الحكومة ويتخلى عن رزقه الميسور في الميدان ويقنع بالانزواء في حارة.. ولما أوصوه (خللى بالك لَيضبطوك تانى.. وفتح عينك) قال غامزاً وهو يفرك إصبعين ويرفع حاجباً (ماتخافوش.. المرّة دى ح افتّح مخّى) .

* * *

مشاكل المهنة : طبيب بيطرى يعمل مندوبا للمبيعات فى شركة كبيرة لتعبئة الألبان ومنتجاتها.. ضبط مفتش الصحة سيارة الشركة توزع عبوات ألبان مخالفة للشروط الصحية فقبضوا عليه.. ودفعت له الشركة الكفالة وأفرج عنه.. وكان قد اقترب منى فى الليالى السابقة وطال بنا الحديث والسمر فقلت له وأنا أودعه وأضرب كتفه ناصحا:

– اطلب نقلك لفرع تانى أو عمل تانى فى الشركة .. وبلاش الوظيفة اللى فيها البهدلة دى.

فهز كتفه.. وقال بأسى:

– وظيفة تانية ممكن وكتير يتمنوا يحتلوا مكانى.. لكن اللى مش ممكن إنى أعيش بالمرتب بس.. أنا متزوج وعندى ولدين.. والوظيفة دى لها نسبة على المبيعات هى الدخل الحقيقى.. وما فيش حلاوة من غير نار ودى مش أول مرة وكل ما يمسكونى الشركة بتدفع الغرامة.. وكل وظيفة ولها مشاكلها.. يعنى إنت كنت عملت إيه علشان تدخل السجن؟.

وارتددت إلى نفسى.. وحرك كلامه أشجانى..

* * *

كافتيريا فى خرابة : وأفرج عن بائع البوظة.. وهو صاحب كشك سجائر استفاد من وجود خرابة بجوار كشكه فكنسها وجهزها وفرشها بالحصر يبيع فيها البوظة والفول النابت والترمس للرواد.. وسكت عنه الجيران واعتبروا ذلك (أكل عيش) وقطع العيش مكروه ومعاب.. ولكن عندما استمر فى فتح (النايت خرابة) على وزن (النايت كلوب) فى ليالى رمضان ورأوا رواد الخرابة السكارى أكثر من رواد صلاة التراويح فى المسجد.. أبلغوا عنه الشرطة .

وزع ما معه من سجائر على المساجين .. وعاد يؤكد لهم أن الكافتيريا أو (النايت بوظة) ترحب بزيارتهم بعد الإفراج عنهم .

* * *

مقـارنة مؤلمـة : وأطلق سراح صديقى النشال.. وسألته :

– انت قلت لى إن باقى لك هنا أيام للعرض على عدة جهات!

فقال :

– عضو مجلس الشعب عن المنطقة توسّـط لى.. ودفع الڤيزا للبلوكامين.. وصباح كل يوم ح احضر العرض معاكم.. البلوكامين هو الكلّ فى الكلّ.. الطريقة اللى بيعرض بهـا الأوراق على ضباط المباحث هى أهم شىء.. ممكن يوحى لهم إن الشخص غير مهم ومافيش داعى ينتظر فى الحجز وعرضه من الخارج لا يضرّ.. ويقدر يطيّنها على دماغه ويبقيه أيام زيادة ويعرضه على جهات إضافية من غير داعى بحجة الحرص وزيادة الضمان.. وكله بثمنه .

جلست أتأمل الأحوال.. نشال يضمنه عضو مجلس الشعب لأنه يستفيد منه أيام الانتخابات.. وأنا عضو اتحاد الكتاب.. وكيل الاتحاد كاتب شهير وضابط سابق ومحام.. ورئيس الاتحاد كاتب شـهير ووكيل مجلس الشـورى ومحام.. ولم يسـأل عنّى أحـد.. ولو (بعيش وحلاوة) .. النشال محل ثقة.. يستطيع أن ينام فى بيته ويحضر العرض كل يوم.. وأنا خطر وغير مؤتمن ويجب أن أحجز.. على رأى برعى (مألفاتى ابن مألفاتى) .

* * *

كان فى زنزانة الحريم امرأة وصبية خرساء.. الصبية استدرجها رجل عجوز إلى خرابة وشـلح ثوبها ولمحته سـيدة من نافذة مطبخها المطل على الخرابة فاستغاثت وتجمع الناس وسـاقوهما إلى القسم.. وأفرجت النيابة عن الصبية واسـتبقت العجـوز .

وبقيَتْ فى زنزانة الحريم المرأة وحدها.. وقد أتت مقبوضا عليها وعلى زوجها لأنهما استدرجا جارا وضربوه علقة وأصابوه بجروح بحجة أنه دأب على (البصبصة) للزوجة والوقوف لها فى الشرفة بملابسه الداخلية.. وانتهت المشاجرة بروميو فى القصر العينى

والزوج فى القسـم.. وهربت الزوجة وقبض عليها فى اليوم التـالى.. وعرض الزوج على النيـابة وأفرجت عنه اليوم.. واستبقيت الزوجة للعـرض على النيـابة باكر.. فباتت فى الزنزانة وحدها .

* * *

الصبى القـاتل : توافد على الزنزانة طوال الليل ضيوف جدد.. عملت لهم المحاضر اللازمة وزج بهم إلى هنا للعرض باكر على النيابة .

صبى لم يتعد الثامنة عشرة متهم بقتل زوجة أبيه.. الأب يعمل بنّاءً فى دولة عربية .. ولما تيسر حاله بنى بيتا من دورين.. أسكن فى الدور العلوى زوجته وأولاده وتزوج شابة صغيرة أسكنها فى الدور الأرضى.. وكل إجازة سنوية يقضيها بين الدورين كل دور ليلة.. وفى إحدى الليالى أثناء سفر الزوج سمعت الأسرة صرخة زوجة الأب فنزل الصبى فوجـدها مذبوحـة.. وأسلمت الروح بين يديـه دون أن تنطـق باسم القاتل .

نزل إلينا بعد التحقيق فى المباحث بالدور الثالث.. وكان مصابا فى وجهه وصدره بعدة جروح وكدمات.. فطيبنا خاطره وأجلسناه وأسندنا ظهره ورأسه للحائط وناولناه بعض العصائر والمرطبات فشربها أو امتصها بصعوبة لآلام فكيه.. وعرفنا منه أن التحقيق استمر معه سبع ساعات .. قيدت يداه أكثر من مرة فى قضبان النافذة وضرب بالسياط.. فلما عجز عن تحمل الضرب اعترف بجريمة لم يرتكبها.. فجلس المحترفون حوله ينصحونه بما يقوله أمام النيابة .

بكى وأقسم بأغلظ الأيمان أنه كان يحبها لأنها كانت تعطف عليه وتعطيه نقودا كلما احتاج.. وكان يسهر معها أغلب الليالى يسليها فى وحدتها بلعب الورق.. وأحيانا يبيت معها فى الشقة .. فلماذا يقتلها.. وسألته :

– ما قلتش ليه الكلام ده فى المباحث؟

– قلته يا أستاذ.

– طيب ليه عذّبوك؟

– أصل أهلها اتهمونى إنى كنت عاوز منها حاجة.. وهى رفضت.. فقتلتها.

- آه.. كده بقى فيها كلام تانى.

* * *

وزجّوا إلينا بخمسة أشخاص متهمين بسرقة سيارة.. واكتشفت أن كلا منهم لا يعرف الآخرين.. فلما تحريت عرفت أن اللص الحقيقى باعها لأحدهم.. ثم باعها كل منهم للآخر.. والمقبوض عليهم.. هم الخمسة المشترون.. أما السارق الحقيقى الذى باع لأولهم.. فمازال هاربا .

* * *

أيضا زجّوا إلينا بثلاثة أطفال.. أى والله أطفال لأن أكبرهم كانْ طالبا سيؤدى هذا العام امتحان الإعدادية والأوسط بالسنة الثانية والأصغر بالسنة الأولى والثلاثة من أسر جيران فى شارع واحد.. انكمش الثلاثة بجوار الحائط فى ذعر حتى أصبحوا كومة واحدة من اللحم.. فقمت إليهم ملاطفا وصحبتهم إلى فراشى وفرشت طعامى بينهم وأخذت أسامرهم وأذهب عن نفوسهم الذعر.. وعرفت أن قصتهم غاية فى البساطة.. فهم أصدقاء.. وكانوا ومعهم رابع يلعبون فى الشارع.. وكان فى يد رابعهم (قصافة أظافر) تسابقوا فى الحصول عليها لقص أظافرهم.. واستعملوها كالكرة فى لهوهم.. كل منهم يحاول أن يخطفها فإذا لحق به آخر قذف بها إلى ثالث.. وسقطت على الأرض فسقطوا جميعا عليها كل منهم يحاول أن يلتقطها قبل الآخر.. فانغرست فى بطن صاحبها.. ونقل إلى المستشفى.. واقتضت الإجراءات حبس الأطفال الثلاثة للعرض على النيابة.. إنه القانون .

تفرغت لهم طوال السهرة وأحسست أن هذا واجبى وظللت ألاطفهم وأحكى لهم حكايات حتى أنسوا إلىّ والتفوا حولى ونسوا أنهم فى زنزانة.. حتى أن أصغرهم قضى طوال السهرة وذراعاه ملفوفتان حول ذراعى.. وبعد السحور ناموا حولى وظل الصغير بجوارى متشبثا بذراعى وأنا جالس أدون مذكراتى.. وظل يقرأ ما يخطه القلم حتى ثقلت رأسه وسقطت فى حجرى .

* * *

صول آخر شهم كرّم الله أصله وجعله ذخرا للوطن.. صنع صنيعا أدعو الله أن يعود بجزائه على زوجته وأولاده.. (ماخلصوش) يترك المرأة تبيت وحيدة فى الزنزانة فتسلل إلى الحجز وأدار المفتاح فى باب زنزانتها بهدوء.. وزارها.. حاملا إليها بعض الأطعمة والفاكهة.. وكنت وقتها جالسا أدوّن مذكراتى وكل من فى الحجز يغطّ فى نوم عميق.. ولكن الشيء المبهم الذى تعذّر علىّ فهمه أن ساعة الزيارة.. ساعة الصفر كما يقول العسكريون.. كانت عند أول ضوء.. أى بعد أن انطلق مدفع الإمساك بساعة.. والشهادة لله كانت امرأة جميلة.. وتستاهل .

* * *

اليوم الجمعة.. فتح باب زنزانة الحريم وخرجت المرأة إلى دورة المياه.. وكنت أظن أننى الوحيد الذى أحس بما حدث ولكنى فوجئت ببعض المساجين فى زنزانتى يطلون من نافذة الباب ويلاحقونها بالتعليقات ..

- صباحية مباركة يا عروسة .

- زوجها المغفل خاف يعضها كلب فجابها هنا فأكلها الديب .

* * *

ثم أدخلوا إلى الحجز سيدة فى حوالى الأربعين.. يبدو من مسلكها وملبسها ومظهرها عموما أنها سيدة محترمة ومن أسرة كبيرة.. وعرفت أنها حررت شيكا بدون رصيد.. ولكن بعد دقائق من دخولها أغمى عليها فحضر الحراس وحملوها خارجا واحتجزوها فى حجرة التليفون.. وكان هذا بالطبع ليس من أجل سواد عينيها.. ولكن بعد أن قام أهلها بدفع المعلوم .

* * *

فتح باب زنزانتى الرجال ففرشت بطاطينى فى الشبكة والتف حولى الأطفال الثلاثة وتعلقوا بى بشكل غير عادى.. والمدهش أن الثلاثة أصروا على الصيام.. وقبل الإفطار بساعة انهالت على المساجين أصناف الأطعمة من الأهل.. وحضر أهل الأطفال الثلاثة ورأوهم من باب الحجز وهم حولى فارتاحوا وأوصونى بهم.. وأذّن المؤذن فتحلقنا حول

الطعام كأب وأطفاله.. وقبل أن نمدّ أيدينا ناولت الصبى الكبير بعض الطعام وأشرت له فقام وأدخله للعبيط الممدد فى الزنزانة التى يحتلها وحده.. وأشرت للأوسط فقام وناول المرأة إفطارا فأعادته شاكرة لأن معها إفطارا فأرسلت لها بعض الفاكهة.. ثم تحلقنا حول الطعام وبسملنا وبدأنا الأكل.. كأنى أبوهم وعشت معهم كل عمرهم وليس لهم فى الدنيا سواى .

بعد الغروب أعادونا إلى الزنزانة.. وقبل أن أدخل حدقت فى زنزانة العبيط فوجدته راقدا فى بركة من قاذوراته فقذفت إليه برغيف فالتقطه وأخذ يلوكه بشهية وشهوة واضحة.. فقلت سبحان الله.. حتى الذى لا يدرك كيف يقضى حاجته ، يدرك كيف يأكل .

* * *

لم يسمح الوقت أمس لضباط المباحث باستقبال طابور العرض لانشغالهم طوال الليل فى التحقيق مع الصبى المتهم بالقتل والشهود.. ولما فات الموعد اليوم أخذ المفرج عنهم يتحركون فى الزنزانة جيئة وذهابا فى قلق بالغ.. إلى أن سمعنا صوت المفتاح فاندفعوا إلى الباب.. وفتح الحارس وألقى إلينا بضيف جديد وهمّ أن يغلق الباب فسأله المفرج عنهم عن طابور العرض فقال (إنه يظن والعلم عند الله أن ضباط المباحث لن يحضروا اليوم.. أولا لأن اليوم جمعة وثانيا لأنهم تعبوا جدا فى التحقيق أمس.. وثالثا لأن ماتش الكرة الدولى فى دورة سيول تأخر فى التليفزيون إلى هذه الساعة.. والمحتمل ألا يتم العرض إلا مساء باكر السبت) وهاج المفرج عنهم وعلا صياحهم وأخذوا يسبون الكبير والصغير والشرطة والدولة.. وخاف الجندى فانصرف فأخذوا يطرقون الباب بشدة ويركلونه بالأقدام حتى وصل الصوت إلى الضابط النوبتجى بالدور العلوى فأرسل أحد الحراس يستطلع الأمر.. وذهب الحارس ولم يعُد فجُنّ جنونهم.. لاسيما المحترفون منهم الدارسون لقانون الإجراءات.. وكانوا خمسة.. وعقدوا اجتماعا.. وتبرع أحدهم فوزّع عليهم برشام (ضد الضرب).. ويبدو أنه يولّد الجرأة لأنه بعده بدقائق اقترح أحدهم تسليط السلك الكهربى الخاص بالمصباح على حديد الباب بحيث يصعق أول حارس يلمسه

فيستدعى الضابط النوبتجى ضباط المباحث.. واقترح آخر كسر باب الزنزانة والهروب.. واقترح ثالث وهو فى قمة هياجه إشعال النار فى الزنزانة لإجبارهم على فتح الباب وحضور الضباط.. واقترح رابع قطع الشرايين بالأمواس والبيات فى الإسعاف أفضل من البيات فى الزنزانة .

كل هذا وباقى السجناء يراقبون ويتابعون.. وارتعش الصبية وزاغتْ أبصارُهم واصفرّت وجوههم وهم يتخيلون لو أن كل هذا أو بعضه حدث.. وزاد انكماشُهم بجوارى.. وقفز أصغرهم فجلس فى حجرى وتعلقت ذراعاه برقبتى.. فأخذت أهدّئهم وأطمئنهم وهم لا يدرون أنى كنت أكثر منهم خوفا ورعبا .

وكان الضابط النوبتجى شابا صغير الرتبة وخاف أن يتحمل النتيجة وحده فتصرّف بحكمة واستدعى ضباط المباحث بالتليفون وأرسل حارسا يبلغنا بذلك.. وبعد ساعة نودى على طابور العرض.. ثم عادوا وحملوا أمتعتهم وغادرونا فاستطعنا أن نهدأ وأن ننام.

* * *

أيقظونا فى الثامنة صباحا وفتحوا زنزانة الحريم وتوجهت المرأة إلى دورة المياه.. ثم فتحوا زنزانتى الرجال فقضوا حاجتهم أمام بعضهم بوضوح وبساطة.. ثم نادوا الأسماء المطلوبة للعرض .

ثمن البنزين.. ثم الكلبشات.. ثم السيارة.. ثم الرحلة إلى الجهات المختلفة.. ونصيبى دائما أن أبقى فى السيارة وأن أكون صاحب آخر جهة فى رحلة الذهاب.. وهذا لا يحدث بالصدفة.. فخط سير السيارة لا يخضع لجغرافية الجهات كما هو مفروض.. ولكن يخضع لأسلوب آخر يعرفه ويجيده الحراس ولهم فيه فراسة.. فهم يفرزون كل يوم الأشخاص القادرين على الدفع.. ويقسّم هؤلاء على عدد الحراس فيحظى كل حارس بواحد منهم أو أكثر ويغادر السيارة معهم (وهو وحظه) أو (هو ورزقه) وكانوا يبقوننى للآخر باعتبارى (غشيم وخواف ومش وشّ سجون) لأكون من نصيب قائد مجموعة الحراس.. فيستعملون القيد والسيارة والشمس والعبيط فى الضغط على أعصابى لزيادة التسعيرة لأن هذه الوسائل لا تفلح مع المجرمين المحترفين.. وهم فى كل هذا أصحاب

خبرة وموهبة عجيبة.. فكل حارس صادفنى فى أى موقع وجدته يضع لمهمته جدولا أو رسما بيانيا.. به حد أدنى وحد أقصى لوظيفته.. يستطيع أن يرفع الأداء إلى أعلى وأرقى مستوى إذا دفع السجين .. ويستطيع أن ينزل بالأداء إلى أسفل سافلين إن لم يدفع.. وكله فى حدود القانون.. يستطيع أن يخفف ويلطف ويرحم إن أراد.. ويستطيع أن يتشدد ويتعسف بمنتهى التبجح إن أراد .. وكله فى حدود القانون .

* * *

اقتادونا إلى مديرية الأمن وحدة تنفيذ الأحكام لمجرد السؤال.. هل علىّ أحكام سابقة مطلوب تنفيذها أم لا.. أربعة وعشرون ساعة حبسا لمجرد سؤال.يمكن أن يقوم به عسكرى ومعه الورق وحده بدونى.. وممكن أن يتمّ هذا السؤال بالتليفون.. ولكن الوقت لا قيمة له.. والإنسان لا قيمة له.. وكان يمكن أن تتمّ كل هذه الإجراءات والمتهم فى الحبس قبل صدور قرار الإفراج لا سيما أنه مجرد حجز احتياطى وليس عقوبة.. فنرحم المحجوز من أيام حبس زيادة لم يأتِ بها القانون.. كأن يعمل للمتهم ملفّ يدور على كافة الجهات المعنية لتدوّن بياناتها بشأنه أثناء مدة حبسه بحيث يكون الملفّ جاهزا أمام المباحث بعد الحكم بالإفراج ودفع الكفالة.. ويمكن إدخال نظام الكمبيوتر فى تسجيل هذه البيانات والإدلاء بها لحظة الحاجة إليها.. إن الكمبيوتر أصبح يُحصِى ويسجّل كل شيء يتعلق بأى شيء.. والإنسان شيء.. إن لم يكن أفضل الأشياء .

كان زميلى فى رحلتى إلى مديرية الأمن لصا.. وأمام وحدة مكافحة السرقات وقبل أن يدخل بالَ على نفسه واصفرّ وجهه ولصق لسانه بسقف حلقه وهمس لى وهو عاجز عن الكلام:

– معاك حمام؟.. أنا كان معاى حباية.. بس وقعت منى فى دورة المياه.

ودخل.. وبعد لحظات سمعت صراخه فارتعبت.. فهمس لى الحارس محرجا كأنه يعتذر لى نيابة عن الحكومة:

– المباحث معذورين .. الحراميّة كثير والوقت قليل والاعتراف الصريح مطلوب.. والضرب يوفّر الوقت .

* * *

توجهت السيارة إلى القصر العينى.. وحمل اللص الشاب العبيط عاريا وجسده ملطخ بالقـاذورات ومعهما الحـارس.. وبعد قليل عادوا.. رفضوا اسـتلامه وكتبوا على الورق إنه ليس مريضا.. وحالته لا تستلزم علاجا.. إنه متخلف عقليا والمستشفى للعلاج وليست للإيـواء .

عادت السيارة ولكن بروح تختلف.. ففيها الآن من صدر قرار بالإفراج عنه ومن صدر قرار باستمرار حبسه ومن كشف العرض عن وجود أحكام صادرة ضده لم ينفذها.. وهكذا دائما تمتلئ رحلة العودة بالحكايات والنوادر والحوارات التى دارت بين المتهم والمسئول الذى عرض عليه.. أو بمعنى آخر الحوارات التى دارت بين ذكاء المجرم وذكاء العدالة .

* * *

أفطرت على فرشتى وحدى.. ولكنى كنت سعيدا لأن وكيل النيابة بعد أن جاءه التقرير من القصر العينى بتحسن حالة الطفل الرابع الجريح أفرج عن الأطفال الثلاثة من سراى النيابة مباشرة.. وقبل موعد الإفطار بربع ساعة عادوا وحملوا أمتعتهم وفراشهم وعانقونى وأهدونى لفافة فتحتها بعد انصرافهم فوجدت بها (كنافة وقطايف) .

* * *

فى السهرة وفد علينا ضيوف جدد.. شاب صاحب محل كوافير حضر إلى القسم ليبلغ أنه كان يركب تاكسى ونسى فيه حقيبة يد بها سبعمائة جنيه.. سأله الضابط:

– معاك بطاقة ؟

– لأ.

– جاى القسم من غير بطاقة.. وكمان لابس ترينج سوت وشبشب زنوبة ولبانة!

– أنا حـرّ.

ومن أجل كلمة (أنا حر) أثبت له الضابط أنه ليس حرا وأودعه الحجز.. وسيعمل له (كعب داير).. ومعنى هذا.. أو أسلوب هذا الكعب الداير فى التحرى عن حقـيقـة الشخص أن يرحل من محافظة إلى أخرى.. حتى يمرّ بكافة المحافظات تحت الحراسة

وبأوراق تسأل (هل تعرفون هذا الشخص) فتردّ كلّ محافظة بأنه (ليس لديها أىّ معلومات تخصّ المذكور) وهكذا.. حتى يعود إلى نفس القسم.. ثم يفرج عنه بضمان شخصى.. وكان من الممكن الإفراج عنه من البداية بضمان شخصى.. بل وكان يمكن عدم القبض عليه أصلا.. ولكنه القانون.. وحرية الحركة للقائم على التنفيذ التى تخضع لعواطفه.. وعادة لا يستعمل هذا الأسلوب إلا مع شخص متبجح لا يحسن آداب التعامل والسلوك مع الشرطة.. فتتحايل على القانون بهذا الأسلوب لعقابه .

* * *

أربعة حضروا فى معركة.. ثلاثه أصحاء فى مكتمل الشباب ضربوا كهلا نحيفا.. تحلقوا حوله طوال السهرة وأوسعوه مديحا وتقبيلا ومجاملة.. وأشعلوا له سجائر محشوة بالمخدرات حتى سخنت رأسه و(تسلطن) فوعدهم أن ينكر الواقعة غدا أمام وكيل النيابة فأخذوا يحفّظونه.. إذا سألك وكيل النيابة عن سبب الجرح الذى فى رأسك والذى نقلت بسببه إلى القصر العينى وخيط لك سبع غرز ماذا تقول؟

– أقول واحد ما اعرفوش ضربنى بحجر وجرى .

وبعد طابور العرض على المباحث.. أفرج عن الشيخ الذى اعتدى على الخرساء.. وكذا عن الزوجة.. فغنّى النزلاء (اتمخطرى يا حلوة يا زينة).

* * *

تحركت بنا السيارة فى رحلتها اليومية.. ونحن داخلها كتلة واحدة من اللحم كالعادة.. والعبيط ممدد على أرضها.. وتخلصت من حمولتها تباعا فى الجهات المختلفة.. ولم يبق بها سواى والعبيط فاتجهت إلى وسط البلد ووقفت فى شارع سليمان باشا.. ودخل جندى إلى المصنفات الفنية ثم عاد.. لم يصل أحد من المسئولين بعد.. وانتظرنا ساعة فى الشارع.. وتذكرت كيف تسكعت هنا منذ أكثر من شهر قبل القبض علىّ بساعة.. ومع الحر زادت الرائحة النتنة .. فترك الحراس والسائق السيارة ووقفوا تحت مظلة سينما ميامى.. وكلما مر شخص بجوار السيارة وغزت أنفه الرائحة انزعج وفرّ هاربا وضحك الحراس.. واستبدت بى الرائحة وفكرت أن أشترى بخورا .. ولكن من أين لى به فى هذا الشارع.. ثم تنبهت إلى أن دخان السجاير قد يغير الحال ويلطف إلى حدّ ما

فرأيت أن أشترى علبة سجاير وأشعل سيجارة بعد أخرى وأقرب الدخان من أنفى ليتغلب على الرائحة.. فأنا لا أدخن .

حدّقت من النافذة الصغيرة لأنادى أحد الحراس فوجدتهم قد اختفوا.. وخمّنت أنهم دخلوا إلى شقة المصنفات الفنية.. فناديت أحد المارة فاقترب وتطلع إلى وجهى من خلال الشبك السلك ثم وصلته الرائحة ففرّ هاربا.. وثانٍ وثالث ورابع.. وكلما ناديت شخصا اقترب من النافذة مستفسرا تصله الرائحة فيفرّ هاربا .. كأنى كلب أجرب.. فالكل اعتقد أنها رائحتى.. وأخيرا استجاب لى شاب (ابن حلال).. وأخذ الجنيه.. وانتظرته طويلا فلم يعـدْ.. ولو كان قد ذهب ليشترى السجائر من محافظة أخرى لكفاه الوقت لأن يعود .

* * *

أخيرا عاد الحراس واقتادونى إلى المصنفات الفنية.. وعندما نزلت من السيارة وفى يدى الحديد وقف المارّة وتجمّع رواد السينما يشاهدوننى كأنى مخلوق غريب من كوكب آخر.. وسمعت أحدهم يهمس لزميله وهو واقف يقزقز لب:

– مش وش حـرامى.. ده لوحـده فى عربيـة وأربعة حـراس .. فى الغـالب مسجون سياسى.. تلاقيه مدوّخ الحكومة ومربّى لها الرعب .

فابتسمت.. وارتفعت معنوياتى وشعرت بشىء من الخيلاء وانتفش ريشى ورفعت قامتى وأخفيت ابتسامتى وملأت وجهى بمسحة من الجد والأهمية وتقمصت الدور.

دهش المقدم وهو يرانى مكبلا بالحديد.. وبادرنى بالترحيب.. وسألنى:

– إنت لسه محبوس!.. أنا قريت فى الجرايد من أسبوع أنهم أفرجوا عنك بكفالة .

فشرحت له.. وختمت كلامى بابتسامة متأملة وقلت:

– فاكر سيادتك أول ما زرتنى فى مكتبى قلت لى إيه (محتاجينك معانا خمس دقائق ) وفات شهر وأسبوع ولسه ما انتهتش الخمس دقائق .

فابتسم الرجل محرجا وهون على الأمر وأشّـر على الورق للحارس بأنى غير مطلوب للمصنفات الفنية.. ثم همس لى :

– موضوعكم قالب الدنيا.. والصحافة كل يوم تكتب عنه.. علشان كده كل واحد يتعرض عليه بينفذ القانون بحذافيره وبرضه خايف يغلط .

وودّعنى أفضل وداع وطلب منّى أن أتصل به تليفونيا بعد إطلاق سراحى ليطمئن علىّ.. إنه فى رأيى أفضل المسئولين الذين تعاملت معهم طوال الرحلة .

تحركت بنا السيارة إلى مدينة نصر ودخلت حديقة مستشفى الأمراض العقلية ونزل الحارس بالأوراق ودخل المبنى ثم عاد ومعه طبيب.. فتح الحارس باب الصندوق فانطلقت الرائحة فى وجه الطبيب فارتد للخلف منزعجا ووقف على بعد ثلاثة أمتار من السيارة وأشر على الأوراق بما معناه (أن المستشفى تختص بعلاج الأمراض العقلية.. وهذا الشاب غير مريض.. إنه متخلف عقليا وهذه حالة خلقية وليس لها علاج.. وهو ليس خطرا ولا يخشى من وجوده بين الناس ولا يمكن استلامه) فعادت السيارة.. وجمعت كل من أفرغتهم.. ووصلنا إلى القسم قبل مدفع الإفطار .

* * *

عند منتصف الليل عاد طابور العرض من المباحث فانصرف من أطلق سراحهم وزجوا بالباقين إلى الزنزانة عدا واحدا.. صعيدى يرتدى الجلباب واللبدة فى حوالى الأربعين.. أدخلوه الزنزانة الأخرى مع العبيط وأغلقوا عليهما.

فى السهرة كان الصعيدى هو حديث كل المجموعات فى الزنزانة.. وعرفنا قصته ممن كانوا معه فى عرض المباحث.. هو من بلدة تابعة لمحافظة سوهاج.. وكان منذ سنوات يقيم فى زمام هذا القسم يبيع الفاكهة على الرصيف وبطاقته العائلية مستخرجة منه.. ثم سافر إلى العراق لسنوات وعند عودته وأمام باب المطار نشلت منه حقيبة يد بها البطاقة وجواز السفر فسافر إلى بلده ثم عاد قرب نهاية الإجازة إلى هذا القسم لاستخراج (بدل فاقد) للبطاقة تمهيدا لاستخراج (بدل فاقد) لجواز السفر.. وقبضت الشرطة عليه لأن البطاقة التى سرقت منه استغلها شخص آخر وانتحل اسمه فى عملية نصب.. وبعرضه على النيابة أمرت بالإفراج عنه بضمان سكنه.. وبعرضه على المباحث الليلة أمرت بترحيله صباح باكر إلى (التخشيبة) كما تقضى التعليمات حيث إنها المختصة بالترحيل إلى المحافظات.. وإلى هنا والقصة عادية .. والجديد أن الصعيدى يحمل معه ألفى جنيه.. وقال ذلك للضابط قبل نزوله إلى الحجز فأرسل يستدعى أمين خزينة القسم ليتسلم المبلغ

على أن يرده له فى الصباح.. ولكن الليل كان قد انتصف وأمين الخزينة انصرف فأمر الضابط أن ينزل الصعيدى إلى الحجز بمبلغه ولكن يحبس فى زنزانة منفردة .

تجمع النشالون واللصوص الموجودون فى زنزانتى فى أحد الأركان وطحنوا أقراص (الإسبراكس) مع أقراص (النوفاسى) ودار عليهم الطبق والماسورة.. ودار بينهم حديث هامس هام.. ومع الشمّ انتفخت أوداجهم وسال لعابهم وزاغت أبصارهم.. ثم قام أحدهم ونادى على الصول النوبتجى فنزل إلينا فهازروه ولاطفوه وأشعلوا له سيجارة وقالوا له بعيون غامزة واعدة.. إن الزنزانة هنا مزدحمة وإنه لا مانع لديهم أن يتنازلوا ويسكنوا الزنزانة الأخرى الخالية وسيتحملون رائحة العبيط والأمر لله تخفيفا عن زملائهم المكتظين هنا.. ثم قال أحدهم موضحا أكثر:

- احنا سبعة.. والمبلغ ح يتقسم على ثمانية .

ولكن الصول خاف.. وأفهمهم أنه لو كان الأمر من أوله من تصرفه لوافقهم ولكن الصعيدى حجز مع العبيط بأمر الضابط نفسه.. فلو سرقت نقوده لن يمرّ الأمر بسلام.. وزاد ضغطهم عليه حتى وصل العرض إلى أن يحصل هو على الثلث وهم على الثلثين فوعدهم أن ينقلهم إلى الزنزانة الأخرى بعد انصراف ضباط المباحث.. وقضى اللصوص ليلتهم وقوفا.. أو قضوها ذهابا وإيابا من أول الزنزانة إلى آخرها كالوحوش الحبيسة.. وقد انتعشت ونشطت فيهم لذة الإجرام وطفحت وجوههم بالشراهة والشراسة وإدمان السرقة.. كأنها غريزة مكبوتة استثيرت فجأة فأرهقت كواهلهم وسيطرت على عواطفهم وأمزجتهم .. وروعنى منظرهم وتذكرت اللص عند عرضه على مباحث السرقات فى المديرية عندما بال على نفسه قبل أن يدخل ولم يستغرق استسلامه واعترافه دقائق.. وتعجبت لأن اللص أو المجرم عموما لا يربط بين لذة لحظة الخطأ وعذاب لحظة الحساب.

بعد السحور زاد توترهم وطرقوا الباب بشدة ونادوا على الصول.. ولكن وضح أنه بعد أن عاد إلى مكتبه حسبها بعقل فتراجع فلم يستَجبْ لطرقهم .

وبتّ ليلتى أرقبهم وأتوجّس خيفة.. فقد وصلوا إلى حالة من الغيظ والهياج والغضب من الصول الذى وعدهم وتخلى إلى درجة يصعب معها أى تفاهم.. فلو حكّ أىّ

محبوس أنفه أو حرّك حاجبه لقتلوه.. وفى الصباح سلم الصول النوبتجية وغادر القسم مبكرا قبل أن يفتح الحجز لطابور العرض خشية أن يدركوه.. والطريف أنى عرفت بعد ذلك أن الصول عندما أدخل الصعيدى زنزانة العبيط أجّـرها له مفروشة وبسعر حجرة فى فندق خمس نجوم وحصل منه على خمسين جنيها.. دفعها الصعيدى عن طيب خاطر عملا بالمثل الفلاحى الذى يقول (احرس القصب بالقصب) .

* * *

تمت الإجراءات اليومية واقتادونا إلى الشارع وأمام صندوق السيارة لاحظ الصعيدى أن وجوه النشالين غاضبة وعيونهم تطلق شررا وشفاههم تتلمظ فى انتظاره فأدرك أبعاد الموقف وتشبث بالأرض ورفض الركوب.. وأوسعه الحراس ضربا ليركب فلم تنفلتْ يداه وتصلبتا على فتحة الباب وصرخ مناديا بأعلى صوته :

– يا سعادة البيه المأمور.. يا سعادة البيه المأمور.. إلحقونى يا هوه.

والتفّ المارة حول السيارة.. وأصبح الموقف محرجا للحراس.. وهرع الضابط النوبتجى فشرح له الصعيدى الموقف وهو يشير إلى النشالين فى صندوق السيارة فى ذعر.. فأمر الضابط أن يجلس الصعيدى فى الكابينة بجوار السائق ومعه حارس.. وأن تتوجه السيارة أولا وقبل أى شىء إلى أقرب مكتب بريد ويودع الصعيدى المبلغ فى حوالة بريدية باسمه تسبقه إلى بلده فيصرفها عند وصوله.. وانتهت الأزمة وأغلقت علينا السيارة وبقى الصعيدى بجوار السائق.. ولكن النشالين لم يكفّوا عن المحاولة ولم ييأسوا .

وقفت السيارة أمام مكتب البريد حوالى ساعة.. تجمع الحراس الأربعة واللصوص السبعة أمام نافذة السيارة.. اللصوص من الداخل والحراس من الخارج.. ودار بينهم جدل ومناقشات ومساومات وعروض وإغراءات على مرأى ومسمع من باقى المساجين ومن الصعيدى أيضا.

ولكن الحراس بعد تفكير وترَوّ أدركوا أن الأمر خرج من أيديهم.. فالضابط عنده علم بالواقعة وأمرهم أن يتوجهوا أولا إلى مكتب البريد ولو نفّذوا خلاف ذلك فسيتحملون المسئولية .. فلم يخضعوا لتهديد ووعيد وترغيب وإغراء اللصوص وآثروا السلامة.. وأيضا

لم يقدروا على تحدّيهم.. وكما يقول المثل (أمسَكوا العصا من النصف) واتفقوا أخيرا على أن يودِع الصعيدى فى البريد ألفاً وخمسمائة جنيه فقط ويحتفظ بالخمسمائة الباقية فيقتسمها العسكر والحرامية .

كل هذا يدور والصعيدى منصت ومنكمش فى كابينة السيارة بجوار السائق ينتظر مصيره وما سوف تُسْفِر عنه المباحثات.. وأخيرا اقتادوه إلى مكتب البريد.. ولكن الصعيدى كان ناصحا وأودع ألفا وتسعمائة جنيه واستبقى معه مائة فقط لزوم مصاريف السفر.. وخرج من مكتب البريد يلوح بإيصال الحوالة البريدية وعيون اللصوص تتابعه من النافذة بغيظ ما بعده غيظ.. واغتاظ منه الحراس أيضا.. فقد خدعهم.. فأفهموه أن أوامر الضابط بركوبه الكابينة على العين والرأس ولكنها تنتهى بإيداعه المبلغ.. والمفروض الآن بعد أن اطمأنّ على مبلغه أن يركب فى الزنزانة كالآخرين.. ولكنه أدرك أن اللصوص لن يغفروا له خداعهم فتوسل إلى الحراس.. وعادت المساومة.. ولكن هذه المرة بين الحراس والصعيدى.. واللصوص ترى وتسمع وتتابع وتهدد.. وانتهت بأن حصل كل واحد من الحراس الأربعة والسائق على عشرة جنيهات وبقى معه خمسون جنيها.. ورغم هذا خانوه كما خانهم واقتادوه وحملوه حملا وقذفوا به إلينا فى الزنزانة وأغلقوا الباب فتلقفه اللصوص بكمٍّ هائل من الغيظ والغضب وكالوا له اللكمات حتى تورم وجهه.. وظلت قبضتاه مستميتتيْن على فتحة صدره إلى أن فاجأه أحد اللصوص بموس حلاقة كان طوال هذا الوقت يحتفظ به فى سقف حلقه أو تحت لسانه وعاجله بقطع فى رسغه .. فلما رأى الصعيدى الدم ينزف من يده ارتعب وتملكه الذعر وصرخ وتخلت قبضته عن فتحة صدر الجلباب فانتزعوا من صدره المبلغ.. كل هذا على مرأى ومسمع منا ومن الحراس.. وهو يتلفت حوله ويستغيث بنا وكلنا (أذن من طين والأخرى من عجين) وكل منا تمسك بالحكمة الهندية الشهيرة (أخرس. أبكم. أعمى) لا سيما بعد أن رأينا ما فعله موس الحلاقة .

أمام التخشيبة فى حى الخليفة توقفت السيارة وأنزلوه وسلموه للمسئولين.. ليبدأ رحلة عذاب أخرى من التخشيبة إلى شرطة سوهاج مع حراس آخرين.. رحلة عذاب

كل ذنبه فيها أن لصّا نشل منه البطاقة فى المطار فعاش هذا الكابوس المفزع المرعب الذى لا يتراءى لأى إنسان فى أى منام .

ثم أفرغت السيارة حمولتها فى الجهات المختلفة.. ولم يبق بها سواى أنا والعبيط.. وجاء دورى فتوقفت أمام وزارة الداخلية واقتادونى إلى مباحث أمن الدولة .

مشيت على سجاجيد حمراء فى أروقة وردية.. ودلفت إلى حجرة بابها مبطّن بالجلد.. وجلست أمام ضابط شاب فى ملابس مدنية.. وضغط الضابط الجرس فدخل الحارس فسألنى الضابط وأنا مكبل بالحديد :

– تشرب إيه؟

وكأننى لم أسمع أو كأننى لم أصدق ما سمعت.. فعاد يسألنى فأومأت شاكرا فطلب لى عصير ليمون.. وجاء الليمون فى (كأس) ونادى الضابط الحارس الذى أتى بى ففك قيدى.. وتناولت الليمون من كأس على طرف مكتبه.. وكان لطيفا معى كأنى أجالس طبيبا أو عالما أو فنانا أتباحث معه فى أمور إنسانية أو فنية أو أدبية فى أحد المكاتب بمتحف اللوفر أو فى السوربون.. لحظات نسيت فيها تماما أننى بين جدران وزارة الداخلية.. وأشر على الأوراق بما يفيد أن مباحث أمن الدولة (ليس لديها مانع من إطلاق سراحى.. إن لم أكن مطلوبا فى أى جهة أخرى) فقلت له مازحا:

– أنا لى أسبوع ألفّ وأدور كل يوم فى جهة لأجمع هذا المصطلح.. (ليس لدينا مانع من إطلاق سراحه إن لم يكن مطلوبا فى أى جهة أخرى) وأنا الآن فى آخر (جهة أخرى) على ما يبدو لى وربنا يستر . فابتسم .

* * *

بدأنا رحلة العودة.. ولكنى فوجئت وأنا أطلّ من النافذة أن السيارة لم تأخذ طريقها اليومى المعتاد الذى حفظته على مدار الأسبوع.. ثم تبينت أننا الآن فى مدينة نصر.. ثم توغلت السيارة حتى أطرافها.. وفى شارع ناءٍ خالٍ تماما من المارّة به بعض المنشآت لم تسكن بعد.. توقفت السيارة وفتح الباب وسحب حارسان العبيط من قدميه وسحلاه ورأسه يرتطم بأرض الشارع الذى لم يمهّد بعد.. وتركاه بجوار حائط بعيون زائغة ترى

ولا تدرك.. وعادا مسرعين كاللصوص فوضع أحدهما إصبعه على فمه ونظر إلىّ محذرا ثم أغلق الباب ولحق بزميله فى الكابينة وانطلقت العربة هاربة .

أصبت بلحظة ذهول.. ثم أخذت أعيد الحسابات.. إن مصير هذا العبيط أصبح واضحا الآن.. سيظل هنا عاريا جائعا إلى أن يستشعر أهالى المنطقة والعابرون الحرج من حالته فيبلغون قسم الشرطة فينشط فى القبض على هذا الشاب العارى الجرىء الذى يمارس فعلا فاضحا فى الطريق العام.. ويحتجزونه ثم يكتشفون أنه متخلف عقليا.. ويعرضونه على الجهات الصحية عدة أيام فترفض كل جهة استلامه لعدم الاختصاص.. ويستشعر قسم الشرطة الحرج ويخشى المساءلة لحجزه شخصا لعدة أيام بلا مبرر وبدون تسجيل فى الدفاتر.. وقد يموت فى الحجز فلا يعرف له اسم ولا عنوان ولا أهل ولا تهمة فيزداد الطين بلة.. فوقتها لن يستطيع القسم إثبات أنه كان عبيطا.. ولهذا سيتخلصون منه بإلقائه فى دائرة قسم شرطة آخر.. وهكذا.. فى النهاية بعد أشهر أو سنوات سوف يحلّ هو المشكلة.. سيموت فى الطريق.. وتتعفن جثته فى الشارع كما تتعفن جثة حمار نفق فتخلص صاحبه من مشقة دفنه بإلقائه فى الطريق .

ضربت كفّا بكفّ.. الشرطة التى تنهانا عن الخطأ تفعله.. وكما ينتظر المجرم خلوّ الطريق ليرتكب جريمته خُفيةً فعلت .

حادث الصعيدى الذى سلمه الحراس للنشالين ليسرقوه كرها على مرأى ومسمع منهم.. وحادث العبيط أصابانى بإحباط وجزعت نفسى وكرهت الاستمرار فى التجربة.. عدنا إلى القسم ودخلت الحجز معهالكا ونفسى فى الحضيض من أحداث هذا اليوم الأسود.. وتمددت على فرشتى وأسلمت نفسى للنوم ولم يبق على مدفع الإفطار سوى ساعة.. وأوصيتهم ألا يوقظونى على الإفطار إن لم أستيقظ وحدى .

نادى الحارس اسمى فوقفت فقال لى (لك زيارة) وفتح باب الزنزانة فخرجت إلى الشبكة واتجهت إلى باب الحجز فوجدت امرأة ملتفّة فى ملاءة سوداء قابضة بيديها على قضبان الباب.. كانت تُخفى وجهها بطرحة سوداء شفافة فاقتربت منها فلم أتبين ملامحها فسألت محرَجًا :

– حضرتك قاصداني.. وللا فتحى تانى؟

– مش انت المتهم بطبع الكتاب .

– أيوه .

– يبقى قصداك انت .

– أهلا وسهلا.. أحب أتشرف بحضرتك .

رفعت الطرحة من فوق وجهها فأصابتنى الدهشة وتراجعت خطوتين.. وعدت أتفحصها من فوقها إلى تحتها ومن تحتها لفوقها.. والتصق لساني في سقف حلقى.. واستقرّت عيناى على وجهها فثنَتْ خصرها بدلال وابتسمت ورمقتنى بنظرة حلوة عاتبة فى صمت فشعرت بالخجل من انتظارها وسألتها:

– لا مؤاخذة.. حضرتك رجل وللا ست؟

ثنَتْ خصرها للجانب الآخر.. وغمزت بعينيها غمزة حلوة موحية.. وهتفت ببحة أنثوية فى دلال الغانية:

– الاتنين.

(أنا اتجننت وللا باحلم.. كعب عالى وفستان حرير ملون وإيشارب وملاية لفّ وحلق وعقد وغوايش.. لكن الوش أنا عارفه كويس.. الوش (المعضّم) والنظارة السودة والملامح طه حسين.. يبقى عفريت وللا أنا باحلم!).

وأحسست بمياه ساخنة تبلل بنطلونى وتنساب بين ساقَىّ حتى ركبتى.. أما ما بقى من ساقى من تحت الركبة حتى الأرض فقد تجمدتا وأصبحتا فى برودة الثلج ولم أعُدْ أشعر بتلامس قدمى للأرض فظللت ساكنا صامتا لحظات..

– مالك عرقت كده.. ماتخافش منى.. أنا مش عفريت.

– وكمان عرفتى اللى أنا بافكّر فيه؟

– طبعاً.. ما أنا دالوقت روح.. وانت دالوقت نايم.. وعلشان أريّحك من التفكير وتنتبه لكلامى.. أنا طه حسين .

- وإيه اللى ملبس معاليك كده؟
- أنا واحدة ست.
- ماتخوفنيش منك تانى.. إزاى تبقى واحدة ست وطه حسين كان رجل؟

وبصوت طه حسين الرخيم المعروف قال:

- أحيانا يا صاحبى أكون رجل.. وأحيانا يا صاحبى أكون واحدة ست.
- مش معقول!
- المعقول اللى ما بنقدرش نعيشه فى الحقيقة بنقدر نعيشه فى الخيال وفى الأحلام.
- ده لغاية النهاردة بنأرّخ بك لعصر التنوير.. آخرتها تطلع مضلل.. تعتم لنا التنوير!
- التنويـر يابنى زىّ كل شىء فى الحياة يخضع للتعديل والتطوير ويختلف من عصر لعصر .. وانت جيلك بعد جيلى والتنوير فى عصرى غيره فى عصركم.
- مش فاهم ..
- أفهّمك.. إنت يابـنى فى زمن كل شىء له وجهين.. ودى العمـلة اللى تمشى النهاردة علشان تقدر تتعامل بها ويقبلها منك الناس.
- قصدك لازم أكون بوشين؟
- بالضبط.. وجهك هو عملتك اللى بتتعامل بها.
- شىء صعب.. وانا ما اتعودتش على كده.
- علشـان كده قاعد هـارى نفسك كتابة وعامل فيلسوف عصرك وزمانك.. ومتهيأ لك إنك مخلوق من كوكب تانى ونازل مراقبة ومتابعة وتسجيل.
- أنا كل ما اشوف حاجة غلط باسجلها.
- انت عايش فى الماضى.. عايش فى جيـلى.. يبقى لازم تشـوف كل شىء غريب عليك .
- معنى كده إن كل القيم والمبادئ اللى علمتوها لنا انت وجيلك أصبحت غلط!
- ليس تماما.. ولكن أقـدر أقول.. إن اللى تلاقيه حرام فى بلد ممكن تلاقيه حلال

فى بلد تانى.. مافيش يابنى حقيقة واحدة مجرّدة .. وكل شىء خاضع للتجربة والاجتهاد.. فيه حاجات كثير عشنا نصدقها وطلعت كذب.. وحاجات كثير كذبناها وندمنا .

- لكن انت كده توهتنى! انت إيه حقيقتك.. رجل ولّلا ست؟

- أنا زىّ كل شىء فى الدنيا فى أى بلد وفى أى زمن.. لازم يتماشى مع حسّ العصر.. مع المعقول وغير المعقول.. أحيانا أكون رجل وأحيانا امرأة وأحيانا طفل..حسب الأحوال .. وده فى نظرى دالوقت بعد تجربتى الكبيرة فى الدنيا عين العقل.. ومن خاف سلم .

- يعنى المسألة فى جملتها خوف.. يا رجل!.. تبقى طه حسين أستاذ الجيل ورائد عصر التنوير.. الأعمى الجرىء اللى قال إن كل شىء خاضع للمناقشة والشك والتفسير والاجتهاد.. ولما تشتدّ عليك العصا تخاف وتختفى فى ملاية لف!

- هو كده.. بس بالمناسبة أنا مش أعمى.. أنا مفتّح وشايفك زىّ ما انت شايفنى.

- فتّحت لما مت؟

- لأ.. أنا مفتح طول عمرى.. وعمرى ما كنت أعمى

- معقول يا ناس.. كل السنين دى كنا مغشوشين فيك.. طه حسين رجل وامرأة .. وأعمى ومفتح.

- ما قلت لك حسب الأحوال.. لما فكرت أزورك فى عصرك عملت واحدة ست.. إنت ناسى إنى بازورك فى السجن!

- توّهتنى.. أعاملك على أى وجه.. الأستاذ طه حسين وللا الأستاذة طاهاية حسين!

- إنت شايف قدامك إيه؟

- رجل لابس واحدة ست.. وعلشان أوصل للحقيقة اسمح لى أستعمل منهجك.. الشك حتى الوصول لليقين.

- أنا تحت أمرك.. ح اريحك فى النقطة دى علشان نقدر نواصل كلامنا.

- قل لى.. صوابعى دول كام؟

- ثلاثة

- مضبوط.. ودول؟

- خمسة

- مضبوط.. تسمح لى أشلحك

- ليه؟

- علشان أعرف الحقيقة

- اتفضل

- ... ...

- هيه.. عرفت؟

- آه.. حقيقة مذهلة!.. لا انت رجل ولا امرأة.. مافيش أى دليل.. إنت مسخ مختلف.

- هو ده إنسان هذا الجيل.. بيشكّل نفسه زىّ ما هو عاوز .. وحقيقته مش بين رجليه.. حقيقته فى رأسه .

## الحـــــرية

أيقظونى فجلست ضجرا.. أخرجونى من لقائى الرائع مع طه حسين.. فقلت عاتبا:

- أنا مش قلت لكم ما حدش يصحينى على الفطار!

- فطار إيه يا أستاذ.. إحنا نص الليل.. فُوقْ.. انت مطلوب للعرض .

* * *

وقفنا فى ردهة الدور الثالث.. كنت ثالث اسم فى الكشف.. نادى البلوكامين اسمى فتقدمت ووقفت أمام الباب فدخل إلى رئيس المباحث فأشر على الأوراق بما يفيد إطلاق سراحى.. وعاد فصحبنى إلى مكتبه وطلب منى البطاقة وسجلها ثم مد يده يطلب الحلاوة.. وكنت مغتاظا منه لأنه أطلق سراح النشال وغيره وسمح لهم بالعرض من بيوتهم دونى.. فقلت له بجرأة وأنا أشعر أنه استنفد كل فرص إبقائى محجوزا وأن مصيرى لم يعد بيده :

- أسبوع وأنا متمرمط كل يوم فى جهة.. وكان فى إمكانك تخدمنى.. وبتطلب الحلاوة!

ورد باعتذار جعلنى أصدقه إلى حدّ ما:

- لو كنت نشّال أو حرامى أو تهمتك عادية كنت أفرجت عنك.. لكن إنت موضوعك فى الجرايد كل يوم.. وكان لازم نتخذ معاك كل الإجراءات بدقة علشان ما نقعش فى مشاكل.. إحنا بنفرج عنك دالوقت وإحنا خايفين نكون نسينا حاجة .

- عاملتونى معاملة أشدّ من معاملة تاجر مخدرات.

- طبعا.. لأن تاجر المخدرات بيخدر الشعب.. لكن انت بتفوّقه.

ولسعنى ردّه.. فوقفت مأخوذا لحظات.. فضّلت بعدها عدم الردّ.. ثم اتجهت إلى السلم.. نزلت الأدوار الثلاثة وحدى ولم يعترضنى أحد.. وطلبت من الصول النوبتجى أن يفتح لى الحجز لآخذ فراشى فنظر إلىّ من فوق لتحت وعاد يخفض عينه فى الورق الذى أمامه وقال (اصبر لما أخلص اللى فى إيدى) وتركنى حوالى ربع ساعة واقفا أمامه وكأنه لا يرانى .. وأدركت أبعاد الموقف.. كنت أدفع لأخرج والآن يجب أن أدفع لأدخل.. و(هرشت) فقام وسحب المفتاح من على مسماره على الحائط .

* * *

خرجت من باب القسم حاملا فراشى وأوراقى دون أن يعترضنى أحد.. وعلى الرصيف اعترض طريقى رقيب أول تخطى الخمسين ضخم سمين بكرش.. رفع يده بالتحية ومدّ يده الأخرى وفتح باب سيارة ملاكى مرسيدس سوداء قديمة.. وقال:

– اتفضل يا بيه.

ونظرت إليه غير مدرك أبعاد الموقف.. وظننته يقصد غيرى فتلفتّ حولى فلم أجد سواى.. وعاد يرفع يده بالتحية ويشير بالأخرى إلى السيارة مؤكدا:

– اتفضل يا بيه أوصل سعادتك.

وابتسمت فى حياء وخجل وارتباك.. فلم أتعوّد بعد على هذه المعاملة لا سيما من هذه الفئة.. وسألته فى دهشة:

– أنا.. تقصدنى أنا؟

– إيــوه يا بيه.. مش حضرتك سعادة البيه المألفاتى؟

قلت وأنا مندهش.. ومازلت محتاجا لتفسير:

– أيوه أنا.

– اتفضّل اركبْ أوصلك .

وتطلعت إلى اللوحة المعدنية التى تحمل رقم السيارة فوجدتُ مكتوبا بجوار الأرقام كلمة (شرطة) وعُدتُ أنظر إليه فى تشكك وتردد.. ولكنه اندفع نحوى وأخذ منى لفّة

الفراش وقذف بها على الكنبة الخلفية للسيارة ودفعنى بلطف إلى الكرسى الأمامى واستدار فركب .

وتحركت السيارة.. وفى عينى دهشة وفى فمى أكثر من سؤال...!

– العربية دى شرطة؟

– إيوه.. يا سعادة البيه.

– وبتوصلوا بها المساجين لبيوتهم؟

– مش كلهم.. البهوات اللى زىّ سعادتك بس.

– وده بأوامر من القسم؟

– أوامر إيه يا بيه.. دى عربية البيه المأمور نفسه وأنا سواقها.. ولما ألاقى واحد بيه محترم وابن ناس زى سعادتك يصعب علىّ بهدلته فى المواصلات بعد نص الليل.

– دى عربية المأمور شخصيا؟

– إيوه.

– وهو عنده علم إنك بتوصلنى؟

– لأ طبعا.. يا بيه فتّح مخك وخليك معاى على الخط.. زى ما سعادتك شايف.. كل اللى فى القسم بيسترزقوا وكل اللى قاعد فى حتة بيستفيد منها.. وأنا بس اللى محبوس فى العربية دى.. وعيالى كثير والمعايش غالية والمرتب صغير وسيادتك سيد العارفين .. آهو كل ما ألاقى واحد محترم زى سعادتك أوصله وأرزق منه باللى فيه القسمة .

– طيب.. وإذا سأل عنك المأمور؟

– أنا عارف مواعيده.

– افرض يا أخى طلبك فجأة.

– أكبر توصيلة يا دوب تاخد منى نصّ ساعة .. العربية مكتوب عليها شرطة وممكن أكسر أى إشارة وماحدش يعترضنى.. وإذا سألنى المأمور أقول له كنت عند الميكانيكى أو بازود الكاوتش أو باحط بنزين .

* * *

تهادت سيارة البك المأمور ووقفتْ أمام باب منزلى بعد منتصف الليل ونزلت منها عزيزا مكرما مرفوع الرأس.. وحمل هو فراشي ومشى خلفى حتى باب الشقة فأخذتها منه وناولته (اللى فيه القسمة) ورفع يده بالتحية وانصرف.. وابتسمت وتمتمت.. بدأت الرحلة بسيارة شرطة وانتهت بسيارة شرطة.. خدمة ممتازة من الباب للباب .

* * *

وقبل أن أطرق الباب كان أولادى قد تنبهوا وفتحوا وألقوا بأجسادهم فى صدرى.. وصرنا كتلة من اللحم الفرحان .

لم يطل بقائى بينهم.. وطلبت تجهيز الحمّام.. ثم تناولت عشاءً خفيفا أو بمعنى أصحّ تناولت إفطارى.. وحملت كوب الشاى متجها إلى حجرة مكتبى فاقتربتْ منى ابنتى وهمست:

– بابا.. مافيش فى الحتة حد يعرف حاجة عن اللى حصل.. كل اللى بيسأل عنك بنقول له سافر إيطاليا .

فقلت ضاحكا:

– إشمعنى إيطاليا.. يعنى بقيت طليانى.. طال يانى طال.. ليه ماقلتوش فرنسا.. أنا باحبّ فرنسا.. بلد الحرية وأم التشاريع ومعمل الدساتير وأول من سجل وصدر حقوق الإنسان .

دخلت فوجدت أجزاء الكتاب الذى تركته مازالت فى مكانها كما تركتها.. كتاب.. وصف مصر !

# المحتـــــــــوى

# تحت الطبع

الجزء الثانى من هذا الكتاب

**« القضيـــــــة »**

- العودة إلى الحرية.
- العلاج البدنى والنفسى.
- ترددت على جميع الجهات الرسمية التى تناولت القضية بحثا عن الحقيقة.
- اكتشفت أن الموزّع الحقيقى «الأهرام» والطابع «مطبعة فى الفجالة».
- زرت السجن فى العيد.
- زارنى بعض السجناء المفرج عنهم.
- استمرار حبس المؤلف.
- موضوع الكتاب محل الاتهام.
- ملخص أقوال المتهمين أمام مباحث المصنفات الفنية والنيابة.
- تقرير الأزهر عن الكتاب «٢٥ اتهاما».
- دفاعى ودفاع مدبولى.
- كونسلتو الدفاع عن المؤلف.
- وجهة نظر الدفاع.
- شخصيات المحامين التسعة الموكلين فى القضية.
- القاضى يتغير كل جلسة.
- طلبات المتهمين الثلاثة من المحكمة.
- الاستشهاد بأسماء المتهمين فى قضايا حرية التعبير فى التاريخ.
- بعد خمسة أشهر المؤلف يبكى ويتقيأ وزوجته تصرخ فيفرج عنه القاضى.
- اتهام المؤلف فى قضية كتاب جديد.

- المحكمة تحكم بعدم الاختصاص وترفع الحكم للحاكم العسكرى.
- الحاكم العسكرى يعيد القضية لنفس المحكمة ويرفض الحكم بعدم الاختصاص.
- صدور الحكم.. وكيف بلغنى الخبر.
- الموقف العالمى والمحلى.. وملخص ما جاء فى الصحف والإذاعات الدولية.
- أصدرت بيانا وكذلك مدبولى.
- هل المقصود.. علاء أم مدبولى.
- حوار المثقفين مع الرئيس فى معرض الكتاب.
- الكتب والمجلات والصحف التى تناولت الموضوع.
- دور الاتجاهات الدينية فى الموضوع.
- الشيخ الشعراوى وتعليقه.
- دولة عربية إسلامية كبرى.. خلف القضية.
- للقضية أبعاد سياسية دولية لم يكن يعرفها المتهمون والدفاع.
- الإشاعات أننى المؤلف الحقيقى وقبضت من دول غربية مائة ألف جنيه.
- الحكم على المؤلف بسنه سجن عن كتابه الثانى من محكمة الآداب .
- المؤلف يصدر كتابا ثالث .. وفى الإهداء والمقدمة.. (يهاجم إلى حد السب العلنى المباشر..) كل المثقفين المصريين.. اتحاد الكتاب.. وزير الثقافة.. وزير المالية.. صحائف النور والشعب واللواء .. وكل النقاد والأدباء والصحفيين الذين تناولوا موضوع الكتاب.. بدءاً بنجيب محفوظ والشيخ محمد الشعراوى.
- الصحافة تتجاهل المؤلف تماما ولا ترد على شتائمه .

## روايـات للمـؤلف

- النـــــــــدم
- المـــــــاضى
- الحب الأســـود
- المحتـــال والحـــب
- أحلام المرحـــوم
- العشـاء الأخـــير
- البـــادئ أظـــلم
- زكى والدجـاجـة


تطلب من المؤلف

مكتب النيل للطبع والنشر

ت : ٣٦٢٢٥٧٨

رقم الايداع

٩٣ / ٥٥٩٥

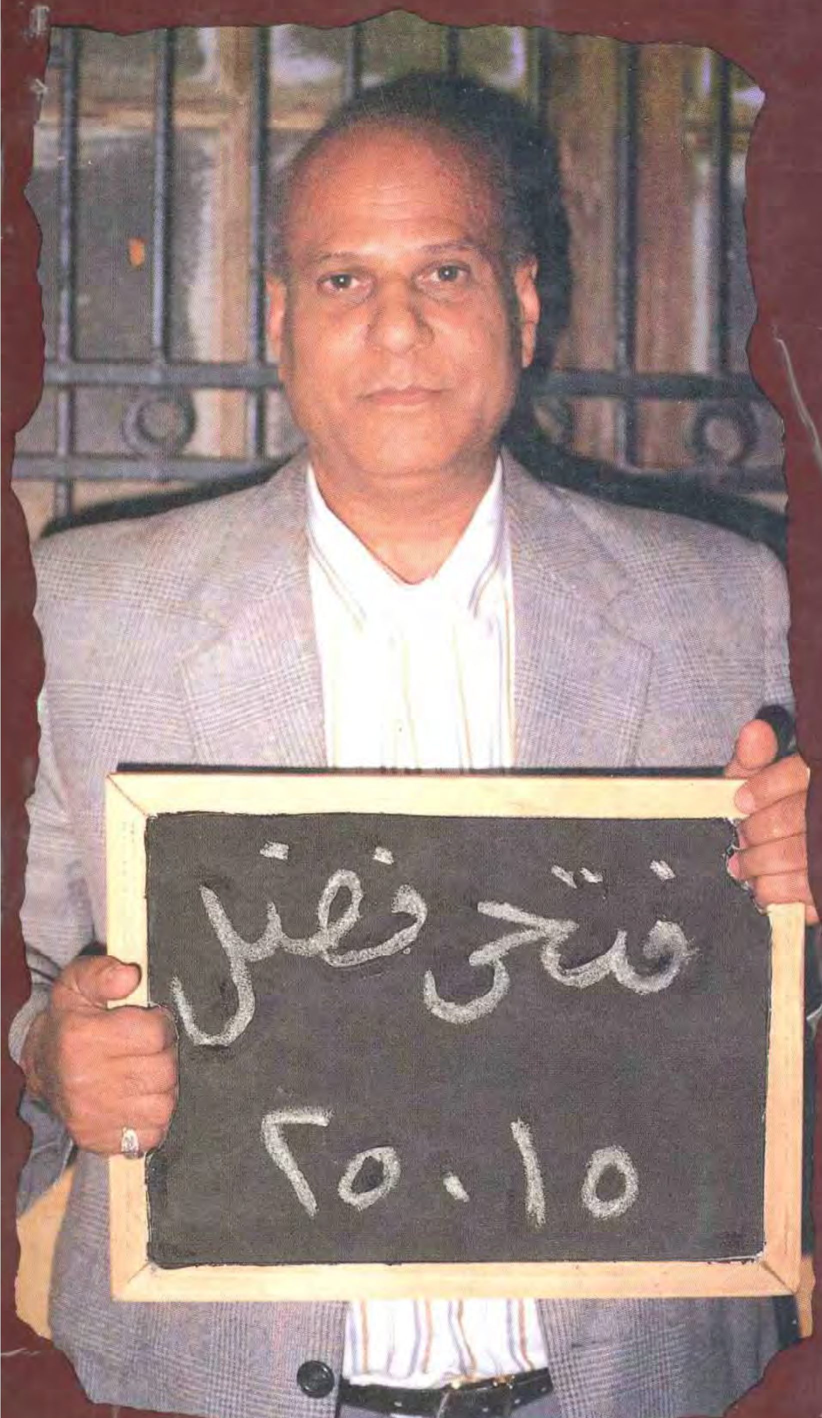
الترقيم الدولى

ISBN 977 - 5414 - 02 - 4

مكتب النيل للطبع والنشر

١٢ شارع عبده بدران ـ ميدان الباشا ـ المنيل

ت ٣٦٢٢٥٧٨




كانت تهمتى طبع الكتاب الذى تعرض للأديان.. وثارت حوله ضجة كبيرة على المستـويين المحلى والدولى.. وكـان التوصيف القانونى للتهمة «الاشتراك مع آخـرين فى التـرويج لهـدم السـلام الاجتمـاعى للدولة وازدراء الأديان». وصدر الحكم العسكرى من محكمة أمن الدولة العليا طوارئ بالسجن ثمانية سنوات مع الشـغل وغـرامـة ألف وخمسمائة جنيه لكل من الثلاثة.. المؤلف والطابع والموزع. وتعـذبت بالحرمـان من الحـرية.. والحبس مع النشالين واللصوص والقتلة والمختلسين والمزورين والمزيفين والمدلسين والمحتالين.. وتجـار الأعـراض والعـملة والمخـدرات.. وعاشرتهم جميعا معاشرة الأهل.وفلسفت أيامي فحولت السجن الي جامعة .. والزنزانة الي معـمل وكل من تعاملت معهم من السجانين والمسجونين الي فئران تجارب .. وراقبت وتأملت وحللت نماذج بشـرية زاخـرة بشـتي العـقـد والانفـعالات والسلوكيـات.. وجعلت رأسي ونفسي جهاز تسجيل لأحداث وحكايات .. وترمومترا لجس مشـاعر وأحاسيس .. وكـمبيـوتر لحسابات ومواقف .. ونسيت أو تناسيت محنتي .. وسعدت بالتجربة والمشاهدة والنتيجة .. وكنت على ما أظن السجين الوحيـد الذى تمنى أن يطول سجنه .

المؤلف